تأثير «الجزيرة»

كيف يعيد الإعلام العالمي الجديد تشكيل السياسة الدولية

فيليب سيب

ترجمة: عز الدين عبد المولى

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Al Jazeera Effect
How the New Global Media Are Reshaping World Politics
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين مركز الجزيرة للدراسات
Published by: Photomac Books. Inc
All rights reserved

تأثير «الجزيرة»

كيف يعيد الإعلام العالمي الجديد تشكيل السياسة الدولية

تأليف

فيليب سيب

ترجمة

عزالدين عبد المولى

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0184-5

جميع الحقوق محفوظة

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدمة المؤلف للطبعة العربية 7

تمهيد 9

1. ما بعد صدام الحضارات 13

2. قنوات والمزيد من القنوات 33

3. تدفق الانترنت 63

4. صعود الدولة الافتراضية 83

5. ترابطات عالمية، إرهاب عالمي 111

6. النضال الالكتروني من أجل الديمقراطية 133

7. إعادة تشكيل الشرق الأوسط 167

8. ماذا يعني كل ذلك 203

هوامش 223

مراجع مختارة 249

نبذة عن المؤلف 255

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

كـــنت قد بدأت تأليف الطبعة الإنجليزية/الأصلية لـــ "تأثير الجزيرة" سنة 2006، حين بلغت الجزيرة عامها العاشر وكانت في قمة تأثيرها. وكانت حينئذ قد غيرت مـــن طبـــيعة الخطـــاب العـــام في العالم العربـــي، وقلصت من هيمنة المؤسسات الإخبارية الغربية.

وبينما أكتب مقدمة الطبعة العربية في سنة 2010، تظل الجزيرة قوة مؤثرة في الشؤون الإقليمية والدولية، بل إن "تأثير الجزيرة" بات أكثر انتشارا. فعالم القنوات التلفـــزيونية الفضائية مستمر في التوسع، وحتى وهو كذلك، فإنه آخذ في التضاؤل أمام النمو المتسارع لمزودي الأخبار من مستخدمي الانترنت، الذين يعتمدون على المواقـــع الالكترونية والشبكات الاجتماعية. ولا شك أن ذلك يعزز من استقلالية الأفـــراد، وقد أصبحوا يجمعون المعلومات بأنفسهم ولأنفسهم، ويغيرون من طبيعة العلاقة بين الحكومات وشعوبها، لأن محاولة التحكم في تدفق المعلومات تشبه محاولة وقـــف جـــريان نهر جارف. وإذا كان يمكن لسد تقيمه الحكومة أن يعمل بعض الوقت، فإن الصدوع سريعا ما تبرز ثم تأخذ في التوسع. ستبدأ المعلومات في النفاذ، على شكل تيارات صغيرة، لتتحول فيما بعد إلى سيول عارمة. إن قدرة الحكومات علـــى أن تملي على الناس ماذا يعرفون وكيف يفكرون تضاءلت كثيرا بفعل تأثير الجزيرة.

أنـــا ســـعيد جدا بأن عزالدين عبد المولى قام بترجمة "تأثير الجزيرة" إلى اللغة العربية، وأتمنى أن يجد القراء في هذه الطبعة من الكتاب ما يهمهم ويفيدهم. فالكثير من الأمثلة التي ذكرت في الكتاب مقتبسة من العالم العربـــي، وانعاكاسات "تأثير الجزيرة" واضحة في الشرق الأوسط على وجه الخصوص.

لقد باتت مناقشة الكثير من المواضيع التي تتراوح بين السياسة والجنس، رائجة بشكل واسع بين الملايين من الناس، بفضل البرامج الحوارية على شاشة الجزيرة وغيرها من القنوات التلفزيونية، وبفضل غرف الدردشة والمنتديات الالكترونية الأخرى، وبفضل الشبكات الالكترونية مثل فيسبوك.

يشهد استخدام وسائل الإعلام الجديد في البلدان النامية في مختلف مناطق العالم تقدما – بطيئا في غالب الأحيان – ولكنه ثابت دائما. وكلما تضاعف عدد مستخدمي تلك الوسائل، كلما أصبح تأثير الجزيرة، باعتبارها قوة تغيير اجتماعي، أكثر دلالة. ومع ذلك، من الأهمية بمكان عدم المبالغة في تقدير قوة الإعلام. فحدوث إصلاحات اجتماعية حقيقية، يستوجب تغييرا في المؤسسات السياسية. ويمكن للإعلام أن يسهّل ذلك، ولكن ما لم تصبح المؤسسات التي تسيطر على السلطة على الصعيدين الوطني والدولي ملتزمة بالاعتراف بحقوق الأفراد وتحقيق انفتاح سياسي واجتماعي، فحتى أعرق المؤسسات الإعلامية سيكون تأثيرها محدودا.

تأثير الجزيرة، كتابا وظاهرة إعلامية معا، يعتمد على الأمل وعلى الإيمان بأن الناس إذا مُنحوا حرية أكبر في اختيار سياستهم وطريقة حصولهم على المعلومات، سيصبح العالم مكانا أفضل. وقد يساهم "تأثير الجزيرة" في الدفع بذلك المسار إلى الأمام.

فيليب سيب

أغسطس/آب 2010

تمهيد

إن معـــركة كـــسب العقول والقلوب في منطقة الشرق الأوسط لا تخاض في شوارع بغداد فحسب وإنما في نشرات الأخبار وبرامج الجزيرة الحوارية أيضا. ولا يـــتم تـــشكيل مـــستقبل الصين على يد بيروقراطية الحزب الشيوعي وحدها وإنما بمـــساعدة المـــدونين الذين يعملون بصمت في مقاهي الانترنت. ولن يكون توجيه هجـــومات القاعـــدة المقبلة من كهف ابن لادن وإنما على يد خلايا متمركزة عبر العالم ومرتبطة بشبكة الانترنت.

في مثل هذه الحالات، وفي حالات كثيرة مشابهة، تم تجاوز الأساليب التقليدية لـــصنع الـــسياسة الدولية بفعل تأثير الإعلام الجديد – البث الفضائي، الانترنت، وأدوات أخـــرى ذات تقنيات عالية. ما يحصل اليوم ليس تطويرا لممارسات قائمة فقط، وإنما نحن بصدد إعادة ربط شامل للقرية العالمية وإعادة تشكيل للصورة التي يشتغل بها نظام العالم.

كلمـــا تأملنا أخبار اليوم، نحتاج إلى أن نعترف أن تحت سطح الأحداث يكمن واقـــع افتراضـــي يمـــنح السياق الجديد الفوضى والتقدم على حد سواء. وفهم ذلك ضروري لأن التغيير السلمي والهجمات الإرهابية تشترك في ذات المساحة الافتراضية.

الجزيـــرة رمز لهذا العالم الجديد المتمركز حول الإعلام. فهي تؤثر في السياسة والثقافة العالميتين، وبشكل أساسي عبر تعزيز نفوذ العالم الإسلامي. واعتبارا لكونها تبث برامجها باللغتين العربية والإنجليزية (وربما قريبا بلغات إضافية)، وبما أن رسالتها منـــسجمة مـــع مضامين مواقع إسلامية على شبكة الانترنت إلى جانب مدونات ومعروضات أخرى، فإن الجزيرة تساعد في تشكيل مجتمع إسلامي عالمي بشكل لم يسبق له مثيل.

والأهـــم من ذلك، فإن الجزيرة تمثل نموذجا حول تأثير الإعلام الجديد. فقبل عـــشر سنوات، انتشر الحديث عن "تأثير السي أن أن" (CNN)، بناء على النظرية القائلـــةإنّ التغطـــية الإخـــبارية – خصوصا تلك التي تستحوذ على المشاهد عبر اعـــتمادها علـــى قصص مروية بصريا – تؤثر في اتجاهات السياسة الخارجية عبر العالم. أما اليوم، فإن "تأثير الجزيرة" يدفع بذلك الحديث إلى مدى أبعد. وكما أن "تـــأثير السي أن أن" لا يخص سي أن أن وحدها، فإن "تأثير الجزيرة" أيضا يتخطى حـــدود تلك المؤسسة الإعلامية التي تتخذ من قطر مقرا لها. فهذا المفهوم يتضمن اســـتخدام أدوات الإعـــلام الجديد في كل مظاهر الشؤون الدولية، بدءاً بالتحول الديمقراطي وانتهاء بالإرهاب، وفيه معان مثل "الدول الافتراضية".

وتعتبر الأمة الكردية القائمة مثالا جيدا للدولة الافتراضية. فهي ليست معترفا بهـــا رسميا من قبل الحكومات ولا وجود لها على الخرائط المتداولة، ولكن مع ذلك فهـــي موجـــودة. فنسيجها يرتبط ببعضه البعض عبر مجموعة من محطات الإذاعة والتلفـــزيون وعـــدد مـــن مواقع الانترنت وأدوات التواصل الالكتروني. ووسائل الإعلام الكردية تصل إلى الأكراد الذين يعيشون في العراق وتركيا وسوريا وغيرها، فـــتحافظ على الهوية الكردية وتسرّع في نضوجها السياسي. ويمكن لظاهرة الدولة الافتراضـــية أن تـــشمل كـــيانات أوسع بكثير من كردستان، مثل شعوب الأمة الإســـلامية وجالياتها المنتشرة عبر العالم. فإذا كان بإمكان الإعلام الجديد أن يحقق انـــسجام "الأمة"، فإن على صانعي السياسة في مختلف أنحاء العالم أن يتعاملوا بجدية مع هذا اللاعب الجديد في الشؤون الدولية.

لقد كان تطور الإعلام الجديد مذهلا. ففي الشرق الأوسط، تزدحم موجات الأثير بعدد غير قليل من القنوات إلى جانب الجزيرة. وقبل سنوات معدودة لم يكن هـــناك غير عدد قليل من المحطات، أما الآن فأكثر من 450 قناة فضائية عربية تملأ الفضاء، وأغلبها ملْك لخواص، ما يعني أن زمن هيمنة الإعلام الحكومي في المنطقة قـــد ولّـــى. وفي أمـــريكا اللاتينية، يقف الرئيس الفنـــزويلي هوغو تشافيز خلف "تليـــسور"، وهـــي قناة إقليمية على نمط الجزيرة. يقول تشافيز إن تليسور وسيلة لـــــ "مـــواجهة دكتاتورية الشبكات الإخبارية العالمية الكبرى". وهناك مشاريع مـــشابهة يتم التخطيط لها في أفريقيا وفي مناطق أخرى من العالم. ومع كل مبادرة،

يتضح أن القادمين الجدد ينتزعون مزيدا من النفوذ من سي أن أن وبي بي سي وبقية الشبكات الإخبارية الغربية الأخرى التي ظل العالم يعتمد عليها سنوات عديدة.

ترفض العديد من الحكومات وسائل الإعلام الجديد الصاعدة، لا سيما الجزيرة، بحجة كونها ليست مزوّدا "موضوعيا" للمعلومات وهي بالتالي لا تحظى إلا بنفوذ محدود لدى جماهيرها. غير أن استخدام المعايير الغربية بشأن الموضوعية الصحفية للحكم على مدى فاعلية هذه المؤسسات الإعلامية يجانب الصواب، ولا يساعد على فهم الأسباب الكامنة وراء تأثيرها القوي. إن المسألة تكمن في مصداقيتها، وذلك ما ينبغي الانتباه إليه. وكما قال مدير تليسور، هناك "ضرورة لأن نرى أنفسنا بأعيننا نحن وأن نكتشف حلولنا الخاصة لمشاكلنا." نفس الشعور يعبر عنه العرب وهم يشاهدون قناة الجزيرة تغطي الانتفاضة الفلسطينية أو تنقل أحداث المظاهرات المعادية لسوريا في لبنان.

لقد بدأت هذه المصادر الجديدة للمعلومات، والتي تتمتع بشعبية واسعة، في خلق تحديات لأولئك الذين في سدة الحكم. ففي مصر، تجد جماعات المعارضة التي يتجاهلها الإعلام الرسمي دعما من أصحاب المدونات. وحين اعترفت الولايات المتحدة، بصعوبة كسب "الشارع العربي" إلى جانب سياساتها، وجدت أن جهودها في مجال الدبلوماسية العامة تتعرض لسيول من الرسائل بثتها وسائل الإعلام الإقليمية والمحلية. ومن ناحيتها، تحاول الصين جاهدة ضبط حركة الانترنت داخل حدودها، إلا أنه ومع أواخر سنة 2007 كان هناك 220 مليون مستخدم للشبكة، وأكثر من 47 مليون مدون. وفي ديسمبر 2007 سُجل 66 مليون سؤال عبر محركات البحث، فلم تعد الرقابة الحكومية قادرة على التحكم في هذه الظاهرة.

ومثل هذا الأمر يحصل الآن في جميع أنحاء العالم. في الماضي كانت الحكومات قادرة على التحكم في تدفق القدر الأكبر من المعلومات وهو ما يمكنها من التضييق على مجريات التغيير السياسي، أما الآن فقد تغير الوضع. بإمكان الحكومات أن تزج ببعض المدونين في السجن وأن تمنع بعض المحطات الفضائية من البث، ولكن سيل المعلومات وما يتيحه ذلك من حرية فكرية لم يعد بالإمكان وقفه.

إلى جانب التحديات التي تواجهها الحكومات، ثمة قضايا أكبر مثل تلك المتعلقة بآفاق "صدام الحضارات" التي تلقي بظلالها على العالم في العشريات القادمة. والجدل الذي دار حول الرسوم الدنماركية سنة 2006، والذي انتشر أول الأمر عبر الانترنت، يجسّد صراعا لا مناص منه بين العالم الإسلامي والغرب. غير أن العلاقة بين العالمين أكثر تعقيدا من ذلك، وهي تتأثر نسبيا بما تتناقله وسائل الإعلام من ثقافة شعبية. ويمكن ملاحظة ذلك حين يضع طفل إندونيسي على رأسه قبعة فريق اليانكيز النيويوركي للبيسبول ويرتدي في الوقت ذاته قميص أسامة بن لادن، أو عندما تصدّر سلسلة "سيمسونز" إلى الجمهور العربي على أنها "شمشون" فيصبح سلوك هومر أكثر استقامة وأقل طرافة.

لقد غير الإعلام الجديد أيضا نمط العلاقة بين الجمهور ومزودي الأخبار. فقد كان مستهلكو الأخبار في الماضي يستقبلون، بشكل سلبي، ما تمدهم به وسائل الإعلام، في الوقت الذي تختار ذلك. أما حين أنشأ تيد تورنر (Ted Turner) سي أن أن في العام 1980، فقد أعطى لجمهوره الخيار في أن يستقبل الأخبار متى شاء. وقد أحدث المحتوى الإخباري المنقول عبر شبكة الانترنت نقلة نوعية أتاحت للمتصفحين عددا غير محدود من المنتجات الإخبارية المعروضة على الدوام. ومن جهة أخرى، فإن الانترنت تسمح لعدد أكبر من الناس بأن يصبحوا جزءاً من "ثقافة المعلومات"، يؤكد ذلك النجاح الذي حققته "أوهماي نيوز (OhmyNews) الكورية الجنوبية، التي أنشأت عشرات الآلاف من الخطوط الثانوية وأصبح يزورها عشرات الملايين من المتصفحين يوميا.

فـ "الإعلام" لم يعد إعلاما فقط. لقد أصبحت لديه قاعدة جماهيرية أوسع من أي وقت مضى، ونتيجة لذلك، أصبح يمارس تأثيرا غير مسبوق في السياسة الدولية. يمكن للإعلام أن يكون أداة للصراع أو أداة للسلام، وبإمكانه أن ينزع عن الحدود التقليدية قيمتها فيوحد الشعوب المتناثرة عبر الكرة الأرضية. إن هذه الظاهرة – تأثير الجزيرة – بصدد إعادة تشكيل العالم.

***

- 1 -

ما بعد صدام الحضارات

مـــن الـــصعب الوقوف في وجه الأطروحة القاضية بأن صدام الحضارات يقف وراء أبرز الصراعات في العالم. فنحن دائما في بحث شغوف عن الأسباب الـــتي تفـــسر ما يحدث أمام أعيننا. وكلما كان التفسير أكثر إثارة كلما كان أفـــضل. وســـواء تعلق الأمر بتوترات محدودة أم بحرب شاملة، فمردّ ذلك إلى الاخـــتلافات الجوهـــرية بين الإسلام والغرب الناجمة عن تنافر بين ثقافتيهما. ولذلك فالحل يكمن في خوض المعركة، والانتهاء منها، ثم الانتقال إلى الاختبار القادم. ثمة صدامات أخرى تلوح في الأفق. فالصين تنتظر. وماذا بعد الصين... لا أحد يدري؟

أمّـــا بالنسبة إلى المولعين بالحرب فيعكس هذا المشهد رؤية للعالم مريحة جدا، ولكـــن، أن نعـــتمد ذلـــك قاعدة نبني عليها سياساتنا فهو لعمري كسل لا يغتفر وســـيؤدي بالتأكـــيد إلى عواقب كارثية. إن النتيجة الحتمية لتبني هذا المنظور هي ســـنوات عديدة من الدمار حيث الجيوش تتقاتل والإرهابيون يضربون. فالافتراض بأن صدام الحضارات حتمي يعني أن ذلك سيحدث بالتأكيد.

قـــد تكثر النـــزاعات المسلحة وما دونها من الصراعات، كما هي الحال في مختلف مراحل التاريخ البشري، إلا أن ذلك لا يجد تفسيره بالضرورة في الصدامات الحـــضارية. فالمشاكل بين الإسرائيليين والفلسطينيين مثلا، هي في العمق سياسية – تشمل الأراضي والحقوق – وليست ذات طبيعة حضارية خالصة.

ينظر الناس اليوم إلى تلك المسائل ويحكمون على أهميتها بناء على ما يتلقونه من معلومات تصل إليهم بسرعة فائقة من وسائل إعلام لا تقف في وجهها الحدود التقلـــيدية. فالقنوات الفضائية والانترنت إلى جانب وسائل أخرى للإعلام الجديد،

تسرّع من رد فعل الجمهور العالمي على الأخبار التي تبثها وتقلص من الوقت المتاح أمام الحكومات لتتفاعل مع تلك الأخبار.

في الوضع المثالي، يمكن للإعلام الجديد أن يربط بين الشعوب والأمم، ويخلق قـــرية عالمية منسجمة. وكما قال مؤسس شبكة سي أن أن تيد تورنر، "ما يشغلني أساســـا هو أن أكون مفيدا للعالم، وأن أبني نظاما اتصاليا عالميا يساعد في التقريب بـــين البـــشر." إلا أن "القنوات التلفزيونية الفضائية العالمية وشبكة الانترنت، كما أشـــار جورج باكر (George Packer)، جعلت العالم أقل تفاهما وأقل تسامحا. إن مـــا يـــصنعه الإعلام هو ألفة اصطناعية لا غير – صورة دون عمق، وغضب دون علاج."

إن القرية العالمية، كما كتب باكر "ليست ذلك المجتمع الطوباوي الذي وعد بـــه دعـــاة العـــولمة، وإنما هي مكان ضيق حافل بالشكوك والشائعات والسخط وأنـــصاف الحقائق. وإذا كان العالم هذه الأيام يبدو أكثر شرا فقد يعود الأمر إلى الصور التي نحملها نحن جميعا في أذهاننا."[1] وفي نفس السياق يلاحظ توماس فريدمان (Thomas Friedman)، "قد تكون الانترنت، والألياف البصرية، والفضائيات، كلها بمـــثابة بـــرج بابل ذي التقنية العالية. يبدو الأمر كأنّ الله منحنا فجأة كل أدوات التواصل دون أن يمنحنا أداة واحدة للفهم."[2] بالنسبة إلى الأمريكيين، تبدو الصورة التي تُقدّم بها الولايات المتحدة للعالم ويفهمها بها الناس على غاية من الأهمية. عندما يـــرتبط التصور بالتقارب الافتراضي الذي هو وجه من وجوه العولمة، يُفسح المجال أمـــام قـــدرات وعـــوامل تهديد جديدة لتدخل الساحة. فالأهداف التي كانت في السابق بعيدة المنال باتت في متناول كل أولئك الذين لديهم نية إلحاق الضرر، كما بيـــنت ذلك هجمات سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة. لقد بينت لجنة الحادي عشر من سبتمبر أن أمريكا كانت في الوقت ذاته موضوعا لـــ "الإعجاب والحسد واللوم. وقد خلق ذلك نوعا من التباين الثقافي. بالنسبة إلينا، كانت أفغانستان تبدو بعـــيدة جـــدا، أما بالنسبة إلى أعضاء القاعدة فإن أمريكا بدت قريبة جدا. وبمعنى آخر، لقد كانوا معولمين أكثر منا."[3]

تمـــثل القاعدة نموذجا للتهديد المعولم الجديد، إنها دولة دون دولة، فهي كيان افتراضـــي تمكّـــن مـــن تعزيـــز قوته عبْر قدرته على التنظيم والتحرك في الفضاء

الالكتروني بطرق أثرت بعمق في المسارات السياسية التقليدية الراسخة. فعلى سبيل المثال، وضعت بعض المنتديات الإسلامية على الانترنت سنة 2005 إعلانات تطلب تقديم الولاء لقادة القاعدة "حتى يصبح لأسامة بن لادن جيش في أفغانستان وجيش في العـــراق وجيش ضخم على قائمة الانتظار الالكترونية. هذه هي الانترنت التي سخّرها الله لخدمة الجهاد والمجاهدين."[4]

لقـــد أحسنت القاعدة وبعض المنظمات الإرهابية الأخرى استخدام الإعلام الجديد، فاستفادت من حاجة القنوات الإخبارية الفضائية للمحتوى، واستخدمتها لبث الدعاية وعرض الرهائن وبالمقابل اكتسبت حضورا إعلاميا لافتا. وعلى نطاق أوســـع، اعتمدت تلك المنظمات على وسائل الإعلام لتبث الرعب. لقد أسفرت هجمـــات الحادي عشر من سبتمبر عن مقتل بضعة آلاف، ولكن الرعب أصاب الملايين جراء الصور التي نقلتها إليهم وسائل الإعلام. أما البعض الآخر فقد رأى في تلك التقارير الإعلامية دليلا على أنه يمكن النيل من الأقوياء وأن دعم القاعدة يمكن أن يكـــون مجديا. وفي حين يميل أغلب الجمهور إلى استهلاك المواد الإعلامية ذات المحتوى الترفيهي الذي تقدمه وسائل الإعلام الرئيسة، تستخدم المجموعات الإرهابية تلـــك الوســـائل نفسها، لا سيما الانترنت، لاستمالة الأنصار وانتدابهم وتدريبهم وإرسال الأوامر إلى أتباعها.

لم تـــنجح الحكومات – وخصوصا تلك التي تحمي حرية التعبير – في التعامل مع ظاهرة استخدام وسائل الاتصال الجماهيري لأغراض غير نـــزيهة. فقد أوصت المفوضية الأوروبية سنة 2005 بأن تصوغ وسائل الإعلام مدونة سلوك تضمن عدم تحـــولها دون قـــصد إلى منابر دعاية للإرهابيين. فالصحفيون، كما جاء على لسان المفوضـــية، "يواجهون مسؤولية صعبة في النهوض بواجبهم في إعلام الجمهور وفي الوقت نفسه عدم تيسير أهداف الإرهابيين."

إلى جانـــب ذلك فقد دعت المفوضية المؤسسات الإخبارية إلى الانتباه حتى لا يـــتم تكـــريس الأحكـــام المسبقة ولو عرضا من خلال تثبيت الصور النمطية مثل "الإرهابـــيين الإســـلاميين."[5] ولكـــن، وكما يدرك أسامة بن لادن وأمثاله، فإن التوجـــيهات لا يمكـــنها أن تلغي الجاذبية التي ينطوي عليها بث صور التهديد إلى جمهور مستعد لتصديق كل شيء، كما أن الخشية من استخدام الصور النمطية لن

يكون لها تأثير يذكر باعتبار أن اختيار المادة الإخبارية يرتكز أساسا على نوع من التنازل لفائدة الجمهور.

ينبغـــي أن تتـــرافق الإمكانـــات التقنية الجديدة مع شعور جديد بالمسؤولية. فلتقنـــيات الإعلام تأثير وعلى أولئك الذين يستخدمونها مسؤولية، فهم ليسوا مجرد عابرين بينما الصراع والتغيير يحدث على أرض الواقع.

إن أي تقيـــيم لأهمـــية العناصر الكثيرة المؤثرة في العلاقات الدولية ينبغي أن يتـــضمن، وعلـــى وجه الخصوص، تقديرا دقيقا لدور الإعلام. وهذا ليس اهتماما مستجدا، فالسرعة المتزايدة، والحضور الواسع، وتأثير المعلومات التي تنقلها وسائل الإعـــلام تـــتطلب إعادة التفكير في تقييمنا لهذه الظواهر. ولنا في ما أثارته الرسوم الدنماركية من جدل في العام 2006 مثال على الكيفية التي يمكن للإعلام أن يهز بها العـــالم. هذا المثال تجسيد لما يمكن أن يحدث حين تختلط حساسيات ما قبل الحداثة مع السياسة الحديثة وتكنولوجيا ما بعد الحداثة.

القـــصة بـــدأت بالهـــزل، حـــين قـــال أحد الممثلين الهزليين لفلمينغ روز (Flemming Rose) محرر الصحيفة الدنماركية "يولاندز- بوستن" إنه لا يتجرأ على الـــسخرية من القرآن مع أنه لا يمتنع عن السخرية من الإنجيل. وبعد ذلك قرأ روز أن مؤلفا دنماركيا لكتاب أطفال حول الدين لم يجد رسامين مستعدين لتصوير شبيه للنبـــــي محمـــد. فقرر روز في سبتمبر 2005 أن يطلب من خمسة وعشرين رسام كاريكاتور دنماركي أن يرسموا صورة لمحمد كما يتصورونه. فاستجاب له اثنا عشر رساما نشرت أعمالهم على صفحات اليولاندز- بوستن.

احـــتجّ قـــادة المجتمع المسلم في الدنمارك - حوالي مائة ألف من أصل خمسة ملايين نسمة - ضد الجريدة وضد وزير الثقافة ولكنهم لم يتلقوا ردا من أية جهة. وتمكـــنوا مـــن جمع سبعة عشر ألف توقيع على عريضة قدموها إلى الوزير الأول الدنماركـــي أندرز فوغ راسموسن (Anders Fogh Rasmussen)، ثم التقوا سفراء أحد عشر بلدا إسلاميا حاولوا بدورهم مقابلة الوزير الأول ولكن دون جدوى.

ســـافر قـــادة الاحتجاج بعد ذلك إلى الشرق الأوسط حاملين معهم رسوم يولاندز- بوستن، ورسوما مشابهة نشرتها صحيفة دنماركية أخرى، إلى جانب عدد من الصور المسيئة للرسول محمد أرسلت إلى عناوين بعض المسلمين الدنماركيين من

جهـــات مجهولة. عقدت المجموعة مؤتمرا صحفيا في مصر لقي تغطية إعلامية واسعة مـــن وسائل الإعلام العربية قبل أن يسافروا إلى لبنان ثم سوريا للقاء بعض رجال الدين.

في تلك الأثناء كانت بعض التقارير الصحفية حول الرسوم قد بدأت تظهر، كمـــا بدأ الموضوع ينتشر خاصة عبر البريد الالكتروني والرسائل القصيرة ومواقع الانترنت. بدأ الناس بشكل فردي يرسلون الرسائل الالكترونية إلى قوائم معارفهم داعـــين إياهم لمقاطعة البضائع الدنماركية. مستقبلو تلك الرسائل حولوها بدورهم إلى أصدقائهم وهكذا اتسع الجمهور اتساعا هائلا. كان ذلك المسار شبيها بسلسلة الرسائل التي كانت مستخدمة لدى أجيال سابقة، إلا أنه أسرع ويصل إلى جمهور عالمي فورا.

ومع توسع المقاطعة وتنامي حركة الاحتجاج، عبر الوزير الأول راسموسن عن عدم موافقته على نشر الرسوم غير أنه بالمقابل لا يمكنه الاعتذار عما فعلته الصحيفة باعتـــباره يـــندرج ضمن حرية التعبير. وحتى روز نفسه قال إن الرسوم "لم يكن يقـــصد منها الإهانة." دفعت تلك الاعتذارات الجزئية وسائل إعلام أوروبية أخرى مثل الصحيفة الألمانية دي فالت (Die Welt) لنشر بعض تلك الرسوم لتبرهن على التـــزامها بحرية التعبير. وقد جاء على لسان رئيس تحرير دي فالت، روجر كوبل (Roger Koppel) أن أية صحيفة في بلد مسلم تنشر تلك الصور قد تتعرض للعقوبة، ولكن الأمر مختلف في ألمانيا حيث حرية التعبير مكفولة.

بالطـــبع لم يعد "النشر في..." يعني شيئا كثيرا في عصر الاتصال المعولم. فإذا نـــشرت الـــصور في أي مكان، علينا أن نفترض نشرها عمليا في كل مكان. لقد انتشرت التظاهرات الاحتجاجية على الرسوم الكرتونية في غضون أيام لتشمل كلاّ مـــن إندونيسيا وماليزيا والأراضي الفلسطينية والعراق، وبسرعة انتقلت إلى سوريا حيث أحرقت السفارتان الدنماركية والنرويجية. في حين تناقل المتظاهرون السوريون رســـائل نـــصية مثل "انضموا إلينا للدفاع عن الرسول وعن كل مقدس"، أضرم المحـــتجون في لبـــنان النار في مبنى السفارة الدنماركية. وفي اليوم التالي، استهدفت المظاهرات في أفغانستان قاعدة جوية أمريكية، تلتها احتجاجات في باكستان. وقد قضى في مجموع هذه التحركات الاحتجاجية أكثر من عشرين شخصا.[6]

أحـــد خبراء الاتصال علق على ذلك قائلا إن قضية الرسوم الكرتونية تجسد قدرة الانترنت على "تأجيج الغضب"، عبر توجيه ضربات سريعة وثابتة تجعل الناس متحفزين دوما للنـــزاع. لقد تحولت الانترنت إلى ساحة للغضب، وبمقدور محتواها أن يجعل الغاضبين أكثر غضبا.[7] وإلى جانب الجهود الرئيسة التي بُذلت على الانترنت لتنظيم المقاطعة وتسيير المظاهرات، فقد ساهمت كتابات المدونين وأصحاب المواقع الالكتـــرونية وبقية مواطني العالم الافتراضي في خلق ما وصفه البعض بجوقة مثيرة، وما اعتبره البعض الآخر تنافرا صوتيا مزعجا. فحالما يدخل المرء إلى شبكة الانترنت فإنه يدخل إلى عالم متساو، حيث بإمكان الجميع أن يتحدثوا، وفي أغلب الأحيان هم يفعلون ذلك. ولم يعد ضروريا أن يلجأ المرء إلى الصحافة المطبوعة لـــ "ينشر" أو أن يعتمد على مؤسسة إخبارية ليصل إلى الجمهور.

إن الحكـــومات الـــتي تـــرغب في إبقاء الاضطرابات محدودة سيغمرها سيل المعلومات المنقولة عبر قنوات الإعلام الجديد العامة والخاصة. وحتى إذا تمكنت من تقلـــيص التغطية الإخبارية، فإن بإمكان الكلمة دائما أن تخرج عبر الهواتف الخلوية وشـــبكة الانترنت. ستنتشر المعلومات – حتى وإن لم تكن كلها صحيحة – ولن يكـــون ممكـــنا وقفهـــا بأيـــة طريقة. وعندما يظل الغضب مختزنا فترات طويلة، فسيحدث أمر يفجره، ويمكن للمعلومة أن توفر الشرارة لذلك.

العـــالم العربـــي مثال على تلك المناطق التي تجلب الكثير من الاهتمام، حيث يتواصـــل الغضب بمستويات عالية، وهو ما يفسره البعض بشعور العرب بأنه قد تم تجـــاوزهم في حـــين تقدمت أغلب أمم العام في مجالات كثيرة. هذا الشعور الذي تـــراكم عـــبر قـــرون، يطفو على السطح كلما نظر العرب إلى مظاهر التقدم التي يعيـــشها نظـــراؤهم في المجتمعات الغربية – والآن الآسيوية – وكلما تذكروا أن إخـــوانهم مـــن المسلمين، مثل الفلسطينيين، يقعون ضحايا لسياسات الحكومات الغربية المعادية للعرب والمسلمين. وكما قال برنارد لويس (Bernard Lewis)، فإن الـــسؤال السائد بين الكثيرين في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي الواسع هو "أين الخطأ؟" مضيفا: "مهما كانت صيغة السؤال والطريقة التي يطرح بها، ومهْما كانت الإجابـــات التي يستثيرها، فلا يمكن أن نغفل عن السخط المتعاظم والحاجة الملحة، وأخيرا الغضب الذي يغلي والذي يميز التعبير عن السؤال وعن الجواب معا."[8]

كـــان يـــشار إلى الجدل الذي أثارته الرسوم الكرتونية باعتباره دليلا واضحا علـــى ذلك الغضب الذي يؤدي إلى صدام الحضارات – في هذه الحالة، تبرز حرية التعبير الاسكندنافية مقابل التعصب الإسلامي، أو سوء أدب تقابله تظاهرات مميتة؛ غير أن ذات الإعلام الذي يسهّل العداوة، يؤكد أن الإسلام يمكن أن يلتقي مع غير الإســـلامي في بعض الحالات. فالناس ينتقون ويختارون من بين المعروضات الثقافية والسياسية، التي يكون بعضها مشتركا. يمكنك أن تفتح جهاز الحاسوب في القاهرة لتقرأ صحيفة النيو يورك تايمز. كما يمكنك وأنت تتصفح شبكة الانترنت في أوماها أن تلقي نظرة على جريدة الأهرام. تأمل كذلك الطفل الإندونيسي الذي يضع قبعة نـــادي اليانكيز النيو يوركي وفي الوقت ذاته يرتدي قميص أسامة بن لادن.[9] هنا تمتـــزج أمريكا وكل ما يبدو معاديا لأمريكا بشكل واضح ومتوقع، وذلك بفضل التدفق العالمي للمعلومات والبضائع.

ومع ذلك، تبدو بعض محاولات استخدام الإعلام للجمع بين الشرق والغرب غير ملائمة، مثل الجهود التي بذلت لتصدير سلسلة "سيمسونـــز" للعالم العربـــي علـــى أنهـــا "شمشون". فقد استُخدمت المشاهد الأصلية للسلسلة، ولكن البرنامج وقعـــت دبلجـــته بأصوات تتحدث العربية وتقرأ نصا كتب بمعايير تلائم المشاهد العربـــــي. فهومر سيمسون صار عمر شمشون، وبارت صار بدر. وتحولت بيرة هومر إلى مـــشروب غازي، و"الهوت دوغ" إلى نقانق مصرية من اللحم البقري، وأصبحت "الـــدونت" نوعا من الحلوى العربية تعرف بالكعك. ورغم هذه التغييرات، يبدو أن سلسلة سيمسونـــز/شمشون ستضمن لها جمهورا عربيا واسعا، خاصة مع وجود 60% مـــن ســـكان العالم العربـــي تحت سن العشرين و40% منهم تحت سن الخامسة عـــشرة. وحسب ما يؤكده بعض معجبـــي "سيمسونـــز" من الأمريكيين الذين يـــتكلمون العربية وكانوا قد شاهدوا النسخة المعربة، يكمن المشكل ببساطة في أن السلـــسلة لم تكن هزلية. فجعل هومر ملائما لجمهور مسلم يقتضي نـــزع رغباته التي يجدها الأمريكيون مسلية ومقبولة.[10] فالاثنان لا يمكن أن يلتقيا.

فالسمعة السيئة للرسوم الدنماركية والشعبية المفترضة لهومر سيمسون، كلاهما مـــن الوظائف التي يقوم بها تيار المعلومات العالمي الذي أصبح ممكنا بفضل تقنيات الاتصال الجديدة. وفي أقل من عشريتين بدأ الناس يرون العالم بصورة مختلفة تماما.

واذا اعتـــبرنا ســـنة 1991 نقطة انطلاق، فإن حرب الخليج ذلك العام مثلت آخر أنفـــاس الهيمنة الاتصالية الغربية. لقد كان شعار سي أن أن في ذلك الوقت "العالم يشاهد سي أن أن". وكان ذلك صحيحا، لأن أغلب الناس لم تكن لديهم خيارات كـــثيرة. فباســـتثناء سي أن أن وبعض مزودي المعلومات الأمريكيين والأوروبيين، كـــان هناك ما يشبه الفراغ على صعيد الإعلام العالمي. ربما كان للجهات المهيمنة على تقديم الخدمات لإخبارية والترفيهية والمنتجات المعلوماتية الأخرى القدرة على الوصـــول إلى جمهـــور عالمـــي ولكنها بالتأكيد لم تكن تملك منظورا عالميا. يمكن للهيمـــنة الـــسياسية والثقافـــية أن تدوم بمثل ذلك النظام الإعلامي المحدود غير أن الأصوات الأخرى لم تكن مسموعة.

وبعد حرب الخليج بفترة، بدأ عاملان اثنان ينخران الوضع السائد: تزايد عدد القـــنوات الفـــضائية خارج العالم الغربـــي، مثل الجزيرة، وتنامي دور الانترنت. وهـــناك عدد من القنوات التلفزيونية الفضائية أتاح للمشاهدين فرصة الاختيار بين "نحـــن" و"الآخـــر" – خـــيار الالتفات عن الغرباء والتمركز بدلا من ذلك حول مزودي أخبار قد يكونون أقل مهارة ولكنهم أكثر استحقاقا للثقة. لقد بدأت هذه القنوات الإخبارية الفضائية تؤثر في السياسة ما إن شرعت في تكوين جمهور. فقد أصـــبحت التقارير الإخبارية عن انتفاضة العام 2000 تصل إلى الجمهور العربـــي مباشرة دون الخضوع لعمليات تصفية العدسات الغربية أو المرور عبر أجهزة الرقابة الحكومية. وقد أدرك الإسرائيليون سريعا أن المشاعر السياسية في البلدان المحيطة بهم أصبحت مشحونة حتى أكثر من ذي قبل.

وحين يتكامل هذا الانتشار التلفزيوني الواسع مع قدرات الانترنت الهائلة، فإن عالم السياسة يتسع أكثر. فالدخول إلى الانترنت يمكّن الناس من الوصول إلى عدد غـــير محدود من مصادر المعلومات بدءاً بوسائل الإعلام الراسخة وانتهاء بالمدوّنات الناشـــئة، كمـــا يـــصبح بإمكانهم التواصل مع بعضهم البعض. فالطبيعة التفاعلية للانتـــرنت تجعـــل منها أداة للتحاور والتعبئة تمنحها قوة عظيمة، رغم أن تأثيرها الفعلي لا يزال في طور التكهن و لم يقع إثباته بعد.

حـــين اهتـــز العالم لأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، كانت وسائل الاتـــصال العالمـــية قد أصبحت على درجة كبيرة من التنوع والأهمية لا باعتبارها

مزود معلومات فقط، وإنما أيضا باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من العولمة ككل. والعولمة على حد تعبير توماس فريدمان هي "ذلك النظام العالمي الشامل الذي يشكل عمليا السياسة المحلية والعلاقات الخارجية لكل دولة، وعلينا أن نفهمها على هذا الأساس." وبعبارة أكثر تحديدا، تتضمن العولمة حسب فريدمان "الاندماج الحتمي للأسواق، ولنظم النقل، ونظم الاتصال بدرجة لم يشهدها العالم من قبل... وبمعنى أشمل، فقد انتقلنا من عالم مبني على أساس الانقسام والانعزال إلى نظام مبني على أساس الاندماج والتشابك."[11]

وباعتبارها جزءاً من هذه النقلة، يرى جون شلبي (Jean Chalaby) "أن عولمة الاتصال تلعب دورا حاسما في اقتلاع الرأسمالية والليبرالية الاقتصادية من أرضهما، وهي إلى جانب ذلك عنصر مركزي في مسار العولمة عموما. فكثير من مجالات النشاط هي الآن بصدد الاندماج على المستوى العالمي، وهي بذلك تتحول تدريجيا إلى نظم عالمية. فحركة التواصل الكونية تضاف إلى تدفق المعلومات، وشبكات الاتصال، ونظم التبادل التي تكثف الترابط بين هذه المجالات وتسهل اندماجها عالميا."[12]

أغلب تقييمات العولمة مفعمة بنبرة تفاؤلية تجعلها غير واقعية نظرا لحجم العوائق المؤكدة التي تعترض طريق العولمة. فالصراعات يمكن أن تعرقل بعض المظاهر البنّاءة للعولمة، علما وأن للعولمة جوانبها السلبية – مثل السهولة التي يجدها الإرهابيون في السفر عبر العالم لتعقب أهدافهم، أو السرعة التي يتحول بها مرض محلي إلى وباء عالمي.

ولكن العولمة تعزز الانفتاح ولو بنسب متفاوتة، ولهذا السبب فإن العولمة وصدام الحضارات يبدوان في علاقة تنافر، ويبدو أن الإنجازات المتوقعة للعولمة ستخفف من حدة مثل ذلك الصدام. ويبدو أن الصراعات القادمة ستكون ضمن الحضارات نفسها حيث يتصارع التقدميون مع الرجعيين داخل الحضارة نفسها.

وحتى هذا المشهد يبدو قاتما، فبينما تحتدم تلك الصراعات، إما أن يتعثر التقدم العالمي بشكل لافت أو يتخلف الجزء الذي يشهد تلك المعارك في حين يتقدم الآخرون. وأيا كان السيناريو الأرجح فإن دور الإعلام يظل جوهريا. فالإعلام الذي يلعب على عاملي الخوف ومفاقمة التوتر يمكن أن يكون له تأثير ناري.

والـــتاريخ حافل بأمثال السياسيين الذين أتقنوا استخدام هذه المهارة الخبيثة، ومن بيـــنهم أدولف هتلر ومرتكبو الإبادة الجماعية في رواندا. ومن جهة أخرى، يمكن للإعلام أيضا أن يقلص من النـــزاعات الداخلية عن طريق ترسيخ الشفافية وإتاحة الفرصة لأولئك الذين قد يكونون وجدوا أنفسهم محاصرين بالاضطرابات، أن يروا عالما أفضل خارج حدودهم وتجربتهم الذاتية.

يمكنـــنا أن ندرك مفعول الانتشار الواسع للمعلومة ومدى تأثيرها حين نرى كيف أعاد الناس في البلدان الإسلامية وفي الشرق الأوسط تحديدا، صياغة نظرتهم للعالم ولذواتهم. فقد لاحظ جون ألترمان (Jon Alterman) أن "التغيرات التكنولوجية تعـــني لأغلبـــية الناس في العالم العربـــي تنوعا أكبر في وجهات النظر التي تعرض عليهم، خلافا لما كان عليه الأمر في السابق. ومع تقدم نسب التمدرس، والاتساع الهائـــل في نطـــاق تدفـــق المعلومات، فقد أصبح متاحا أمام الجمهور طيف واسع وأحـــيانا غـــير مـــنظم من الرؤى التي تتروح بين العلمانية والدينية، وبين القومية والكونـــية، وبين المادية والروحية. وبمقتضى هذا النموذج الجديد، فإن الطلب هو الـــذي بات يحدد حركة المعلومة وليس العرض، كما أن عالم الرؤى المتاحة أصبح أوسع بكثير من ذي قبل."[13]

وقد وسّع التنوع الحاصل في وجهات النظر المتاحة أمام الجمهور العريض من نطاق الخطاب وطوّر مستويات جديدة من النقاش العام. وفي تقييمه للجيل الجديد من وسائل الإعلام العربية، لاحظ مارك لينش (Marc Lynch) أنه "بدلا من فرض إجماع واحد مهيمن، فإن محطات التلفزيون الفضائية، إلى جانب الصحف ومواقع الانتـــرنت، ومواقـــع أخرى عديدة للتواصل العام، أصبحت تتحدى العرب حتى يـــتجادلوا، ويختلفوا ويسائلوا الوضع السائد."[14] كما أن وسائل الإعلام الجديدة هذه تجعل البيئة الإخبارية التي يعيشها الناس أكثر كثافة. فهم يرون الكثير مما يجري في العـــالم من زوايا نظر مختلفة، ويعود ذلك نسبيا إلى أن حكوماتهم لم تعد قادرة على مراقبة أغلب ما يتدفق على شاشات التلفزيون والحاسوب.

لقـــد تـــرافقت التكنولوجيات الجديدة مع نمط جديد من الصحافة، يتسم بقوة الصورة وإثارة الجدل، وبإمكانه أن يرفع من درجة حرارة الجمهور ويصبح عاملا هاما في ســـياق المنافسة على التأثير في الرأي العام. وكما لاحظ جيل كيبل (Gilles Kepel)،

"مع احتلال العراق دخلت الحرب إلى غابة الانترنت لكسب عقول المسلمين. فقد رأينا تداولا حرا لصور المساجين العراقيين وهم يعذبون أو يهانون جنسيا على أيدي حراسهم الأمريكيين، بالإضافة إلى مشاهد الفيديو التي تصور رهائن تساء معاملتهم من خاطفيهم الإرهابيين... لقد محت تغطية حرب العراق على الانترنت الحدود الجغرافية بين دار الإسلام ودار الحرب التي بنيت على أساسها الجغرافيا السياسية للمسلمين على امتداد أربعة عشر قرنا."[15]

هذا المسار يشمل أكثر من إثارة غضب العرب وتوجيهه ضد الولايات المتحدة. إنه يؤثر كذلك في الصورة التي يرى فيها العرب المسلمون أنفسهم، وهي صورة لا يبدو أنها مُرضية. وفي تعليقه على رد الفعل السعودي على التغطية الإخبارية للصراع في المنطقة، يلاحظ جون برادلي (John Bradley) أن "صور الجنود الإسرائيليين وهم يرتكبون الانتهاكات ويقتلون الأطفال الفلسطينيين... لا تزيد إلا في تغذية السخط لدى الشباب السعودي، الذي يرى أنه رغم ما يتمتع به من أمن وتسامح فإنه يعيش حالة من الخمول والعجز. وفي المقابل يرى أن الفلسطينيين، رغم الفقر والقمع إلا أنهم يتمتعون بالجرأة والإقدام."[16]

ومن المظاهر الأخرى للتغيير الذي ساهم فيه الإعلام في الشرق الأوسط تغطية إسرائيل في وسائل الإعلام العربية. فقد نقل يوسي ألفر (Yossi Alpher) أنه عند رحيل المستوطنين اليهود من غزة سنة 2005، كان مراسلو الجزيرة والعربية "يثبتون ميكروفوناتهم قريبا من وجوه المستوطنين الغاضبين والجنود وهم يبكون، بل إنهم عبروا في بعض الأحيان عن تعاطفهم معهم في محنتهم. كما أجروْا مقابلات صحفية مع رئيس الموظفين العسكري الإسرائيلي." لاحظ ألفر أن "ظاهرة الإعلام العربي وهو ينقل صورا مباشرة من إسرائيل إلى داخل غرف الجلوس في الرياض وبغداد وبيروت، توفر مادة للتفكير." فقبل سنوات قليلة، لم يكن هذا النوع من التغطية متاحا على الإطلاق. وحتى إذا وفرته وسائل الإعلام الغربية، فسيكون فاقدا للمصداقية.

وبالتأكيد، لم تكن القنوات العربية الحكومية المملة تجرؤ على تغطية إسرائيل على أي نحو إلا بطريقة كاريكاتورية دعائية.

إنّ ألفر، الأكاديمي والموظف السابق لدى الموساد، وغسان الخطيب، نائب رئيس جامعة بيرزيت ووزير التخطيط والعمل السابق في السلطة الفلسطينية،

محـــرران في موقع (bitterlemons.com)، وهي مجلة الكترونية توفر وجهات نظر الإســـرائيليين والفلسطينيين بشأن المسائل ذات الاهتمام المشترك. وفي منتصف عام 2007 تجاوز عدد مشتركي البريد الالكتروني لهذه المجلة أربعة عشر ألفا، بينما فاق عـــدد قرائها على الانترنت مائة ألف كل أسبوع. إلى جانب ذلك، فإن مقالات الـــرأي الـــتي تنشرها المجلة، تعيد نشرها وسائل إعلام أخرى، بما في ذلك وسائل الإعلام العربية التي تنشر مقالات لكتاب إسرائيليين. وكما قال ألفر، فإن ذلك "لا يعد ثورة، وإنما هو تغيير في كل الأحوال."[17]

ثمـــة تغـــيير آخـــر يمكن ملاحظته ويتعلق بالموقف من دور الإسلام في الحياة الـــسياسية. فقد خلص مشروع بيو لدراسة المواقف العالمية في استبيان أجراه عام 2005 إلى أن المـــستجوبين، في خمـــس بلدان من بين ست أُجري فيها الاستبيان، يعـــتقدون أن دور الإسلام في الحياة السياسية في تضاعف مستمر. وهذا الرأي يجد تأيـــيدا قـــويا في إندونيسيا والمغرب، ويقل ذلك التأييد نسبيا في كل من باكستان وتركيا ولبنان. الاستثناء الوحيد هو الأردن حيث وجدت الدراسة أن أغلبية كبيرة تـــرى أن دور الإسلام أقل.[18] وبينما يتنامى نفوذ الإسلام السياسي على المستوى العالمـــي، تـــتعدد المـــناورات من أجل القيادة، مثل المنافسة السياسية بين العربية الـــسعودية وإيران. وتستخدم القوتان الإسلاميتان في هذا السياق دبلوماسية عامة ممـــوّلة تمويلا جيدا، إذ يموّل كل منهما مدارس ومساجد ومشاريع شعبية أخرى في عدد من البلدان الإسلامية.

وعـــندما نقيّم مستقبل الإسلام، ينبغي ألا نغفل حضوره في المناطق النائية التي تمتد خارج حدود العالم العربـــي. فعلى سبيل المثال، يبلغ سكان الصين من المسلمين 21 مليونا، وهو ما يعادل تقريبا جميع سكان المملكة العربية السعودية. وقـــد احـــتجّ مسلمو الصين حين بدأت حرب العراق عام 2003، وأثناء قضية الرسوم الدنماركية عام 2006، ولكن الحكومة تحركت بسرعة لقمع المتظاهرين وأصـــدرت تعلـــيمات للأئمة بعدم تحريض السكان المسلمين. وفي تعليق لمدير إحدى المدارس الإسلامية في مدينة لنكسيا قال: "علينا أن نتعاون مع حكومتنا. لقـــد طلبوا منا أن نظل هادئين، وأبلغونا أنهم سيتحدثون نيابة عنا ويعبرون عن عـــدم رضـــانا." وحتى عندما كانت تلك المدرسة تتعاون مع الحكومة وتلتزم

بالهـــدوء، اقتـــنت جهازي حاسوب وأصبحت تحصل على الأخبار مباشرة من الشرق الأوسط.[19]

وكلمـــا كبر حجم الأقليات المسلمة خارج دائرة الشرق الأوسط وأصبحت أكثر بروزا، كانت مساهمتهم في إعادة تعريف الإسلام العالمي أكبر. وكما لاحظ أوليفيه روي (Olivier Roy)، فإن "العولمة فرصة سانحة لفصل الإسلام عن أية ثقافة معينة ولتقديم نموذج يمكنه الاشتغال خارج كل الثقافات." وقد بدأ الإسلام بالفعل في الانتـــشار خـــارج حدوده وفي النظر إلى المستقبل. وعلى حد تعبير روي، "بدأ دعـــاة الإسلام يعتمدون في إلقاء خطبهم على اللغات الغربية أكثر فأكثر، وذلك لـــسببين بسيطين: فهم يرغبون في مخاطبة الأجيال الجديدة، ويريدون الوصول إلى جمهـــور مـــتعدد الإثنـــيات."[20] إن لدى الأئمة وبقية المسؤولين ضمن التراتبية الإســـلامية دوافع لتوسيع نطاق طموحاتهم بهذه الطريقة لأنهم يعلمون أن بإمكانهم الوصول إلى ذلك الجمهور عبر قنوات التلفزيون الفضائية وشبكة الانترنت. فالتقنية العالية باتت في متناولهم لممارسة الدعوة.

وفي حـــين يسعى الإسلام إلى إعادة تشكيل منظوره لذاته ولبقية العالم، يجدد العـــالم نظرته للإسلام. يحدث ذلك بطرق مختلفة أغلبها لها انعكاسات سياسية. في عام 2005 كتبت الصحفية اللبنانية ديانا مقلد أن القيادات الإسلامية التي تستخدم خطابـــا ناريـــا حين تتحدث إلى لإعلام العربـــي، ولكنها تكون أكثر توازنا حين تـــتحدث بالإنجليـــزية إلى شبكات الإعلام الدولية، تتفاجأ عندما تجد أن الناطقين بالإنجليـــزية قد اطلعوا على ترجمات لتعليقاتهم السابقة. وتضيف مقلد: "إن العالم يراقب عن كثب. فهناك مؤسسات غربية متخصصة في ترجمة المواد التي تصدر عن الإعـــلام العربـــــي بمختـــلف أشـــكاله" ولذلك فإن تصريحات المتطرفين تجعل "المهاجرين العرب والمسلمين وأطفالهم في الغرب يدفعون ثمن تلك الكلمات."[21]

أغلـــب ما تراه بقية بلدان العالم عن العالم الإسلامي، وتحديدا عن الدول العربية، يـــصلهم عبر مصفاة من الأساطير والصور النمطية. في مقالة له نشرها على شبكة الانترنت حول التغطية التلفزيونية الأمريكية لحرب إسرائيل – حزب الله في 2006، أشـــار مراسل الجزيرة حبيب بطاح إلى أن أحد برامج شبكة أم أس أن بـــي سي (MSNBC) استـــضاف "مراسلين ميدانيين ونقادا، أغلبهم يتبنون صراحة وجهة

النظـــر القائلـــة بـــأن إسرائيل تخوض معركة ضد "أعمال إرهابية" وضد "التهديد الإســـلامي العالمـــي" – دون الإشـــارة إلى ما كان يحدث في لبنان من دمار هائل وخـــسائر في الأرواح."[22] ومـــن الأمـــثلة على رسم الصور عن طريق الخطاب الإعلامـــي، كانت مقالة بطاح رمية أخرى في معركة متواصلة. وتزداد الاتهامات المتـــبادلة بـــشأن الانحياز إلى العرب أو الوقوف ضدهم أو الانحياز إلى إسرائيل أو الوقوف ضدها في التغطيات الإخبارية.

وعلـــى نطاق أوسع، أدى تنامي الحضور الإسلامي في بلدان غير إسلامية – تقلـــيديا – إلى الاعتراف، كما يقول أوليفر روي "إن الإسلام أصبح ملمحا ثابتا لمجـــتمعاتها، وهو ما دعا إلى إعادة النظر في هويات أوروبا القومية."[23] ورغم أن التقديـــرات بشأن عدد المسلمين في البلدان غير الإسلامية عادة ما تكون غير دقيقة إلا أنه يمكن القول باطمئنان إنّ نسبتهم في بريطانيا 3%، وفي ألمانيا 4%، وفي فرنسا 8%، وفي روســـيا 10%. هـــذه النـــسب قليلة نسبيا إلا أن النمو المتسارع لعدد المسلمين في تلك البلدان خلق وعيا جديدا وواسعا بالإسلام. فعندما يُفتتح مسجد جديد في شارع في حي ذي أغلبية مسيحية، فإن ذلك يجلب الانتباه.

وتمـــضي إعـــادة التقييم المتبادل قدما، فمن جهة يتطلع الإسلام إلى ما وراء مواطنه الأصلية أو المتبناة، ومن جهة أخرى يواصل العالم مراقبة الإسلام ليحدد ما إذا إكـــان صـــديقا أم عـــدوا. وحـــسب استطلاع للرأي أجراه مشروع دراسة الـــتوجهات العالمية التابع لمركز بيو للأبحاث سنة 2006، تبين أن "النسبة الغالبة من جمهـــور المسلمين تشعر بالسخط تجاه الغرب وشعوبه أكثر مما عليه الأمر في الحالة المقابلـــة. لقـــد أصـــبحت آراء المسلمين تجاه الغرب وشعوبه أكثر سلبية في السنة الماضـــية، ونسب كبيرة منهم تلقي باللائمة على الغربيين وتعتبرهم مسؤولين عن تـــوتير العلاقات بين الطرفين. ولكن، في المقابل هنالك مؤشرات إيجابية من ذلك التراجع الواضح لدعم الإرهاب في أغلبية البلدان الإسلامية التي شملها الاستطلاع." أمـــا في الغرب، فقد وجدت دراسة بيو أن "نسبا كبيرة من الجمهور العام في كل مـــن ألمانيا وإسبانيا تعتبر أن هناك تضاربا طبيعيا بين أن تكون مسلما ملتزما وأنت تعيش في مجتمع عصري. ولكن أغلب المسلمين في هذين البلدين لا يقفون مع هذا الـــرأي. أمـــا في فرنـــسا الـــتي كانـــت مناطقها ذات الأغلبية المسلمة مسرحا

للاحـــتجاجات، فقـــد جـــاءت النسب مرتفعة سواء بين المسلمين أو في أوساط الجمهور العام لتؤكد أنه لا تناقض بين أن تكون مسلما ملتزما وأن تعيش في مجتمع عصري."

وقد أبرزت نتائج الدراسة أيضا أن هناك مؤشرات للأمل وأخرى تبعث على القلـــق بـــشأن دعم المسلمين للإرهاب وإمكان قيام ديمقراطية قابلة للاستمرار في الـــبلدان الإسلامية. في كل من الأردن وباكستان وإندونيسيا، لوحظ تدنٍّ كبير في نـــسب من يرون أن التفجيرات الانتحارية والأشكال الأخرى للعنف ضد أهداف مدنـــية يمكن تبريرها في سياق الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. وكان هذا التحول هائلا في الأردن بشكل خاص، وربما جاء ذلك ردا على الهجمات الإرهابية المدمرة في عمـــان ســـنة 2005. فقد اعتبر 29% فقط من الأردنيين أن الهجمات الإرهابية يمكن تبريرها غالبا أوأحيانا، وذلك مقابل 57% في مايو 2005.

ورغـــم تـــدني نسبة من يعتقدون أن الإرهاب يمكن تبريره باسم الدفاع عن الإســـلام مقارنـــة بالاستطلاعات السابقة، إلا أن عدد المناصرين لهذا الرأي يظل كـــبيرا. فعلـــى سبيل المثال، يرى نحو نصف سكان نيجيريا المسلمين (46%) أن الـــتفجيرات الانـــتحارية يمكـــن تبريرها غالبا أو في بعض الأحيان بأنها دفاع عن الإســـلام. وحتى في أوساط الأقليات المسلمة في أوروبا، يرى نحو واحد من سبعة تقـــريبا في فرنـــسا وإسبانيا وبريطانيا أن التفجيرات الانتحارية ضد أهداف مدنية يمكن تبريرها، على الأقل في بعض الأحيان، للدفاع عن الإسلام ضد أعدائه. ويظل الشعور المعادي لليهود مسيطرا في البلدان ذات الأغلبية المسلمة.

ومـــع ذلك فقد وجد الاستطلاع أن هناك ما يدعو للتفاؤل، فالمسلمون وغير المسلمين يقدرون أن ثمة فرصا لقيام ديمقراطية حقيقية في البلدان الإسلامية. "نسب كـــبيرة في كل البلدان الإسلامية التي شملها الاستطلاع تقول إن الديمقراطية ليست للغرب وحده ويمكن أن يتم العمل بها في بلداهم أيضا. أما الجمهور الغربـــي فقد بـــدا منقـــسما، ففي حين ترى أغلبية في ألمانيا وإسبانيا أن الديمقراطية هي طريقة غـــربية لتـــصريف الأمور ولا يمكنها أن تنجح في أغلب البلدان الإسلامية، تعتقد أغلبية الفرنسيين والبريطانيين ونحو نصف الأمريكيين أن الديمقراطية يمكن أن تنجح في البلدان الإسلامية." ومن بين النتائج الأخرى التي انتهت إليها الدراسة "أن القلق

بـــشأن التطرف الإسلامي مشترك بنسب عالية لدى الجمهور الغربـــي والإسلامي على حد سواء، باستثناء الصينيين حيث عبّر 59% منهم عن اهتمام ضئيل أو عدم اهـــتمامهم بالتطرف الإسلامي." كما أن هناك اختلافا بين المسلمين حول ما إذا كـــان هـــناك صراع في بلدانهم بين الإسلاميين الأصوليين والمجموعات التي تسعى لـــتحديث المجتمع، علما وأن هناك أغلبية صريحة من بين أولئك الذين يعتقدون في وجود الصراع يدعمون التحديثيين."[24]

تشير الاستطلاعات التي يجريها مركز بيو ومؤسسات بحثية أخرى أن اتجاهات الـــرأي في أوســـاط المـــسلمين وغير المسلمين تظل قابلة للتغيير بنسب عالية. وأن الجميع يستفيدون من تدفق المعلومات التي توفرها وسائل الاتصال وأجهزة الإعلام الحديثة. وتعتبر الجزيرة أبرز هؤلاء المزودين سواء باعتبارها نموذجا لنسل جديد من المؤســـسات الإعلامـــية الناشئة عبر العالم، أم باعتبارها لاعبا من بين اللاعبين في السياسة الدولية.

وإذا أردنـــا أن نفهم تأثير الجزيرة، فلا ينبغي أن ننظر إلى القناة بمنظار صانعي الـــسياسة الغـــربيين االذين لا يرون فيها إلا مصدرا للضجيج الحاقد، وإنما بمنظار جمهـــورها العربـــــي الذي ينظر إليها باعتبارها تكثيفا في الوقت ذاته لسخطهم ولـــتطلعاتهم المشتركة، وناقلا للحقيقة (باستثناء حكومتها القطرية). وسواء كان ذلـــك قريبا من الدقة أو بعيدا عنها، فالجزيرة تظل مصدرا موثوقا لتسجيل المصالح العـــربية وروايـــتها. وحسب رأي الكثيرين من مشاهديها، فإنه لا ضير إن كانت تغطيـــتها الإخبارية تثير العواطف، ولا مانع إن خرج التعبير عن تلك العواطف عن الـــسيطرة. فضبط النفس، في سياق موجة الحرية الصحفية – السياسية التي يمثلها أسلوب الجزيرة التحرري، يعتبرأمرا ثانويا.

وكمـــا لاحـــظ جيل كيبيل، فإن الجزيرة في الانتفاضة التي انطلقت في العام 2000 "نقلـــت الأخـــبار اليومية لحرب كانت 'العمليات الاستشهادية' فيها بمثابة أعمـــال بطولـــية. فالأبطال الذين يسقطون تنقل جنازاتهم على قنوات التلفزيون الفـــضائية العـــربية، والمـــشاهدون يقـــيمون الحداد على ضحايا هجمات الجيش الإسرائيلي. وفي أحيان كثيرة كانت مشاعر الغضب العربية والإسلامية تفيض دون تحفـــظ في شـــكل مشاعر كراهية ضد اليهود. فالمسلمون يرون أنفسهم في صورة

الهـــدف الجماعـــي لحملة من الإذلال تقودها إسرائيل بمشاركة الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين."[25]

تؤدي تأثيرات الجزيرة التحريضية في بعض الأحيان إلى إزعاج الحكومات في منطقة الشرق الأوسط وخارجها. ولكن أسلوبها ورد الفعل الذي تثيره في الجمهور يعكس لنا بوضوح الطبيعة الشعبية للسياسة في المنطقة. يلاحظ مارك لينش أنه أثناء ســـقوط نظـــام صدام حسين في العام 2003، كانت برامج الجزيرة الحوارية "تبث علـــى الهواء مباشرة دون الخضوع لمقص الرقابة، موفرة بذلك منبرا فريدا للجدل الـــسياسي العربـــي العام."[26] وكانت تلك البرامج تسمح للمشاهدين في الشرق الأوسط وفي مناطق أخرى بالمشاركة، وإن بطريقة غير مباشرة، في الأحداث المثيرة لـــتلك اللحظة. ولا شك أن ذلك قد ساهم في بلورة بعض الأفكار حول ما يمكن أن يؤول إليه الأمر عند سقوط أنظمة أخرى.

لقـــد لعـــبت المحطة التي تتخذ من قطر مقرا لها دورا تاريخيا في تغيير المشهد الإعلامـــي، لـــيس في الـــشرق الأوسط فحسب، وإنما على الصعيد العالمي أيضا. وبـــذلك أثبـــتت أنه يمكن النجاح في تحدي هيمنة المؤسسة الإعلامية الغربية. وإلى جانـــب النجاح الذي حققته الجزيرة على هذا المستوى، فهي تقدم نموذجا داخل العـــالم العربـــــي وخارجه، باعتبارها مثالا للمؤسسات الإعلامية ذات الحضور الإقليمي والعالمي التي سنتتشر في العشرية القادمة بالتأكيد.

يمكـــن الوقوف على تأثير الجزيرة، ومنافستها العربية، وبقية وسائل الإعلام العـــربية، أثـــناء حرب إسرائيل – حزب الله سنة 2006. وكما أشارت الواشنطن بوســـت، فقـــد كـــان العالم العربـــي يشاهد كل ليلة "صراعا دمويا أكثر إيلاما وتدميرا مما كان يراه بقية العالم." وقد حفزت تلك التغطية عددا أكبر من المتصلين ببرامج الجزيرة الحوارية. وفي تعليقه على أولئك المتصلين، قال أحد المنتجين "إن ما يـــرغبون في فعلـــه غالـــبا هو نقد الحكام العرب" لعدم تأييدهم لحزب الله بالقوة الكافية.[27]

يلاحـــظ أنه كلما ارتقت نوعية المنتج الإخباري للقنوات العربية، كلما تطور استخدامها للتكنولوجيا. ففي سنة 2006 أصبح لدى أغلب القنوات التي تبث على القمـــرين الاصطناعيين عربسات ونايلسات مواقع على شبكة الانترنت أو بوابات

الكترونية مرتبطة بتلك القنوات. ومع اتساع سوق الإعلام العربـــي، يتعزز مزوّدو الأخبار المحليين بأصوات جديدة. ففي مارس 2006 أطلقت وكالة الأنباء الإسبانية التي تملكها الدولة (EFE) خدمة إخبارية باللغة العربية، بتمويل من وزارة الخارجية الإســـبانية. ويستهدف مشروع (EFE) الجديد، الذي ينطلق من القاهرة، جمهور الـــبلدان القريبة جغرافيا من إسبانيا مثل المغرب وتونس وموريتانيا. وفي تعليق على هـــذا المشروع، قال خافيير مارتن (Javier Martin)، مدير البرنامج العربي: "نريد أن نكـــون جـــزءًا مـــن الصورة الكبيرة، وسنحاول أن نساهم في بناء جسر بين الحـــضارات." وفي الدنمارك، وفي أعقاب الجدل الذي أثارته الرسوم الكرتونية في 2006، وُضـــعت بعض الخطط لبث نشرات تلفزيونية وإذاعية باللغة العربية بهدف ترســـيخ الديمقـــراطية. وتسعى دويتشه فيله (Deutsche Welle) إلى جانب قناة إخـــبارية فرنسية جديدة إلى الوصول إلى الجمهور الناطق بالعربية، تماما مثلما تفعل بـــي بـــي سي التي بدأت في توسيع مجال حضورها في المنطقة.[28]

أغلبـــية المؤســـسات الإخـــبارية التي دخلت السوق العربية تزاوج بين بثها التلفـــزيوني وحـــضورها الالكتـــروني لتحقـــيق هدفين اثنين: أولا، توسيع نطاق الاعتـــراف بالعلامة التجارية لمنتجاتها التلفزيونية (وهو ما سيضمن، على الأقل في المستقبل القريب، دخلا ماليا أكثر ممّا يمكن أن تدرّه مواقع الانترنت). ثانيا، تثقيف جمهـــور الانتـــرنت الـــشاب والمتعلم والذي يتوسع بسرعة مع تزايد الوصول إلى الانتـــرنت في المـــنطقة. في الوقت نفسه يرتفع مستوى المنافسة على صعيد الويب بـــوتيرة أسرع مما عليه الحال على موجات الأثير، إذ حتى المهاجر الذي يعاني من أوضـــاع مالية صعبة بإمكانه إيجاد ما يكفي من المال لإطلاق موقع على الانترنت ينـــشر الأخـــبار والإشاعات، أو خطابات التهجم. فشبكة الانترنت تربط الوطن العربـــي بمراكز الشتات العربـــي مثل باريس وديترويت.

تتحدى تلك المواقع مؤسسات البث التقليدية ومزودي خدمة الانترنت، وتثير الإزعاج أو توفر منابر مفيدة للتعبير عن مشاعر الإحباط السياسي – وربما قليلا من هـــذا وذاك. فإطلاق موقع "يا محمد" على يد مجموعة من طلبة الجامعات في أنحاء مختـــلفة من العالم ردا على رسوم الكرتون الدنماركية، تم تصميمه، كما جاء على لـــسان أحـــد مديـــريه، لـــيكون جزءًا من "الجهاد الالكتروني ضد جبهة الكفر"

و"احتجاجا على إهانات الإعلام الغربـــي." أما موقع "الحكواتي" الأقل إثارة، فقد أطلقـــه أمريكي من أصل عربـــي يعيش في نيوجيرسي، لتوفير مكتبة الكترونية عن الـــثقافة العـــربية بغـــرض إتاحة الفرصة للجميع ليتعلموا ويعرفوا أكثر عن العالم العربـــــي، ولإشاعة الثقافة العربية، وتيسير فهمها."[29] وكل أنواع المواقع الثقافية والسياسية العربية في تزايد مستمر، بعضها جمهوره محدود بينما يحظى البعض الآخر بجمهور واسع. ويتراوح تأثيرها في الرأي العام بين الضعيف والقوي.

ومهْمـــا كـــان الوسيط الإعلامي الذي نتحدث عنه، فإن السؤال الذي يظل مطـــروحا هـــو مدى توفر الدعم المالي لهذا العدد الكبير من المشاريع، خاصة مع تـــشرذم الجمهور العربـــي واستمرار الاقتصاد في العديد من الدول العربية في حالة نمـــو. وكما شهدنا في العراق على سبيل المثال، فإن المشاريع الإعلامية التي تنطلق عديـــدة ولكـــن الذي ينجح منها قليل جدا. ومع ذلك، فإن كثرة هذه المشاريع ســـتزيد في تـــنويع الخطـــاب في الشرق الأوسط، الذي سيؤدي بدوره إلى تغيير سياسات المنطقة، وتغيير حياتها الفكرية والسياسية الجماعية على نطاق أوسع.

إن إتاحـــة أكـــبر قدر من المعلومات للجمهور تؤدي، على الأقل نظريا، إلى توســـيع مجال المعرفة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن تأثيرات المعرفة يصعب توقعها. يقـــول مارك ألن (Mark Allen) في العالم العربـــي اليوم "هناك فيض من المعرفة، فـــتعدد وجهات النظر يقوض اليقينيات ويخلخل الطمأنينة العاطفية التي تخلقها، إلا أن هـــناك غـــيابا لتقنيات التعامل المنظم مع التناقض والاختلاف. وذلك يعني أن التعددية غير متاحة."[30]

كـــلام ألـــن يعـــني أن التعددية لن تظهر هكذا ببساطة، فهي تنشأ عبر تغيير نـــسقي. وبإمكان الإعلام الجديد، وفي طليعته القنوات الفضائية، أن يساعد على تخلـــيق عملـــية التغيير، ليس في العالم العربـــي فحسب. ورغم افتقادها للتقنيات الفائقـــة المستخدمة في الانترنت، فقد كانت القنوات الفضائية القوة المحركة للعولمة الفكـــرية. ففي حين لا تستخدم شبكة الانترنت في أنحاء كثيرة من العالم إلا بنسبة ضـــئيلة، فـــإن التلفزيون متاح للكثيرين بسهولة تامة (رغم أنه ليس متاحا في كل مكان). وحتى هذا سيتغير، فقد بدأ المقهى الذي نجد في زاويته جهاز تلفزيون يترك مكانـــه لمقهى الانترنت، كما أصبح الارتباط بالانترنت المنـــزلي رديفا للهوائيات

اللاقطة. ولكن، إلى حد الآن تظل الجزيرة، والبي بي سي، والسي أن أن، ومثيلاتها تزود العالم بنهر من المعلومات يغذي الناس في مختلف أنحاء العالم.

عندما يكون العالم مترابطا أكثر تتقلص فرص الصراع، كما يدّعي المتفائلون بالعولمة. فتعارف الحضارات وتواصلها المستمر يجعلها أقل عرضة للاشتباك. وتبقى التفاصيل المتعلقة بكيفية اشتغال هذا النظام العالمي مفتوحة للتكهنات. ومع ذلك ثمة أمر مؤكد: وهو أنّ دور الولايات المتحدة سيتغير بشكل ملحوظ.

في المستقبل المنظور، ستظل أمريكا غير قابلة للتجاوز، إن لم نقل لا غنى عنها. لن يكون بإمكان أية دولة الوقوف في وجه القوة العسكرية الأمريكية في حرب ميدانية تقليدية، رغم أن تجربة العراق أظهرت أن استخدام أشكال أخرى من القتال يمكن أن يحد من التفوق الأمريكي. كما أن الاقتصاد الأمريكي سيظل يتطور بوتيرة مناسبة للمحافظة على موقع متقدم إن لم نقل مهيمن.

من جهة أخرى، ستشهد الحياة على مستوى القمة اهتزازات في بعض الجوانب. فالحروب قد لا تخوضها جيوش يواجه أحدها الآخر، وإنما داخل المدن في أزقة ملتوية ومزدحمة. ولن تكون الترسانات العسكرية متكونة من آلاف الصواريخ، بل من بضع حقائب محملة بالنفايات النووية أو بجراثيم الجمرة الخبيثة. وربما يصبح الفضاء الالكتروني مسرحا للهجمات بدلا من الشواطئ. وستصبح قائمة اللاعبين الاقتصاديين الرئيسين أطول – اليوم، الصين والهند، غدا البرازيل وكازاخستان. كما أن نقطة تركيز التوترات العالمية ستتغير.

وكما سيتضح من خلال ما تطرحه المحاور التالية، فإن تأثير الجزيرة بدأ يظهر في مناطق بعيدة عن الشرق الأوسط. وعمليا، فإن كل مظهر من مظاهر النظام العالمي الجديد سيتم تشكيله بمساعدة الانتشار غير المسبوق للمعلومات وتكنولوجيات الاتصال. فهي بصدد ربط العالم ببعضه البعض، وستتولد عنها تأثيرات تستحق اهتماما خاصا.

- 2 -

قنوات.. والمزيد من القنوات

إنها في كل مكان. إنها ليست شجيرات تظهر مؤقتا متناثرة على سهل قاحل، بل هي غابة بأكملها. بينها الصغيرة وربما الضعيفة، ولكنها بصدد النضج والتوسع بوتيرة وحيوية ستضمن البقاء، على الأقل، لأصلحها.

إنهـــا محطات بث تموّلها عائلات مالكة ومدونات تنطلق من شقق صغيرة. إنها مواقع انترنت متطورة جدا وشبكات مراسلة عفوية. تعرض أفلاما وثائقية صنعت بعناية، ولقطات فيديو أخذت على عجل بالهاتف الجوال. بعض أصحابها تنحني لهم الجـــباه علـــى الـــصعيد العالمي بينما يعيش البعض الآخر في خوف من المداهمات البوليـــسية. بعضهم أصبح له جمهور عالمي في حين لا يصل البعض الآخر إلى أكثر من حفنة من رفقائهم وأصدقائهم.

هذا التنوع هو ما يجعل من هذه الوسائل الإعلامية مذهلة ومؤثرة. ولا يوجد تعـــريف واحـــد يشمل كل تمظهرات وسائل الاتصال وتكنولوجيات المعلومات الجديـــدة، ولكـــن بعض النماذج قد ظهرت بالفعل. وتعد الجزيرة أحد أبرز تلك النماذج.

الجزيرة ورفيقاتها

جاء في تعليق للصحفي المصري فهمي هويدي: "قبل ظهور الجزيرة، لم أكن أتابـــع في التلفزيونات العربية سوى فقرات الترويح ومباريات كرة القدم، وبالتالي فـــإنني لم أكن أتوقف عندها إلا في لحظات الاسترخاء والكسل أو الملل. أما متابعة الأحـــداث المهمـــة، بـــل وحتى الأفكار المهمة فكنت أسعى لتحقيقها من خلال ملاحقـــة نشرات الأخبار والتقارير والبرامج الحوارية التي تبثها المحطات التلفزيونية

الغـــربية، وفي المقدمـــة منها البريطانية والأمريكية. وما خطر ببالي يوما أنني سأجد غذاء من هذا القبيل في أية محطة تلفزيونية عربية.[1]

ذلـــك "الغذاء" الفكري هو عنصر هام من عناصر جاذبية الجزيرة. فقد أثبتت القـــناة لجمهور شكّاك أن الإعلام العربـــي يمكن أن يكون مفيدا وأنه لم تعد هناك حاجـــة للاعـــتماد علـــى وسائل الإعلام الغربية للحصول على معلومات بشأن الأحـــداث الهامة. وقد أثبتت الجزيرة نفسها كوجهة مفضلة للأخبار ومصدر أول للمعلومات في الشرق الأوسط عبر مزيج من التجديد البرامجي والمصداقية الصحفية والترويج الدائم. وما عليك إلا أن تنتقل بين المقاهي من المغرب إلى الكويت لترى أن المحطـــة الـــتي يشاهدها الناس في زاوية المقهى هي الجزيرة. وقد خلصت دراسة أجـــريت حول المشاهدين في القاهرة بين عامي 2004 و2005 أن 46% من الأسر شاهدوا التلفزيون، وأن 88% من هؤلاء شاهدوا الجزيرة."[2]

وبالتأكـــيد لا يمكـــن الادعـــاء بأن الإعجاب بالقناة شامل حتى بين العرب أنفسهم. فهناك من لا يحبذ الطبيعة المشاكسة للبرامج الحوارية، وهناك من يرى أن التغطـــية الإخـــبارية تطغـــى عليها الصبغة الدينية، بينما لا يهتم آخرون بصحافة "الإزعـــاج" التي اشتهرت بها الجزيرة. وهذه الميول السياسية المزعومة تدفع ببعض مـــشاهدي القناة إلى توخّي الحذر. يقول المدير العام للجزيرة، وضّاح خنفر: "لقد اتهمـــنا منذ البداية بأننا صنيعة الوكالات الدولية مثل الموساد والسي آي إيه، وأن الأمريكيّين يقفون وراءنا، وأن هذا النظام أو ذاك يقف وراءنا، وأن أسامة بن لادن يقف وراءنا. كلّ هذا الهراء يعني أن ما نفعله صحيح... نحن لا نرفع الشعارات ولا نمارس الدعاية لأحد، أبداً. نحن مجرد أناس عاديين مغرمين بالصحافة."[3]

ولكـــن ثمـــة أمور أخرى تتعلق بالجزيرة غير الصحافة. قد لا تكون الجزيرة حـــصان مطاردة لفائدة الولايات المتحدة، أو إسرائيل، أو الإسلام، أو حتى العائلة الحاكمـــة في قطر، ولكنها بالتأكيد آخر الحلقات في سلسلة المشاريع الإعلامية التي تـــسعى لاســـتخدام وســـائل الإعلام الجماهيرية للمساعدة في خلق هوية عربية وحدوية. كانت إذاعة القاهرة قد بدأت عام 1953 في بث برنامج "صوت العرب" الـــذي سرعان ما تحول ليصبح محطة إذاعية قائمة بذاتها تبث على مدى ثماني عشرة ســـاعة يوميا. كانت رسالتها تتمثل في نشر القومية العربية التي يدعو لها جمال عبد

الناصر – وهي مزيج ثوري من الاشتراكية ومناهضة الاستعمار، كانت تستهدف الحكـــومات العـــربية المحافظـــة.[4] كان القائد المصري من بين الأوائل في الشرق الأوسط الذين فهموا كيف يمكن للبث الإذاعي أن يؤثر في السياسة الإقليمية. يرى مارك لينش أنّ إذاعة صوت العرب "كانت أداة في دولة قوية استخدمتها لأهداف اســـتراتيجية بحـــتة ووظّفتها بدرجة أولى لتعبئة الجماهير والضغط من القاعدة على الأنظمـــة المنافسة. لقد استبدل البث الإذاعي بإمكانات العمل السياسي العربـــي إيـــصال الخطـــاب السياسي القومي (حتى لا نقول الخطاب العقلاني) مباشرة إلى الجماهير التي كانت تتعرض لعملية تعبئة متزايدة. وقد سمح ذلك للحركات القومية أن تتحدى بقوة شرعية الدول العربية حديثة العهد.[5]

بهـــذا المعنى، تعتبر الجزيرة سليلة صوت العرب لما تقوم به من دور في تحقيق التماســـك لمفهوم "العروبة". يلاحظ فيصل القاسم، مقدم برنامج الجزيرة الحواري "الاتجاه المعاكس":

"إذا كـــان هـــناك مـــن أمر، فإن البرامج الحوارية قد وحدت بين الجماهير العربية ومنحـــتها هـــوية قومية. وبعبارة أخرى، لقد لعبت دورا قوميا إلى حد ما من خلال تقـــريب الشقة وأحيانا رأب الصدع بين الأشقاء. في الواقع يمكن القول إن البرامج الحوارية الجماهيرية على قناة الجزيرة والقنوات أخرى نجحت حيث أخفق جمال عبد الناصـــر. فـــبرامج الحوار والنقاش الحية التي تبثها الفضائيات يتابعها ملايين العرب بشغف وهي تساهم بدرجة كبيرة في تشكيل رأي عام عربـــي موحد إزاء العديد من القـــضايا. بإمكان المشاهدين العرب الآن أن يشاركوا بعضهم البعض في مشاكلهم وقضاياهم ومشاغلهم."[6]

لقد تطورت القومية العربية في صيغتها الأولى التي ارتبطت بجمال عبد الناصر، وتغـــيرت كما تغير الوضع السياسي والمشهد الإعلامي في الشرق الأوسط. فعلى مستوى معين، كتب توماس فريدمان عام 2002، يمكن ملاحظة تلك التغييرات في "الانفجـــار الحاصل في القنوات الفضائية العربية ومواقع الانترنت التي تنقل صورا مـــريعة من الانتفاضة وتبثها مباشرة إلى الأجيال العربية الإسلامية الشابة. فإذا تربى 100 ملـــيون عربـــي مسلم على تلك المشاهد فإن إسرائيل لن يكتب لها البقاء." هـــناك وجـــه آخر لهذا الموضوع، يضيف فريدمان، وهو أن القادة العرب، وطيلة عقود "استخدموا القضية الفلسطينية لدعم شرعيتهم الخاصة أو لصرف الأنظار عن

خيـــباتهم. وإذا كـــان بإمكانهم، في الأيام الخوالي، أن يكيفوا الطريقة التي ترى بها شـــعوبهم ذلك الصراع عبر وسائل إعلامهم الموجهة، فقد انتهى ذلك الوضع. نحن أمـــام الانتفاضة الالكترونية في زمن العولمة. فبفضل الفضائيات العربية المستقلة التي تـــنقل الصور من فلسطين إلى الشباب العربـــي على مدار الساعة، وبفضل شبكة الانتـــرنت الـــتي تخـــوّل لهؤلاء الشباب أن ينقلوا لبعضهم البعض كيف يشعرون بالـــتحديد إزاء تلك الصور، فقد بدأت الأنظمة العربية تفقد سيطرتها على الرأي العام."[7]

قـــبل نصف قرن كان عبد الناصر قد استخدم إذاعته "صوت العرب" لخلخلة الأنظمة المنافسة، ولكن مع حلول الانتفاضة الثانية، أصبح التحكم السياسي المباشر في الرســـائل الإعلامية أضعف بكثير. ومع ذلك فإن الصور لها القدرة نفسها على زعـــزعة الاســـتقرار الـــتي كان عبد الناصر يسعى لتحقيقها، إذ هي تجعل العرب يشعرون بالإحباط مما يتصورونه عجزا لحكوماتهم عن نصرة الفلسطينيين.

في ســـنة 2002 كانت الجزيرة لاعبا أساسيا في هذا المسار، ولكن الهيمنة التي كانت تتمتع بها في سنواتها الأولى تقلصت، والسبب الرئيس هو ظهور منافسين لها مـــثل قـــناة العربية وتلفزيون أبوظبـــي وشبكة التلفزيون اللبناني (أل بـــي سي) وآخـــرين. وقـــد يـــسرت القوانين، بدءًا بتشريع 1994 اللبناني الذي وضع حدا لاحـــتكار الدولـــة للـــبث، الملكية الخاصة لمحطات التلفزيون.[8] كما أن تكاليف تجهيزات البث الفضائي انخفضت إلى حد كبير، وهو ما سمح بدخول لاعبين جدد إلى الساحة.

حصل هذا النمو في مناخ اقتصادي لا يمكنه أن يدعم قيام نموذج إعلامي على الطـــريقة الغربية. ففي سنة 2005 بلغ إجمالي مداخيل الإعلانات في العالم العربـــي 1.5 ملـــيون دولار للتلفزيون والإذاعة والصحافة المطبوعة وبقية الأنماط الإعلامية، في حـــين وصلت التكاليف التشغيلية السنوية لهذه المؤسسات نحو 16 مليون دولار.[9] هذا الاختلال الواضح في الميزان، يضاف إليه غياب الاستثمار الأجنبـــي المباشر في المـــنطقة، يعني أن تمويل البنية التحتية للإعلام كان ينبغي أن يأتي أساسا من النخب مثل العائلات المالكة وبقية المستثمرين الذين ربما يهمهم أن يكون لهم منبر سياسي أكثر من اهتمامهم بنـــزاهة المعلومات التي يقدمونها للجمهور.[10]

في بعض أنحاء المنطقة، تأتي المنافسة الأقوى للجزيرة من قناة العربية. وهذه القناة الإخبارية التي تبث على مدار الساعة هي جزء من مجموعة (أم بي سي) التي تملك أغلبها العربية السعودية والتي تتخذ من دبي مقرا لها. انطلق بث أم بي سي سنة 1991 وتصل برامجها الترفيهية والإخبارية إلى أكثر من 150 مليون مشاهد ناطق باللغة العربية في مختلف أنحاء العالم. وتدعي أم بي سي 1 (قناة الترفيه العائلية) أن نسبة مشاهدتها تفوق أية قناة أخرى في الشرق الأوسط.

انطلقت قناة العربية سنة 2003 استجابةً، كما تقول أم بي سي، لـ "ما نتصور أنه حاجة الجمهور العربي إلى مصدر إخباري متوازن ومسؤول ووثيق الصلة بهم"[11]. يمكن أن يُقرأ ذلك على أن المقصود هو رغبة النظام السياسي الرسمي في المنطقة، لا سيما السعودية، في إنشاء قناة تنتهج سياسة وبرمجة محافظة على خلاف الجزيرة. وقد عبر الشيخ الوليد الإبراهيم، صهر الملك السعودي الراحل فهد بن عبد العزيز، وصاحب مجموعة أم بي سي عن أمله في أن تتبوأ العربية موقعا أشبه بسي أن أن المعتدلة مقارنة بالجزيرة التي تتبنى مقاربة فوكس نيوز الأكثر تطرفا. هذا المعنى تعكسه لوحات قناة العربية الإشهارية، "معنا، أنتم أقرب إلى الحقيقة."[12]

قد تكون العربية احتلت الموقع الذي ينشده صاحبها، ولكنها ما زالت تكافح لتضاهي شعبية الجزيرة. وقد خلصت دراسة مسْحية أجريت في ربيع 2004 إلى أن العربية تأتي في المرتبة الثانية بعد الجزيرة بفارق كبير من حيث نسب المشاهدة عبر منطقة الشرق الأوسط، رغم أن نسبة معتبرة تقدَّر بـ 39% من مشاهدي الأخبار الفضائية أكدت أنها تشاهد العربية في وقت ما كلّ يوم.[13] وعلى غرار الجزيرة، تمزج العربية نشراتها الإخبارية بطيف من البرامج الحوارية مثل "من العراق" (وهو برنامج تقول القناة إن له جمهورا عراقيا واسعا، يؤكد ذلك "الكمية الكبيرة من الأقراص المدمجة وأشرطة الفيديو التي تتم قرصنتها ثم تباع في اليوم الذي يعقب" يوم بثه)، "عبر المحيط"، "من واشنطن"، و"الطبعة الأخيرة" و"السلطة الرابعة" التي تعالج على التوالي قضايا الإعلام العربي والغربي، و"استطلاع على الهواء" الذي يستطلع آراء المشاهدين حول قضية محددة ويستقبل مكالمات هاتفية مباشرة وإجابات عبر البريد الالكتروني.

يـــدرك الصحفيون الذين يديرون العربية القوة التي تملكها القنوات الفضائية الإخـــبارية. يـــرى عبد الرحمن الراشد، المدير العام لقناة العربية، أن قناتي الجزيرة والعـــربية "أخطـــر من الأسلحة النووية، وأنهما يشعان على نطاق واسع." ويمكن للأخبار التي تبثانها، على حد قوله، أن تدفع بالمشاهدين "للدخول في حرب، أو أن تجعلـــهم يؤمنون بالسلام وتغير حياتهم." يضيف الراشد أن "المنطقة مليئة بمعلومات غير دقيقة وحقائق جزئية. أعتقد أن الناس سيصدرون أحكاما جيدة لو توفرت لهم المعلومات الصحيحة والكاملة. إن ما ينقصنا الآن هو الحقيقة والمعلومات. وبعد أن يتحقق ذلك سيكون مجتمعنا سويّا. المجتمع الآن ليس سليم العقل بسبب الأسلوب الذي تنقل به المعلومات للأفراد."[14]

الراشـــد، هـــو سعودي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة، قبل التحاقه بقناة العربية، كان رئيسا لتحرير "الشرق الأوسط"، الصحيفة العربية المعروفة التي تطبع في لـــندن. في العـــام 2004، كتب في عموده مقالا اعتمده كثيرون، بعد ما فرض المتمردون الشيشان سيطرتهم على مدرسة في أوسيتيا الشمالية مات خلالها أكثر من ثلاثمائـــة شـــخص أغلـــبهم من الأطفال. كتب الراشد يقول "إنه من المؤكد أن المـــسلمين ليسوا جميعا إرهابيين، ولكن من المؤكد والمؤلم أيضا أن كل الإرهابيين تقـــريبا مسلمون." وبالإحالة على التفجيرات الانتحارية أضاف قائلا "أي سجل بـــائس وأي إنجـــاز بغـــيض هذا. هل يحيلنا هذا على أي شيء داخل أنفسنا وفي مجتمعاتـــنا وثقافتنا؟" وانتقد الراشد في عموده رجل الدين المسلم ذا التأثير الواسع الـــشيخ يوسف القرضاوي بسبب دعمه لقتل الأمريكيين المدنيين الذين يعملون في العراق، علما وأن القرضاوي يظهر بانتظام على شاشة الجزيرة.[15]

أمـــا نبيل الخطيب، المحرر التنفيذي لقناة العربية فهو فلسطيني كان قد غطى الـــصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وعلى غرار الراشد، لا يبدو الخطيب متسامحا إزاء أولئك الذين يشجعون العنف، لا سيما إذا كانوا ينتمون إلى الوسط الإعلامي. قال في 2004 "إن الإثـــارة تحفز الناس على الكراهية. لقد شممت رائحة الكراهية، ولا أستطيع أن أفهم كيف يشعر شخص في غرفة أخبار مكيفة أن من حقه أن يتحكم في مشاعر الناس أو أن يستفزهم أو يصدر أحكاما عامة بشأن مجموعة ما، إذا كان يعرف النتائج "[16]

تظهر هذه التعليقات التي أبداها الراشد والخطيب كيف أن العربية تسعى إلى خلـــق تيار جديد داخل الإعلام العربـــي، لا يعكس تملقا لخط حكومي ولا يتسم بالإزعـــاج مـــثل الجزيرة. وقد لاحظ الخطيب أيضا أنه يرغب في تقريب الأجندة الإخبارية من هموم الناس اليومية.

يقـــول الخطـــيب، "كـــل الذي سمعه العرب على مدى خمسين عاما يتعلق بالإســـرائيليين والفلسطينيين والأمريكيين والقمم العربية وغيرها، ولم يسمعوا شيئا بخـــصوص الإجابات الصحيحة عن الأسئلة الحقيقية: لماذا هم فقراء، وساخطون، وغـــير راضين عن مستوى الخدمة الصحية والتعليمية لأبنائهم. تلك هي هموم كل إنـــسان وكـــل عربـــي. ولكن، إذا سألت أحدهم عما يشغله أكثر فسيقول لك القدس أوالعراق، لأنك لا تفتأ تردد ذلك على مسامعه."[17]

يشترك المسؤولون في المؤسسات الإخبارية عبر العالم في تقرير ما الذي يحتاج إلـــيه الجمهور ويرغب فيه. ولكن ليس هناك مكان آخر في العالم في الوقت الراهن تتمـــتع فـــيه حفنة من القنوات التلفزيونية بتأثير كبير في محتوى الخطاب السياسي واتجاهه. من السهل قياس الجزيرة – العربية على نموذج سي أن أن – فوكس، غير أن ســـي أن أن وفـــوكس استطاعتا بسهولة الاندماج في مجال الإعلام الإخباري المستقر في أمريكا. أما القنوات الإخبارية العربية فعلى العكس من ذلك، نشأت في فـــراغ، وفي تلك المنطقة من العالم، كانت رائدة في تأسيس صحافة حرة لجمهور عريض. لقد غيرت نمط الممارسة الصحفية، والأهم من ذلك غيرت توقعات الناس بخصوص إتاحة المعلومات.

ورغـــم أن كـــثيرا من القنوات الفضائية العربية تبث برامج ترفيهية بالدرجة الأولى، إلا أن هـــناك عـــددا كبيرا من القنوات العربية – أرضية وفضائية – تبث الأخـــبار أيـــضا. وكل قناة بإمكانها أن تحظى بجمهور ثابت، إن لم نقل عريضا، بـــتوفيرها لمحـــتوى محلي. فالناس دائما يهتمون بما تقوم به حكوماتهم وكيف تتم معالجة القضايا التي تمسهم عن قرب، وهي المواضيع التي لا يمكن للقنوات الإقليمية والعالمـــية أن تغطيها بشمول (الكثير من قنوات الأخبار المحلية في الولايات المتحدة تكـــسب ولاء الجمهور أكثر مما تفعل الشبكات الوطنية). ولا يزال قياس الجمهور الخـــاص بـــتلك القنوات ضعيفا جدا مقارنة بنظام التصنيف المهيمن على صناعة

التلفـــزيون الأمريكية، غير أن الدراسات المسْحية في تزايد سواء من حيث العدد أم الجودة. وقد وجدت دراسة أجريت سنة 2005 في كل من الأردن ولبنان والمغرب والعربية السعودية والإمارات، أن 45% من المستجوبين يشاهدون الجزيرة، و12% يـــشاهدون أم بـــي سي وأل بـــي سي، و9% يشاهدون العربية، و6% يشاهدون أبو ظبـــي، و4% يشاهدون قناة المنار التابعة لحزب الله، بينما لا يشاهد قناة الحرة الـــتابعة للحكـــومة الأمـــريكية إلاّ 1%. وبالنسبة إلى المشاهدين الذين قالوا إنهم يفـــضلون متابعة القنوات الوطنية بدلا من الإقليمية، فإن الجزيرة والعربية غالبا ما تأتيان خيارا ثانيا.[18]

لبنانيون وفلسطينيون ولاعبون آخرون

يجـــسد التاريخ القريب للتلفزيون اللبناني كيف تشترك التكنولوجيا والسياسة في تحديـــد ما يتلقاه الجمهور. انطلق بث قناة أل بـــي سي عام 1985 في الحرب الأهلـــية. وقد تعرض مقر القناة إلى قصف متكرر، وفي وقت من الأوقات في عام 1991 أجـــبرت المؤسسة على إخلاء كافة موظفيها وأجهزتها في يوم واحد قبل أن تـــستولي فرق حكومية على المبنى، فما كان منهم إلا أن حمّلوا الأجهزة على متن خمـــسين شـــاحنة وتوصّـــلوا إلى تركيب استوديو مؤقت وتمكنوا من بث نشرتهم المسائية على الهواء. بعد توقف القتال (مؤقتا) أطلقت أل بـــي سي قناتها الفضائية الحـــرة سنة 1996، لتقدم برامج ترفيهية باللغة العربية موجهة بالأساس إلى شريحة الـــشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و24 عاما. ثم أتبعت ذلك بثلاث قنوات إضـــافية لتـــصل عبْرها إلى الجمهور العربـــي في مختلف أنحاء العالم: أل بـــي سي أوروبـــا، أل بـــي سي أمريكا، وأل بـــي سي أستراليا. وفي سنة 2006، ومواكبة لتـــنوع اهـــتمامات الجمهور العربـــي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، أطلقت الشبكة قناة أل بـــي سي المغاربية واعدة بتقديم محتوى متكيف "بنكهة لبنانية".[19]

يـــبين تطـــور أل بـــي سي الطريق التي تسلكها صناعة التلفزيون في الشرق الأوسط للوصول إلى مرحلة النضج. فالتجزئة المتقدمة للسوق تقود عملية التوسع، بينما على الصعيد الفني تستخدم قنوات مثل الجزيرة والعربية غرف أخبار من أعلى طـــراز ولا يـــوجد ما يتجاوزها في أي مكان من العالم. ورغم هذا التقدم، تظل

السياسة لا مهربَ منها، فهي لا محالة تؤثر في المنتج الإعلامي وتعوق الدور البارز لوسائل الإعلام.

يوفر النموذج اللبناني أمثلة على هذه الحركية. ففي أواخر سنة 2006 شهد لبنان موجة أخرى من الاضطرابات حين صعّد مناضلو حزب الله الشيعة تحديهم للحكومة الوطنية عبر تنظيم مظاهرات ضخمة في بيروت للمطالبة باستقالة رئيس الوزراء فؤاد السنيورة. مثله مثل المجموعات السياسية الأخرى، لحزب الله محطته التلفزية الخاصة، المنار، التي غطت التظاهرات بصورة شاملة، بل إنها استبدلت بعض برامجها العادية برامج حوارية بثتها مباشرة من موقع الاحتجاجات. وفي جبهة الدفاع عن الحكومة، كان تلفزيون المستقبل، التابع لعائلة رفيق الحريري السنية الذي اغتيل في فبراير 2005. وكان موت الحريري قد فجر الغضب ضد سوريا المتهمة بدعم القتلة وأحد حلفاء حزب الله. حاولت تغطية تلفزيون المستقبل لتظاهرات بيروت تصويرها على أنها محاولة سورية للتحكم في لبنان. بينما صور تلفزيون المنار سوريا على أنها حليف للبنان ضد المشروع الأمريكي – الإسرائيلي الذي يسعى للهيمنة على البلاد.[20]

يعتبر تلفزيون المنار، الذي سنناقشه في المحور السابع، مثالا بارزا للإعلام السياسي غير التابع للدولة. وهي ظاهرة ستتوسع بالتأكيد مع سعي المجموعات السياسية لتحسين مواقعها بغرض اكتساب شرعية واقعية يمكن تحقيقها عبر امتلاك مؤسسات إعلامية خاصة. إلى جانب تأثيرها داخل لبنان، يرى البعض أن للمنار تأثيرا هاما في أوساط الأقليات المسلمة عبر العالم. وفي أواخر عام 2004، أمرت الجهات الرسمية في فرنسا شركة الكيبل يوتلسات (Eutelsat) بإيقاف بث المنار بدعوى أن محتوى القناة معاد صراحة للسامية، وأنه وراء اشتداد ظاهرة التشدد والعزلة في أوساط المسلمين الفرنسيين.[21]

بصورة إجمالية، يتضح من خلال ما يقدمه التلفزيون في لبنان، كيف يمكن لبلد صغير (حوالي 5 ملايين نسمة) أن يحقق حضورا إقليميا وبدرجة أقل دوليا، بفضْل الإعلام الجماهيري. من جهة أخرى، يكشف لنا حجم التأثير الذي تمارسه المنار والمستقبل وغيرهما، قدرة التلفزيون على تحريك العواطف السياسية على الصعيد المحلي.

داخـــل هذا العالم المصغر يحصل التداخل بين الإعلام والسياسة ويتواصل بشكل متـــزايد في مختـــلف أنحاء المنطقة. وتختلف الأجندات، من الجزيرة التي تسعى لبناء جمهور عالمي، إلى المنار باستفزازاتها الموجهة. ويستمر ظهور المزيد من القنوات.

وتعـــبيرا عـــن عدم رضاهم بالمعلومات التي يتلقونها من المؤسسات الإعلامية الإســـرائيلية، أطلق الفلسطينيون في عام 1994 محطة صوت فلسطين الإذاعية، وفي العام 1996 بدأ البث التلفزيوني عبر شبكة البث الفلسطينية.

وعبْر حوالي ثمانين محطة تلفزيونية وإذاعية توفر لسكان الضفة الغربية وغزة محتوى متـــنوعا، وبفـــضل القدرة المتزايدة على مشاهدة القنوات الفضائية مثل الجزيرة، أصبح بإمكـــان الفلسطينيين الوصول إلى مصادر معلومات متنوعة من مختلف أنحاء العالم. وفي قلـــب الإعلام الفلسطيني تمارس السياسة المتعلقة بالصراع مع إسرائيل. وقد جاء على لـــسان نبـــيل شـــعث، الذي كان وزيرا للخارجية في حكومة الرئيس ياسر عرفات، "خـــلال الانتفاضة، تحول التلفزيون والإذاعة إلى أدوات لتوليد المقاومة وتعزيز الصمود في مـــواجهة تلك الأوقات العصيبة." فقد تركت شبكة البث الفلسطينية برمجتها العادية وأصبحت تنقل أحداث الانتفاضة لحظة بلحظة. وعندما بّثت صور الطفل محمد الدرة ذي الاثـــني عـــشر عامـــا وهـــو يموت بين أحضان والده بعد أن حاصرتهما طلقات الرصـــاص خـــلال المعـــارك في أحد الشوارع، بعث التلفزيون الفلسطيني برسائل إلى الـــشباب فحواها أن "ارموا لعبكم وامتشقوا الحجر." وفي أحد المشاهد، قال ممثل كان يلعـــب دور الطفـــل المقتول في "طفل الجنة" للمشاهدين الصغار "أرجو منكم أن لا تلوّحوا لي قائلين وداعا، بل قولوا "اتبعني"." ولم يعد الإعلام الفلسطيني إلى بث برامج غير مرتبطة بالصراع إلا في منتصف عام 2004.[22]

في عام 2003 أطلقت حماس إذاعة "صوت الأقصى" التي سرعان ما أصبحت إحـــدى أكثر الإذاعات شعبية في قطاع غزة. وفي بداية 2006، عشية الانتخابات الفلـــسطينية الـــتي فازت بها، وسعت حماس نشاطها الإعلامي بإطلاق "تلفزيون الأقـــصى". وعلـــى غـــرار المنار التابعة لحزب الله، استخدمت حماس قناتها لدعم شـــرعيتها باعتبارها حزبا سياسيا وللتبشير بأفكارها بطرق يعتبرها البعض من قبيل الإغـــواء. ومن برامجها للمشاهدين الصغار، يقدم برنامج "العم حازم" الذي ينشطه حـــازم شـــعراوي، شخـــصياته للأطفال في شكل حيوانات. ورغم أن جزءًا من

البرنامج يبدو شبيها ببرامج الأطفال العادية، إلا أن أغلب محتواه سياسي بامتياز. فهذه حماس في النهاية، يقول العم حازم، "سأريهم حقوقنا من خلال التاريخ: هذه نابلس، وهذه غزة، وهذا هو المسجد الأقصى الذي يحتله الإسرائيليون وينبغي أن يعود إلينا." ورغم وعده بأن يتجنب مشاهد العنف الواضحة، يقول شعراوي إنه يرمي إلى تعليم الأطفال طبيعة النزاع حول القدس، ومطالب الفلسطينيين للسماح لهم بالعودة إلى أرضهم التي احتلتها إسرائيل عام 1967، إلى جانب قضايا أخرى. يضيف شعراوي "لا يمكنني تحويل حياة الأطفال إلى حديقة جميلة بينما الوضع في الخارج عكس ذلك."[23]

وفي الاتجاه نفسه، من بين الشخصيات التي تقدمها سلسلة الأطفال "رواد الغد" شخصية فرفور الذي يشبه ميكي ماوس. في إحدى الحلقات، تحدّث فرفور للأطفال عن "وضع حجر الأساس لعالم بقيادة إسلامية." في العام 2007، "استشهد" فرفور على يدي جندي إسرائيلي واستبدل به نحول النحلة الذي قال للطفل الذي ينشط البرنامج إنه يريد "أن يسير على خطى فرفور" وأن "ينتقم من أعداء الله". وفي إحدى حلقات السلسلة بثت في أواخر العام 2007، قال نحول للمشاهدين "علينا أن ننهض لنثأر من المجرمين اليهود، المحتلين الصهاينة. علينا تحرير الأقصى."[24] كثيرا ما يتم إغفال هذا الجانب مما يوفره الاتساع المتزايد في الخدمة التلفزيونية – نوعية من البرامج لم تكن متاحة في السابق، تمد الآن جمهورا حساسا من الأطفال بمواد سياسية تقدم لهم في قالب ترفيهي.

المحتوى السياسي كان أيضا جزءًا من مشروع آخر أعلن عنه سنة 2006 الأمير الوليد بن طلال، أحد أبناء العائلة المالكة في السعودية والمدير التنفيذي لمجموعة الاستثمار العالمية "شركة المملكة القابضة". أطلق الوليد تلفزيون الرسالة قائلا إن محتوى القناة الفضائية سيقدم "تراثنا العربي بوسائط حديثة" وسيقف في وجه المفاهيم الخاطئة حول الإسلام في المجتمعات الأخرى. وقد صممت القناة لتقدم، عبر برامجها الترفيهية الناطقة بالعربية وذات المحتوى الأخلاقي، نموذجاً يقود الشباب المسلم بعيدا عن التطرف. يقول طارق سويدان، المدير العام للقناة، إن برامجها تقدم "الإسلام النقي المعتدل." ومن جهته قال الأمير إنه يخطط لإطلاق قناة أخرى ناطقة بالإنجليزية موجهة للجماهير الغربية.[25]

تتبنى القناة توجها إسلاميا عاما بدلا من التوجه العروبي فقط، وفي عام 2006 نشر موقعها الالكتروني رسالة مفتوحة مطولة، بالعربية والإنجليزية، موجهة للبابا بنديكت السادس عشر حول محاضرته التي ألقاها في ريجنسبورغ في ألمانيا، والتي قيل إنه قدم فيها الإسلام في صورة سلبية. كتبت الرسالة من أجل "التنويه إلى بعض الأخطاء في الطريقة التي ذكرتَ بها الإسلام" وصيغت بأسلوب معتدل يتناسب وما التزم به الأمير الوليد من روح الاعتدال والتسامح. ولكن هناك مثال آخر على محتوى الرسالة كان أقل اعتدالا. في مقابلة بثتها القناة، قال أحد رجال الدين المسلمين إن "صراع الغرب مع الإسلام والمسلمين صراع أبدي، إنه قضاء وقدر لا يمكن تجنبه إلى يوم القيامة."[26] وبالنظر إلى الاستثمارات الهائلة التي تملكها شركة المملكة القابضة في مؤسسات غربية مثل سيتي غروب، تايم وارنر، موتورولا، وغيرها فإن رسالة رجل الدين هذا قد لا تكون مقبولة من صاحب المحطة. ولكن في بعض الأحيان يصعب تحديد ما إذا كانت الأولوية للأجندة السياسية أم المالية، وحتى الإعلام الذي يريد أن يكون "معتدلا" يحتاج إلى فحص دقيق بخصوص الطريقة التي يؤثر بها في جمهوره.

الحضور الأمريكي

السياسة حاضرة بقوة، ووسائل الإعلام التي تقول إنها ستقدم أخبارا محايدة إيديولوجيا وترفيها خالصا لا يتوقع أن تكون خالية تماما من السياسة. وهذا الأمر لا يخص القنوات العربية وحدها، بل يشمل أيضا القنوات الناطقة بالعربية والتي تبث من خارج المنطقة. فقد أطلقت قناة الحرة التي تموّلها الحكومة الأمريكية، حسب الرئيس جورج دبليو بوش، لتكون جزءًا من محاولة "اقتلاع حواجز الكراهية" التي تنشرها القنوات التلفزيونية العربية وتقدم "أخبارا موثوقا بها ومعلومات لكل المنطقة."[27] وعندما بدأت بثها في فبراير 2004 بميزانية قدرها 62 مليون دولار للسنة الأولى، تلقت الحرة تقييمات متباينة. (في أواخر 2003 أقر الكونغرس الترفيع في ميزانية الحرة بـ 40 مليون دولار لإطلاق قناة أخرى موجهة للعراق فقط). وقد اعتبرها المنتقدون بمثابة "فوكس نيوز ناطقة بالعربية"، وأشاروا إلى خطها السياسي المتحيز لأمريكا.

واضـــح أن الحـــرة ظلت متأخرة عن الشبكات العربية على صعيد تغطيتها للشؤون الفلسطينية سواء من حيث الأولوية أو من حيث الوقت الذي تتيحه لتلك التغطية. وكان ذلك أحد الأسباب التي دفعت حسين أمين من الجامعة الأمريكية في القاهرة لينتقد موظفي الحرة قائلا "إن مصداقيتهم قد وضعت على المحك من الآن. فـــإذا تبـــنوْا موقف أمريكا وصاروا يلونون كل شيء بألوان سياساتها، فإن الناس سيـــضربون برسالتها عرض الحائط ولن تحقق أي نوع من أنواع النجاح."[28] من جهته، تساءل نبيل الدجاني، الأستاذ في الجامعة الأمريكية في بيروت، "هل يتوقعون مـــن العـــرب أن يـــشاهدوهم إذا لم يظهروا الفلسطينيين وهم يقتلون و لم يقدموا الإســـرائيليين باعتبارهم ظلمة؟"[29] النقد الأشد صدر عن فقيه سعودي هو الشيخ إبـــراهيم الخـــضيري، الذي اعتبر أن الحرة "تشن حربا ضد الإسلام وتقوم بأمركة العـــالم... وأن هـــدف القناة هو تسهيل الهيمنة الأمريكية على العالم في المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية."[30]

وبتقديمها مزيجا من الأخبار وبرامج الطبخ والترفيه وغيرها، تمكنت الحرة من إحداث تأثير محدود على مستوى كسب الجمهور. ففي دراسة مسْحية أُجريت في منتـــصف 2004 جـــاء تـــرتيب الحـــرة بعد الجزيرة والعربية. من بين 3300 ممن استطلعت آراؤهم في مصر والسعودية والمغرب والأردن ولبنان والإمارات، لا أحد أجاب أن الحرة تمثل خياره الأول مصدرا للأخبار، و لم يعتبرها إلا 4% خيارا ثانيا. وفي اســـتطلاع آخـــر أجـــري في المملكة العربية السعودية تبين أن 82% شاهدوا الجزيـــرة و75% شاهدوا العربية و16% شاهدوا الحرة و12% شاهدوا سي أن أن. 17% فقط من المستجوبين أكدوا أنهم يعتبرون الحرة مصدرا إخباريا موثوقا جدا أو موثـــوقا به، بينما اعتبرها 20% منهم غير موثوق بها، (أما البقية فلم يدلوا بآرائهم حـــول هـــذا الموضوع).[32] بعض الأرقام الأخرى التي وردت في استطلاعات أي ســـي نيلـــسين وذكرتها الحرة تعكس اهتماما أكبر بما تبثه القناة وتمنحها مصداقية أعلى بكثير.[33]

يلاحـــظ شـــبلي تلحمي أن جزءاً من مشكلة الحرة يتمثل في أن ما يبدو من موضـــوعيتها المنفـــصلة عن الواقع لا ينسجم مع مزاج جمهورها المتوقع. فالهدف، يقول تلحمي، "أن تكون غير عاطفي في مواجهة جمهور عاطفي."[34]

وبامتـــناعها عـــن بث صور مؤثّرة أو استخدام لغة يمكن اعتبارها نقدية تجاه السياسة الأمريكية، فإن الحرة تكون في بعض الأحيان قد كبّلت نفسها، بينما هي تـــسعى لـــتقديم صحافة موضوعية وفي الوقت ذاته تحاول خدمة الأجندة السياسية للـــولايات المـــتحدة في العالم. ورغم أن من بين موظفي الحرة صحفيون يفخرون بموضـــوعيتهم، فـــإن رئيسهم في الأخير – وكما يعلم جمهورهم – هو الحكومة الأمـــريكية وذلـــك بالتأكيد يؤثر في مصداقية المحطة. فهي بالأساس تقدم صحافة موجهة حكوميا، وهي نوعية تخضع للقيودباستمرار. في أواخر 2005 لاحظت آن ماري بيلوني أن الحرة أصبحت "غير ذات جدوى إلى حد بعيد، إذ تنحصر مهمتها الأساســـية في إبراز تطابق الخبر مع وجهة النظر "الأمريكية" وهو ما يسهل رفض محتواها بسبب هذه اللوثة." وأضافت أن القناة أثبتت أنها أتت بنتائج عكسية عندما يتعلق الأمر بخدمة المصالح الأمريكية.[35]

رغـــم الأداء الضعيف لقناة الحرة في سياق منافستها على كسب الجمهور العربـــــي، فقد أعلنت خدمة بـــي بـــي سي العالمية التي تموّلها وزارة الخارجية الـــبريطانية في 2005 أنها مستعدة لاستثمار 35 مليون دولار سنويا لتشغيل قناة ناطقـــة بالعربية. (أصبح هذا التمويل متوفرا جزئيا بسبب إيقاف الخدمة العالمية لبـــثها بعشر لغات أخرى أغلبها – مثل البلغارية والتشيكية – اعتبرت من بقايا الحرب الباردة و لم تعد ضرورية من الناحية السياسية). كانت الإذاعة العربية التي أطلقـــت في عـــام 1938 أول مـــشاريع بـــي بـــي سي بلغة أجنبية. وقد بنت بـــــي بـــي سي مصداقية علامتها التجارية في المنطقة على مدى السنين بفضل خدمة الإذاعة ثم عبر منتجاتها الالكترونية. وفي عام 2005 قدّرت بـــي بـــي سي أن جمهور إذاعتها العربية يبلغ حوالي 12 مليون مستمع في الأسبوع، وأن موقعها الإخـــباري على شبكة الانترنت يسجل حوالي 17 مليون زيارة في الشهر. وقال مسؤولون في بـــي بـــي سي إن دراساتهم المسحية التي أجروها في عاميْ 2003 و2005 وجـــدت أن عددا هاما من المستجوبين قالوا إنه من المحتمل أن يشاهدوا قـــناة بـــــي بـــــي سي.[36] انطلق بث القناة في شهر مارس 2008 وقد عبّر مـــسؤولون في الـــــ بـــي بـــي سي أنهم يأملون في اجتذاب 20 مليون مشاهد أسبوعيا مع حلول 2010.

نظـــرا لحـــضورها في المـــنطقة منذ وقت طويل ولأن صورتها ليست مسيّسة بـــشكل صريح، فربما يكون للـــ بـــي بـــي سي العربية الأفضلية على قناة الحرة. لكـــن المـــتحدث باسم العربية جهاد بلوط لاحظ أن المجال الإعلامي أصبح أكثر ازدحاما وأن "هناك الآن مصادر أفضل حول منطقتنا." يقودنا ذلك إلى أسئلة هامة حـــول مـــستقبل الإعلام الإخباري في منطقة الشرق الأوسط: ما هو الحد الذي يـــصبح عنده السوق مشبعا؟ هل سيدخل الجمهور العربـــي، مع هذا العدد الكبير مـــن الخـــدمات الإعلامية المنتجة محليا، مرحلة من الشوفينية المعلوماتية فيتجاهلون المصادر الأجنبية مثل الـــ بـــي بـــي سي والحرة؟

يـــبلغ عـــدد سكان العالم العربـــي حوالي 300 مليون نسمة، وهو تقريبا عـــدد ســـكان الولايات المتحدة، حيث تُجزَّأ سوق الأخبار التلفزيونية بطريقة تلاشـــت معها هيمنة الثلاثة الكبار"، "القادة التقليديون". يمكن البرهنة – على الأقل على الصعيد المالي إن لم يكن الصحفي – على أن الجمهور المحدود/مصدر الـــدخل يمكـــنه أن يتجـــزأ فقط إلى الحد الذي يسبق المرحلة التي تصبح فيها الأجـــزاء صغيرة جدا بما لا يسمح بتمويل جميع القنوات. الأمر شبيه بذلك في الـــشرق الأوســـط الـــيوم، فإذا كانت القنوات الإقليمية الرائدة هي الجزيرة والعربية، فأي مجال سيبقى هناك للمتنافسين على ما هو أكثر من جمهور صغير متخصص.[37]

الإجابـــة عـــن هذه الأسئلة ستؤثر في المستقبل المالي للمشاريع الإعلامية، وســـتحدد كـــذلك حجـــم الـــتأثير الذي سيكون لمزوّدي الأخبار – خاصة "الأجانـــب" مـــنهم. فاللغة العربية وحدها لا تمنح المصداقية. فإذا كانت هناك محطة تموّلها حكومة أجنبية، فإن ادعاءاتها بشأن استقلاليتها الصحفية سوف تقنع جمهـــورا محـــدودا نـــسبيا بأن ما تبثه أخباراً وليس دعاية. العلاقة بين ملكية المؤسسات الإعلامية ونـــزاهة منتجها الإخباري قضية عالمية سواء أتعلق ذلك بـــأمير قطر والجزيرة أم بالولايات المتحدة الأمريكية والحرة، أو كذلك بشركة ديزناي وآي بـــي سي نيوز. وفي الشرق الأوسط، حيث الثقة بضاعة محدودة، تـــتخذ القضية دلالة خاصة بالنسبة إلى أية مؤسسة إعلامية تسعى للدخول إلى السّوق أو التوسّع فيه.

تليسور

خارج منطقة الشرق الأوسط، يمكن أن نلاحظ وجها من وجوه تأثير الجزيرة في تطويـــر قنوات تلفزيون فضائية إقليمية في مناطق حيث يكون الإعلام المحلي قد رزح طـــويلا تحت هيمنة مؤسسات إعلامية كبرى تنطلق من مناطق أخرى. وتعد تليسور مثالا على ذلك.

لقـــد قادت السياسة إلى إطلاق تليسور وهي اختصار لـــ "لا نويفا تلفيزيون دل سور" (تلفزيون الجنوب الجديد). في أمريكا اللاتينية كما هي الحال في الشرق الأوسط، كان هناك استياء متزايد إزاء انتهاك الاستقلالية الفكرية والسياسية المتمثل في هيمنة الإعلام الخارجي. ورؤية العالم بأعين الآخرين ليست دائما جديرة بالثقة، إذ قبل أن تصبح وجهات النظر الخارجية مفيدة، ينبغي أن يتوفر أولا إطار مرجعي أصيل.

كانـــت هذه وجهة نظر رئيس فنـــزويلا هوغو شافيز، الذي طور بالاشتراك مـــع الرئيس الكوبـــي فيديل كاسترو فكرة محطة تلفزيونية إقليمية. تهدف تليسور على حد تعبير شافيز لـــ "الوقوف في وجه دكتاتورية الإعلام التي تمارسها الشبكات الإخبارية العالمية الكبرى." وعلى غرار خطابات مؤسسي القنوات العربية، يتحدث صحفيو تليسور عن الطبيعة "المناهضة للهيمنة" عليهم. ومن جهته يشير المدير العام للقـــناة آرام أهارونيان إلى "الحاجة الملحة لأن نرى أنفسنا بأعيننا نحن وأن نكتشف حلولنا لمشاكلنا."[38]

عـــند ترويجه للقناة تساءل شافيز "لماذا ينبغي أن يقال لنا كل شيء نعرفه عن أنفـــسنا عبْـــر شبكة من الشمال مثل سي أن أن؟" أما أهارونيان فقد قال "اليوم نعـــرف عن الشيشان أكثر بكثير مما نعرفه عما يحدث في زوايانا، في كولمبيا أو في أمريكا الوسطى، لأن كل المعلومات التي تأتي من الشمال تتركز حول المواضيع التي تهم الشمال."[39]

جـــاء التمويل الأولي للقناة التي انطلق بثها في 2005 من مقرها في كراكاس، مـــن فنـــزويلا ودول أمريكية لاتينية أخرى. ومع أواخر 2006 أصبحت الحكومة الفنـــزويلية تملك 51% من قيمة تليسور، بينما تملك الأرجنتين 20% وكوبا 14% في حـــين تملك الأورغواي وبوليفيا مجتمعتان 15%. ورغم اعتماد القناة على تمويل

هذه الحكومات أساسا، فقد أكد أهارونيان أن تليسور لن تعمل بتوجيه حكومي. قـــد يكون ذلك ممكنا إذا استطاع أن يضمن دعم القطاع الخاص، وهو ما قال إنه ســـيتحقق قـــريبا. كما وعد أهارونيان بأن تليسور لن تتبنّى طريقة عمل القنوات الأخـــرى الـــتي تمـــوّلها الحكومات، والتي تسخّر وقتا مبالغا فيه لخطب المسؤولين الحكوميين وأنشطتهم الأخرى. وتوقع أن "لا أحد سيشاهدها" إذا تحولت تليسور إلى أداة دعائية.40

وذلـــك لا يعني أن تليسور ستفصل نفسها عن شؤون السياسة. ومن أسباب ذلـــك أن شافيز له أجندته الخاصة المتعلقة بالإعلام. لقد ظل مستاء بعد أن ساعد إعـــلام المعارضة في إنجاح انقلاب لم يدم طويلا ضد رئاسته في عام 2002. فأصبح له برنامجه التلفزيوني الخاص آلو بريزيدنتي (أهلا أيها الرئيس) وفيه يجيب عن أسئلة الجمهـــور الحاضر في الأستوديو وعبر الاتصالات الهاتفية. وكذلك حدد القائمون علـــى القـــناة أهدافهم السياسية الخاصة. جاء على لسان أهارونيان قوله "سنركز عملـــنا ضـــد مـــا يقوم به التلفزيون التجاري. سنلقي الضوء على دور الحركات الاجتماعـــية، والعمق الشعبـــي، والأقليات، والمدن". وذكر دعوة فيديل كاسترو لإنـــشاء "ســـي أن أن الـــشعب" وأضاف "التلفزيون لا ينبغي أن يترك بين أيدي الأعـــداء. لقـــد أعطـــت الحكـــومة الفنـــزويلية أهمية كبرى لإذاعات الأقليات والإذاعـــات البديلة، ولكنها تركت الإعلام الجماهيري في أيدي الأعداء. اليوم تتأكد أهمية الاتصال الجماهيري خاصة وأن الإعلام البديل لا يصل إلا إلى نحو 5%–10% مـــن الجمهـــور العـــام.. فالناس لم يعودوا سلبيين في مواجهة ما يقال على شاشة التلفزيون. إنهم يشاهدون ويحاولون قراءة ما بين السطور، ليكتشفوا المخفي والذي لم يتم قوله."[41]

ضـــمن هـــذا الـــسياق بدأ مسؤولو تليسور في تطوير نمط جيد من المحتوى. فبالإضـــافة إلى مراسليهم الخاصين في أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة، خططوا للـــتعاقد مع وسائل إعلام مستقلة في المنطقة لتمدهم بتقارير إخبارية منتظمة ومواد مطـــولة وبـــرامج وثائقية. وللتحفيز على إنتاج هذه المواد، وعدت تليسور بدعم إنـــشاء محطة لإنتاج المحتوى الأمريكي اللاتيني، وبث ما ينتج هناك على المحطة ذاتها أو المساعدة في إيجاد طرق أخرى لتصريفها.

باســـتثناء هذه المسائل التشغيلية، فقد رددت قيادة تليسور دعوة شافيز للاندماج السياسي داخل أمريكا اللاتينية. وفي مقال له على موقع ريبيليون (Rebelion) في صـــيف 2005، كتب أهارونيان، الصحفي المخضرم من اليوروغواي، أن تليسور تهـــدف إلى "تحقيق المثال البوليفي. أن ترى غيرك يعني أن تعرف غيرك.. فإذا كان الهـــدف هو الاندماج فإن تليسور هي الوسيلة." وأضاف أهاريونيان "إن الصورة الإعلامية التي تنقل عن المنطقة لا تمثل واقعها، لأنه في الوقت الراهن لا توجد جهة مستعدة أو ذات موارد قادرة على بناء الجسور التي تربط بين شعوب وأمم أمريكا اللاتينـــية... ســـيكون بمقدور البديل السمعي البصري أن يساعد في بلورة هوية أمـــريكية لاتينية." وكتب أيضا أن تليسور إلى جانب قنوات أخرى مشابهة يمكنها أن تكون أدوات "في معركة الأفكار ضد مسار العولمة المهيمن." وختم بالقول "لن نتوقّف قبل أن نحقّق ديمقراطية المشهد التلفزيوني في منطقتنا."[42]

لقـــد أبرز أهارونيان نقاطا أساسية بخصوص المنظور السياسي لتليسور، وهي نقاط تشترك فيها كذلك الجزيرة وقنوات أخرى. ففكرة أنّ العولمة تعزز ممارسات قوى الهيمنة التقليدية لا تجد اهتماما كبيرا لدى أغلب الشعوب النامية، ويعود ذلك جـــزئيا إلى كـــون العـــولمة تعني استمرار الهيمنة عليها. إذا كنت عضوا في النادي فالهيمـــنة أمـــر جيد، أما الدول التي تقع خارج تلك الدائرة فهي تسعى إلى ضمان مـــصالحها. ولـــذلك فإن الروابط الإقليمية التي تعززها وسائل الاتصال أصبح لها جاذبـــية. ولـــذلك فالـــدول العربية وأمريكا اللاتينية وغيرها ممن يعوزها النفوذ الاقتـــصادي والعسكري، بإمكانها استخدام الإعلام لترسيخ هويتها الجماعية. ليس هـــناك إجماع في أمريكا اللاتينية حول الاندماج البوليفي، وذلك ما اكتشفه شافيز حـــين حـــاول التدخل في الشؤون السياسية للبلدان المجاورة. وبالمثل، ففي الشرق الأوســـط وجـــدت الجزيرة أن العروبة تجتذب الناس باعتبارها فكرة مجردة بينما يتشبث الكثير من العرب بهوياتهم الوطنية.

إذا افترضنا أن وسائل الإعلام الإخبارية بإمكانها أن تتمتع ولو بحرية صحفية شـــكلية، فإن ذلك من شأنه أن يفيد عملية الإصلاح في إطارها العام. ومع ذلك، فإن نموذج تليسور يعاني من مشاكل على هذا الصعيد. فرغم إعلان أهارونيان أن تليسور ستقود الإعلام التلفزيوني في أمريكا اللاتينية نحو الديمقراطية، إلا أن انتقال

وســـائل الإعلام من أيدي الخواص إلى يد الدولة لا يبدو أنه الطريق الأمثل لتحقيق ديمقراطية إعلامية أكبر. من المؤكد أن تأثير الدولة في المحتوى الإعلامي – الصريح أحيانا والضمني أحيانا أخرى –لن يختفي نهائيا. فالجزيرة مثلا، لا تبحث في شؤون العائلـــة المالكة في قطر. وفي الولايات المتحدة، يمكن للضغوط الحكومية أن تكبح المؤســـسات الإخبارية، على الأقل مؤقتا. وفي أمريكا اللاتينية، لا يبدو أن أولئك الـــصحفيين الـــذين لا تعجبهم فلسفة شافيز السياسية أو تكتيكاته، يتبنون نظرة أهارونيان الوردية.

ومع ذلك فإن لتليسور خصائص هامة. فتماشيا مع مقاربتها الشعبوية المعلنة، بـــدلا من تقليد النموذج الغربـــي المصطنع لنشرات الأخبار، أدرجت ضمن طاقم مذيعيها صحفية كولومبية من أصل هندي ترتدي الثوب الأبيض لقبيلة الأرهواكو التي تنتمي إليها. ومن بين البرامج التي تبثها برنامج اسمه "نوجوليفود" وهي التهجية الـــصوتية لعبارة (No Hollywood). وانطلاقا من إحساسها بأن عليها أن تتنافس من أجل كسب الجمهور مع سي أن أن الناطقة بالإسبانية، ويونيفيجن، وتليفيزيون إسبانيولا وغيرها من القنوات، فإن تليسور تعمل جاهدة لتتميز.

وفي بـــدايات عام 2006 وقّعت تليسور اتفاقا مع الجزيرة لتبادل المحتوى والخبرة الفنية. وفي نهاية ذلك العام اقتنت استوديو إضافيا مع مساحات مكتبية في كاراكاس حيث كانت تخطط لتوسيع حضورها في السوق الناطقة بالإسبانية في أوروبـــا وشمـــال غربـــــي أفريقيا إلى جانب أسواق أخرى داخل أمريكا اللاتينية.[43]

وإذا افترضنا أن تليسور استطاعت أن تؤمّن دخلا حكوميا وخاصا ثابتا، فإن بإمكانها أن تلعب دورا هاما في المشهد الإعلامي في أمريكا اللاتينية. يطمح شافيز إلى أن يـــرى أمـــريكا اللاتينية وقد تقلصت هيمنة جيرانها الشماليين عليها، وأن تـــتوحّد أكثر باعتبارها كيانا سياسيا. ويتناسب ذلك مع الإمكانات التي تتمتع بها تليـــسور. مقارنة بالجزيرة تعتبر ردود الفعل على تليسور من خارج المنطقة محدودة للغايـــة، أما إذَا أصبحت أمريكا اللاتينية منخرطة في اضطرابات من شأنها أن تعتبر تهديـــدا للاستقرار العالمي الأوسع (أو إذا ما تقمص شافيز دور كاسترو الجديد)، فيمكن أن تتحول تليسور إلى هدف سياسي.

آخرون داخل اللعبة

تـــتدخل السياسة، بطريقة أو بأخرى، تقريبا في كل التطورات التي يشهدها الإعـــلام الجديـــد، ويتضح ذلك من خلال الأسباب الكامنة وراء إطلاق محطات فـــضائية ذات حـــضور عالمـــي واسع. وعلى حد قول الصحفي الفرنسي أوليس غوسي، الذي ساعد في بلورة مشروع فرنسا 24 التي أدخلت فرنسا إلى هذا المجال، "تعتـــبر القنوات الإخبارية اليوم جزءاً من المعركة الكونية في العالم. إنها هامة شأنها شـــأن الدبلوماســـية التقليدية والقوة الاقتصادية." وأضاف، "إذا كانت لنا رغبة حقيقـــية في التواصل مع العالم كله، علينا أن نقوم بذلك باستخدام الأداة المناسبة، أعني اللغة الإنجليزية."[44]

في كـــل مكـــان مـــن العالم تقريبا يوجد أناس – خاصة في أوساط النخب الـــسياسية والاقتصادية – يتكلمون الإنجليزية وهم جزء من الجمهور الواسع الذي يتابع محطات البث الأمريكية والبريطانية الكبرى. وبالنسبة إلى الحكومات التي تريد المـــساهمة في حـــركة التواصـــل العالمية حول القضايا الهامة، يعتبر الإعلام الناطق بالإنجليزية ضرورة. وتعد قناة فرنسا 24 التي أطلقت سنة 2006 مثالا على ذلك.

كانـــت فرنـــسا 24 الـــتي يـــشار إليها باعتبارها "سي أن أن على الطريقة الفرنـــسية"، قـــد أنشئت مشروعا مشتركا بين تي أف 1 (TF1) الشبكة الفرنسية المـــستقلة الأوسع انتشارا، وتلفزيون فرنسا الحكومي. تبث القناة نشرات إخبارية بالفرنسية والإنجليزية من غرفتي أخبار متجاورتين. وأضيف البث باللغة العربية سنة 2007. كما يقدم موقع القناة على الانترنت أخبارا بالفرنسية والإنجليزية والعربية. وكانـــت ميـــزانيتها السنوية التي ابتدأت بها حوالي 100 مليون دولار، وبلغ عدد موظفيها من الصحفيين عند إطلاقها 180 صحفيا يمثلون 28 جنسية وبمعدل أعمار يبلغ 33 عاما.[45]

يعتبر ألان دي بوزيلاك (Alain De Pouzilhac)، المدير التنفيذي للقناة الفرنسية أن تغطـــية "سي أن أن" للحرب في العراق لم تكن موضوعية، بل عكست وجهة النظـــر الأمـــريكية الـــتي ترى أن القوات الغازية كانت تسعى إلى"جلب الحرية" للعـــراق. وجـــاء في تعليق له أن "هذه القناة لن تكون مناهضة لأمريكا، ولكنها ستكتشف الأخبار العالمية بعيون فرنسية، مثلما تكتشف سي أن أن الأخبار العالمية

بعـــيون أمريكية." فالعيون التي ترى الأخبار قبل نقلها تصنع الفارق كما قال، ثم أضـــاف "لا تـــوجد موضـــوعية في العالم، بل توجد نـــزاهة، ويوجد حياد، أما الموضوعية فلا وجود لها." ستسخّر فرنسا 24 وقتا للمواقف الفرنسية أكثر ممّا تفعله القنوات الأخرى. وجاء على لسان مارك أوين (Mark Owen)، المذيع الذي انتقل مـــن القـــناة البريطانية أي تي في (ITV) والتحق بالقناة الفرنسية، أنه خلال حرب 2006 بين إسرائيل وحزب الله لم تعر بـــي بـــي سي اهتماما كافيا لدعوة الرئيس الفرنسي جاك شيراك لوقف الهجمات الإسرائيلية داخل لبنان، وفي المقابل سلّطت الكـــثير مـــن الأضواء على موقف رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الداعم لوجهة النظر الأمريكية في السماح لإسرائيل بالاستمرار."[46]

صمّمت قناة فرنسا 24 للمساهمة في نشر ما تسمّيه القيم السياسية الفرنسية: إيـــلاء مزيد من الاهتمام بأولئك الذين لا يحظون بتغطية كافية، وتشجيع الحوار، والتأكيد على التنمية الثقافية والاقتصادية على حد سواء.

يقـــول دي بوزيلاك "إن ذلك هو عكس ما تفعله أمريكا. فالرؤية الصادرة عن واشنطن تريد أن تظهر أن العالم موحّد، في حين أننا سنحاول أن نبين عكس ذلك: أن العالم فيه الكثير من التنوع. تنوع في الثقافة وتنوع في الدين وتنوع في الرأي."[47]

من جهته قال جيروم بونافون (Jerome Bonnafont)، المتحدث باسم الرئيس شيراك، إن تفكير شيراك في إنشاء فرنسا 24 بدأ في أعقاب هجمات الحادي عشر مـــن ســـبتمبر. فقـــد كان الرئيس يرى أن على فرنسا والدول الأخرى أن تتقدم لتصحيح سوء الفهم المتبادل بين الثقافات وأن عليها أن تفعل ذلك بأصواتها المنفردة بدلا من الاستسلام لـــ "الاتجاه الذي يسير نحو التطابق" الذي أوجدته العولمة. كان شـــيراك مصمما على أن يجعل وجهات النظر الفرنسية مسموعة. وعلى حد تعبير بونافـــون "إذا لم تحـــاول أن تكـــون حاضـــرا في العالم بطريقة حيوية، فإن العالم سيتجاهلك. عليك أن تظهر أنك ذو أهمية."[48] (في أوائل عام 2008، أعلن نيكولا ســـاركوزي، خليفة شيراك أنه يريد إغلاق القناتين الناطقتين بالإنجليزية والعربية، قائلا "إنه غير مستعد للسماح لقناة تبث بغير الفرنسية أن تعمل بتمويل من دافعي الضرائب". لكن فرنسا 24 اعترضت بشدة، وإلى حد كتابة هذه السطور لا تزال القضية معلقة.)

في الماضـــي، كان "إظهار أنك ذو أهمية" يعني في الغالب استعراض عضلاتك العـــسكرية، وبالتالي فالتعويل على التلفزيون بدلا من الجيوش يمكن اعتباره تقدما. وتتـــضح أهمـــية ذلك التغيير حين نرى الجهود الروسية لاستخدام موجات الأثير عـــوض وســـائلها التقلـــيدية لإثبات قوّتها. فقد انطلقت قناة روسيا اليوم الناطقة بالإنجليـــزية في 2005 لإعـــادة تشكيل صورة روسيا. وتلاحظ سفتلانا ميرونيوك (Svetlana Mironyuk)، المدير العام لوكالة الأنباء نوفوستي: "للأسف، على مستوى الوعـــي الجمـــاهيري في الغـــرب، ترتبط روسيا بثلاث كلمات: الشيوعية والثلج والفقر. نودّ أن نقدم صورة شاملة أكثر للحياة في بلادنا."[49]

لكـــن المنتقدين اعتبروا مباشرة أن القناة أداة من أدوات الحكومة. فقد اعتبر المحلل السياسي بوريس كاغارليتسكي (Boris Kagarlitsky)، أن "روسيا اليوم تعد إلى حد بعـــيد تواصلا مع خدمات البروباغندا السوفياتية التقليدية. فهم يريدون الأخبار الجيدة ويـــريدون أن يـــرسموا صـــورة إيجابية لروسيا." غير أن ميرونيوك ترى أن الأمر ليس كـــذلك: "يستحيل تقريبا أن تفرض وجهة نظرك الخاصة على بقية الآراء لأن الفضاء المعلـــوماتي شاسع جدا. فهناك عمليا ما لا يحصى من البدائل. ولكن الفكرة تكمن في مساعدة الجمهور العالمي على فهم ما يجري في روسيا من منظور روسيا ذاتها."[50]

الحقيقة تقع في مكان ما بين المنتقدين والمدافعين. فالدوافع وراء إنشاء روسيا الـــيوم تـــتجاوز الرغبة في مواجهة صور قديمة للاتحاد السوفياتي المنهار. يذكر أن الـــرئيس فلاديمير بوتين أبدى انـــزعاجه من اللهجة السلبية المستمرة التي تتسم بها التغطـــية الإعلامـــية العالمية للسياسات الروسية مثل اتهام القوات الروسية بانتهاك حقوق الإنسان إبّان الحرب في الشيشان، وهو صراع اعتبره بوتين جزءاً من الحرب العالمـــية ضـــد الإرهاب.[51] وقد أصابت ميرونيوك مع ذلك، حين أشارت إلى أن البروباغندا المفضوحة يتم تحدّيها بسرعة في يومنا هذا، لأن سوق المعلومات أضحى مـــزدحما بكل شيء، من المؤسسات الإخبارية الضخمة إلى المدونين الأفراد، فإدارة المعلومات على الطريقة السوفياتية لم تعد ممكنة، على الأقل لفترة طويلة. شأنه شأن جـــاك شـــيراك، يدرك بوتين المستويات الجديدة للمنافسة من أجل كسب الرأي العـــام. وعلى غرار فرنسا 24، تقدم روسيا اليوم أخبارا مع تكييف بسيط لإعطاء الأولوية لمصالح أصحابها.

الخدمـــة التي تقدمها القناة متقنة مهنيا وتتميز بالبراعة لكنها تعكس بوضوح الـــرؤية البوتينية للعالم. ويدرك العديد من مستهلكي الأخبار قواعد اللعبة، ووفقا لذلك، بإمكانهم أن يحكموا على المعلومات التي يتلقونها.

هـــذا التيقظ هام لأن البيئة الإخبارية الناطقة بالإنجليزية باتت أكثر ازدحاما، فـــسي أن أن أُطلقـــت سنة 1980، ثم انطلقت خدمة بـــي بـــي سي العالمية سنة 1991، وبـــدأت دويتـــشه فيله بثها بالإنجليزية في 1992، والقائمة تطول. وهناك مشاريع أخرى تحت الإنشاء، فقد بدأ التفكير في مشروع قناة أفريقية تبث باللغتين الإنجليـــزية والفرنسية. وقد بدت رؤية سليم أمين، أحد الذين يخططون للمشروع، قـــريبة من رؤى زملائه في القنوات الأخرى حين وصف فكرة القناة قائلا "ليست لـــنا شبكة أو وسيلة إعلام تمكّننا من التخاطب فيما بيننا وتوصل رسالتنا إلى بقية العـــالم. كـــل ما نراه على شاشات الشبكات العالمية حول أفريقيا سلبـــي جدا: المجاعـــة، الحرب، المرض، الموت، مرض نقص المناعة. هناك أمور إيجابية تحدث هنا ولا يتم إبرازها أبدا."[52]

بالنسبة إلى هذا المشروع الأفريقي والقنوات الأخرى في الأفق، يبدو التمويل صـــعبا، خـــصوصا إذا أراد الـــصحفيون العاملون فيه الحفاظ على استقلاليتهم. فالقـــنوات الفـــضائية الكبرى اليوم لم تنسج على منوال سي أن أن حين انطلقت بـــتمويل من مؤسسة خاصة. أغلبها تعتمد أساسا على المساعدات الحكومية، التي تـــأتي أحـــيانا مشروطة بشراكة حكومية كاملة في إدارة القناة. ومع كل الحظوة والـــتأثير الذي يمكن أن يكون لهذه القنوات، يبدو السوق مزدحما جدا بما يحدّ من فـــرص تحقيق إيرادات كبيرة. فقناة الجزيرة الشهيرة تحتاج دوما إلى اعتمادات مالية كـــبيرة مـــن أمـــير دولـــة قطر. وخدمة بـــي بـــي سي العالمية، الفرع العالمي لبـــي بـــي سي الذي يعمل بتمويل تجاري، قالت إن عدد مشاهديها يصل إلى 65 ملـــيون مشاهد أسبوعيا، وذكرت في العام 2006 أن وارداتها من الإعلانات تحقق ارتفاعا سنويا بنسبة 20% منذ العام 2001. ومع ذلك فقد أقر المسؤولون في القناة بأنها لن تحقق فائضا ربحيا حتى عام 2010.[53]

ورغـــم الـــتحديات التمويلية، فإن البث باللغة الإنجليزية سيظل في نمو. وتعد دويتـــشه فيله مثالا جيدا على القنوات التي نجحت في إيجاد موقع قدم في السوق.

فهـــي تبث بدرجة أولى باللغتين الإنجليزية والألمانية، ولها برامج بالإسبانية والعربية، وتبث كذلك – إلى حدود 2002 – بعض المواد بالداري والبشتو معدة للبث على قـــناة آر تي آي (RTA) وهـــي الخدمـــة التلفزيونية الأفغانية. وفي تعليق لمديرها التنفيذي، كريستوف لانـــز (Cristoph Lanz)، قال "إن الذين يشاهدون خدمة القناة باللغة الإنجليزية أكثر من أولئك الذين يشاهدون خدمتها باللغة الألمانية. ولا علاقـــة لذلك بالعدد القليل من المشاهدين الألمان، وإنما بحقيقة أن هناك ستة بلايين إنسان في العالم منهم 80 مليون ألماني فقط، وربما هناك حوالي 150 مليون يتحدثون الألمانية. فإذا كان إعلان مهمتك ينص على الوصول إلى العالم، فإن عليك أن تفعل ذلك عبر تجاوز هوة اللغة.[54]

تعمـــل دويتشه فيله بتمويل من الحكومة الألمانية، وتتمثل مهمتها الرسمية في "جعـــل ألمانـــيا مفهـــومة باعتبارها أمة ذات ثقافة أوروبية المنشأ، ودولة دستورية ديمقـــراطية قائمـــة علـــى سيادة القانون." وأكدت القناة أن بثها مصمم لتحسين "صورة ألمانيا الإعلامية الخارجية" وأن "المجموعات الرئيسة المستهدفة هم قادة الرأي في العـــالم الـــذي لهم اهتمام بألمانيا وأوروبا." ويذكر إعلان مهمة دويتشه فيله أن أحد أدوارها يتمثل في "استخدام السمعة الطيبة للمؤسسة لتحسين صورة ألمانيا في العالم." ويقدر الجمهور اليومي للقناة بـــ 28 مليون مشاهد.[55]

ومـــنذ إطلاق إذاعتها الأولى باللغة الألمانية سنة 1953، طورت دويتشه فيله نفـــسها نمـــوذجا لمشاريع البث التي تخدم بدرجة أولى أهداف الحكومة السياسية. والنموذج الرئيس الثاني المتحرر من الارتباطات الحكومية الرسمية هو الذراع العالمية لشبكة سي أن أن (CNN International). إنها قناة خاصة وربحية، وهي عمليا تلعب دورا سياســـيا فعالا على صعيد العالم. ولدت سي أن أن العالمية سنة 1985 تحت مـــسمّى سي أن أن أوروبا وتنافست في المقام الأول مع بـــي بـــي سي الإخبارية العالمية خلال تسعينات القرن الماضي، ومع تقدم الزمن اتسع انتشارها ليغطي أكثر من مائتي دولة. وباعتباره نجما متقادما، بدأ المشروع العام لسي أن أن يفقد بريقه، ففـــي الـــولايات المـــتحدة، كثيرا ما يأتي ترتيبها في المنافسة بعد قناة فوكس نيوز المحافظـــة ذات اللهجة الحادة. أما على الصعيد العالمي فقد أصبحت تتقدمها قنوات أحدث منها سنا وأكثر حيوية مثل الجزيرة.

ولكـــن ســـي أن أن لا تـــزال في قلب اللعبة، خاصة بعدما تمكنت من عقد شراكات مع قنوات محلية في أنحاء كثيرة من العالم. ومثال ذلك، سي أن أن – أي بـــي أ (India Broadcast News)، وهي قناة إخبارية ناطقة بالإنجليزية تبث على مـــدار الساعة أنشئت في عام 2005 لتربط سي أن أن بإحدى أبرز شركات البث الهـــندية، مجموعة تي في 18 (TV18). بينما توفر سي أن أن التغطية العالمية، تركز أي بـــي أن على التقارير المحلية والوطنية. وقد ذكر المدير التنفيذي لسي أن أن العالمية، كريس كرامر (Chris Cramer)، هذه الشراكة باعتبارها إحدى ثمار "الجهود التي تـــبذلها الـــشبكة للاقتراب أكثر من جمهورها،" وقال رئيس تحرير القناة الجديدة، راجـــديب سردیساي (Rajdeep Sardesai) إن الدافع وراء العمل مع سي أن أن هـــو إلى حـــد ما الطلب على مزيد من الأخبار العالمية "في الهند التي تشهد حركة متسارعة للعولمة."[56]

هـــذان المنطقان يكشفان تطورات كثيرة تشهدها الصناعة الإخبارية العالمية. فقـــد أدركت سي أن أن بسبب المصداقية والقبول الذي تحظى به المؤسسات الإخـــبارية المحلية والإقليمية، فإنه عليها أن تغيِّر صورتها من صورة مؤسّسة أجنبية (وهنا، غربية) إلى صورة زميل محلي. وبصرف النظر عن جودة المادة الصحفية التي تقـــدمها ومـــدى حضورها العالمي، فما زال يُنظر إلى سي أن أن باعتبارها كيانا أمـــريكيا، وهـــو ما يحدّ من قبولها. وهذا هو أحد مظاهر تأثير الجزيرة. ففي حين يـــستمر اتجاه البث الإخباري نحو مزيد من العالمية من حيث قدرته على الانتشار، فإنه يستمر أيضا في التأكيد على أنه أداة من أدوات خدمة مصالح البلدان أو المناطق التي ينطلق منها.

في حالـــة السي أن أن والأي بـــي أن، تتضح من كلام سردیساي الرغبة الهندية في الانـــدماج أكثـــر وبـــشكل كامل في المجتمع العالمي. ويمر تحقيق ذلك الهدف عبر الولايات المتحدة، لأن ذلك يتطلب بالتأكيد الاعتماد على اللغة الإنجليزية، التي لا يبدو أن ثمة علامات تشير إلى استبدالها باعتبارها لغة مهيمنة في عالم الأعمال. وهذه العوامل مجتمعة تجعل من عقد مثل تلك الشراكة استراتيجية منطقية لجميع الأطراف.

والجزيـــرة ذاتهـــا أدركت أنه إذا أرادت توسيع مجال تأثيرها العالمي، فإنها لن تـــستطيع ذلك باستخدام اللغة العربية وحدها. ولذلك، وبعد سنوات من الإعداد،

أطلقـــت الجزيـــرة الإنجليزية، أول قناة إخبارية ناطقة باللغة الإنجليزية من الشرق الأوسط. ومن خلال مراكز بثها الرئيسة في الدوحة وواشنطن ولندن وكوالا لمبور، واجهت القناة مهمة إثبات الذات باعتبارها أكثر من مجرد رغبة في لفت الأنظار أو نسخة أصغر من بـــي بـــي سي أو سي أن أن.

في الأشـــهر الأولى من انطلاقتها، بدت الجزيرة الإنجليزية كأنها في طريقها إلى تحديـــد موقعها في السوق. وقد ميّزها عن غيرها من القنوات المنافسة اتّساع نطاق تغطيـــتها وخاصة تركيزها على نقل ما يحدث في الجنوب إلى الشمال. ومن خلال تغطيـــتها الـــشاملة من الشرق الأوسط ومن أفريقيا، وفّرت منظورا لم توفّره بقية القنوات الفضائية الكبرى لمشاهديها.

عند انطلاقتها كانت الجزيرة الإنجليزية متاحة لثمانين مليون بيت عبر شبكات الكيـــبل والأقمـــار الاصـــطناعية. ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن مشاهدتها متاحة إلا لعدد قليل من المشاهدين (خاصة أولئك الذين يصلون إليها عن طريق مزودي خدمة المشاهدة عبر الانترنت)، وذلك لأسباب سياسية بدرجة أولى. فقد ظلت الجزيرة فترةً طويلة عرضة لحملة تشويه شاملة من الحكومة الأمريكية – الـــتي تنعـــتها بـــ "قناة أسامة بن لادن" وغير ذلك من الأوصاف – وهو ما دفع مـــزودي الخدمـــة الرئيسين إلى الإحجام عن تحميلها عبر شبكات الكيبل والأقمار الاصـــطناعية. ورغم أن هذه الشركات قد أعلنت أنها لن تضيف الجزيرة الإنجليزية إلى باقاتهـــا لأسباب تتعلق بانعدام المساحة، إلا أنها كانت في الواقع تخشى من رد الفعل السلبـــي من قبل السياسيين والجمهور.

وكان ذلك في الحقيقة بمثابة اعتراف ضمني بأهمية الجزيرة. فقد كان يُنظر إلى القناة العربية باعتبارها قوة تستطيع توجيه الشعور العام في الشرق الأوسط بطريقة تجعله مناهضا للمصالح السياسية الأمريكية. وهناك زاوية نظر أخرى ترى أن تغطية المؤسسات الإخبارية الغربية لتعقيدات الواقع ومجريات الأحداث في هذه المنطقة من العالم كانت دون المستوى فجاءت الجزيرة لتملأ هذا الفراغ. وأيا كان تشخيصنا للوضـــع، فـــسنظل نحكم على الجزيرة وفق معايير سياسية وصحفية في الآن ذاته. فالوصول إلى سوق عالمي واسع يخضع بالأساس إلى طلب الجمهور. فإذا استطاعت الجزيـــرة الإنجليزية أن تغطي أهم الأحداث، لا سيما في الشرق الأوسط، بطريقة

أفـــضل مـــن القنوات الأخرى، وإذا وجد منافسوها أنفسهم يقولون "على نحو ما أوردته الجزيرة الإنجليزية اليوم..."، فإن مشاهدي الأخبار سيطالبون في النهاية بأن تكـــون مـــتاحة لهم. فعندما تقتنع شبكات الكيبل والأقمار الاصطناعية بأن إتاحة الجزيـــرة الإنجليزية للجمهور ستكسبهم أموالا، فسيضعون تخوفاتهم السياسية جانبا وستنفتح أمام القناة أسواق جديدة.

في الوقت نفسه، تمكنت الجزيرة وعدد من القنوات العالمية الأخرى من تجاوز بعـــض العـــراقيل السياسية والفنية واتسع جمهور مشاهديها من خلال توفير مادتها التلفزيونية عبر الانترنت. فشركات مثل جامب تي في (JumpTV) التي تنطلق من الـــولايات المتحدة، توفر لمشتركيها مشاهدة قنوات بمفردها أو في شكل باقات من مختلف أنحاء العالم. ومع بداية 2008 أصبحت (جامب تي في) توزّع أكثر من 300 قـــناة من ثمانين بلدا، بما في ذلك ثلاث وسبعون قناة عربية (من بينها الجزيرة)، إلى جانب قناة إسرائيلية متخصصة في كرة القدم تبث على مدار الساعة، وقناة الجزيرة الإنجليـــزية. ويتراوح محتوى الباقة العربية من برامج على شاكلة "أمريكان أيدول" إلى بـــرامج مـــثل غـــيفل – تو – غيفل التي تنقل يوميات محاكمة صدام حسين. وباســـتهداف المهاجرين أولا، تمكّنت – جمب تي في– من تأمين اشتراكات خمسة وثلاثـــين ألفا لمتابعة قنواتها الدولية مع أواخر 2007 آملة أن يتضاعف ذلك الرقم أضـــعافا مـــضاعفة بالاستفادة من تزايد أعداد مستخدمي الانترنت عالي السرعة وتنامي الحاجة الملحة للتعرف على مختلف وجهات النظر حول ما يحدث في العالم. وبمـــا أن هناك اتجاها متصاعدا لاستخدام الانترنت قاعدة للمحتوى الإخباري على حـــساب التلفـــزيون التقلـــيدي، فإن مزودي الخدمة أمثال جمب تي في مرشحون بالفعل لأن يتحولوا إلى صيغة جديدة بديلة لشبكات التلفزيون التقليدية.[57]

لنك تي في (Link TV)، مزود خدمة آخر ينطلق من الولايات المتحدة، ويقدم منتجاته عبر الانترنت والأقمار الاصطناعية. لنك منظمة غير ربحية توفر طيفا واسعا مـــن الأخبار والوثائقيات والبرامج الترفيهية مثل قبيلة الأكورديون، ومدرسة تعليم الـــسياقة الأفغانية للنساء، والحرب، وهو فيديو صور متحركة مكسيكي مناهض للحـــرب. وأشـــهر برامجها "موزاييك" الذي يقدم ترجمة إنجليزية لبرامجَ إخبارية مأخوذة عن قنوات ناطقة بالعربية.

ومـــن الأمـــثلة الأخـــرى على اتّساع دائرة المحتوى المتاح بريدجز تي في (Bridges TV)، التي تنطلق هي الأخرى من الولايات المتحدة وتعرّف نفسها بكونها "شـــبكة ثقافية تُعنَى بأسلوب الحياة وتقدم برامجَ صديقة للعائلة" باللغة الإنجليزية للمـــسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة. بريدجز تي في متاحة على الأقمار الاصـــطناعية وعلى الانترنت وقد أنشئت لخدمة أطفال المسلمين المهاجرين الذين ولدوا في أمريكا وذلك بتقديم برامجَ تركّز على "أسلوب حياة المسلمين في أمريكا الـــشمالية." ويقول موقع بريدجز على الانترنت "إنّ برامج القنوات الأجنبية تعنَى بنمط الحياة في بلدانها الأصلية، وليس في أمريكا الشمالية." وعن جمهورها الرئيس، تقـــول القـــناة "إنه السوق الذي لا يتلقى الخدمة ويتكون من ثمانية مليون مسلم أمريكي." وهي مجموعة تنمو بسرعة ومستوى تعليمها وثرائها يفوق المتوسط العام للأمريكيين.[58] (هناك تقديرات أخرى تقول إن عدد المسلمين الأمريكيين يقارب الثلاثة ملايين).

ومواكبة لهذا التوسع المتزايد في برامج التلفزيون/الانترنت، تتواصل النقاشات بـــين بعـــض المسؤولين الحكوميين في الشرق الأوسط، والإعلاميين والمستثمرين بخصوص الحاجة للانخراط أكثر في الإعلام الغربـــي. وفي كلمته في اجتماع انعقد في عـــام 2006 وضمّ وزراء الإعلام، ذكر أكمل الدين إحسان أوغلو، الأمين العام لمـــنظمة المؤتمر الإسلامي، الإسلاموفوبيا بشكل عام وما يدّعيه بعض الناس من أن الإســـلام والإرهاب شيء واحد. وجاء في حديثه "أن على المستثمرين المسلمين أن يـــستثمروا في المؤســـسات الإعلامية الكبرى في العالم، التي تجني في الغالب أرباحا طائلـــة، وذلـــك مـــن أجل اكتساب القدرة على التأثير في سياساتها عبر مجالس إداراتها." وأضاف "وهذا سيكون مفيدا لنا من حيث تصحيح صورة الإسلام على الصعيد العالمي." ومن مقترحاته أيضا إطلاق مزيد النسخ الإنجليزية لوسائل الإعلام العـــربية والارتقـــاء بمـــصداقية الإعلام في البلدان الإسلامية حتى لا يستمر النظر للمؤسسات الإخبارية على أنها أبواق دعاية للحكومات.[59]

جزء من المسار الذي حدّدته هذه الوصفة انطلق منذ تسعينات القرن الماضي، حـــين استثمرت شركة المملكة القابضة بقوة في مؤسسات إعلامية غربية. فالمملكة القابـــضة تملـــك أصولا كبيرة في مؤسسة الأخبار، وهي الشركة الإعلامية الدولية

التابعة لريوبرت ميردوخ (Rupert Murdoch)، كما تملك أيضا استثمارات كبيرة في تـــايم وارنـــر وديزناي.[60] أما عن حجم النفوذ الذي يتمتع به الأمير الوليد بن طلال فذلك قابل للنقاش، رغم أن بعض النقاد الإعلاميين يعزون نفوذه إلى مسائلَ مـــثل التحذير بشأن المشاعر المناهضة للمسلمين الذي بثّ مع سلسلة 24 الدرامية على شبكة فوكس (وهي جزء من مؤسسة الأخبار)، والتي اشتملت بعض حلقاتها علـــى مسلمين إرهابيين. أما من ناحية التغطية الإخبارية لمؤسسة الأخبار – سواء علـــى صعيد البث التلفزيوني أو الصحافة المطبوعة فلا يبدو أن لاستثمارات الأمير الوليد أيَّ أثر يذكر.

وما يدعو للشك أكثر هو قدرة المؤسسات الإعلامية التابعة للبلدان الإسلامية علـــى اكتساب مصداقية أكبر – وبالتالي نفوذ أوسع – على مستوى العالم. ففي ســـياق منافـــستها لمصادر الأخبار الأجنبية، مثل القنوات الفضائية الغربية، يمكن لمـــزوّدي الأخبار المحلّيين والإقليميين أن يحظوا بثقة أكبر لكونهم "جزء منا". ومع ذلـــك يظـــل الجمهـــور متشككا لأن المؤسسات الإخبارية في الكثير من البلدان الإسلامية تعمل بتوجيه من الحكومات فتأتي منتجاتها انعكاسا لذلك التوجيه.

وهـــذه المواصـــفات لا تنطـــبق على الجميع، إذ أنّ بعض وسائل الإعلام – وخاصة المطبوعة – تحقق نجاحا رغم الضغوط السياسية والدينية. ولكن في المحصلة، هناك حدود، فانتقاد السياسيين أو رجال الدين يمكن أن يقود إلى عقوبات شديدة أو إلى تأنـــيب خفيف. وفي نظام كهذا، ورغم اتجاه الجمهور للاعتماد أكثر على مصادر الأخبار المحلية، تظل المصداقية مسألة يصعب التحقق منها. ومع ذلك، فإن التـــنوع الكـــبير في مـــزوّدي الخدمات الإخبارية من شأنه أن يغيّر من الديناميات السياسية على المستوى العالمي؛ وهو أمر بدأ صناع السياسة يعترفون به تدريجيا.

***

تـــستمر قـــنوات التلفزيون الفضائية في الانتشار ويستمر تأثيرها في السياسة والمجـــتمع في الـــتعاظم بـــشكل عام. وعلى غرار الأقمار الاصطناعية، تلف هذه القـــنوات عبر الفضاء، ويحظى تأثير الجزيرة أيضا بدفع إضافي عبر استخدام أدوات الفضاء الالكتروني.

- 3 -

تدفق الانترنت

رغـــم السرعة الهائلة التي انتشرت بها قنوات التلفزيون الفضائية، فإن ذلك لا يمثل شيئا مقارنة بوتيرة نمو الإعلام الذي يعتمد على شبكة الانترنت. ومع ذلك لم يكن هذا النمو متوازيا، حيث وصل قسم من العالم إلى مرحلة جنْي الثمار بينما لا يـــزال قـــسم آخر متخلفا. وهذا ما يسمى "الانقسام الرقمي"، الذي يمكن تعريفه بالحالـــة الـــتي يعجز فيها بعض الناس – عادة لأسباب اقتصادية واجتماعية – عن الوصول إلى المعلومات واستخدام تقنيات الاتصال (ICT) بوتيرة كافية أو سهلة أو يعجزون عن ذلك تماما.[1]

وقد جرت دراسة هذا التفاوت منذ سنوات عديدة وخاصة من حيث تأثيرها في الـــتقدم الاقتصادي. ففي سنة 1984 ذكرت هيئة تنمية الاتصالات الدولية أن تخلف البنية الأساسية للاتصالات الهاتفية في البلدان النامية على أنها عائق أمام النموّ الاقتصادي. ورَغم أنّ التركيز تحوّل من الهاتف إلى مسائلَ تتعلق بالحاسوب، ظلت الاخـــتلافات بـــين الأمم المتقدمة والأقل تقدما مذهلة. وفي سنة 2002 ذكر اتحاد الاتـــصالات أن "مواطني لكسمبورغ الذين يبلغ عددهم 400,000 يتقاسمون فيما بيـــنهم نـــسبة من نطاق التردد العالمي تفوق ذلك المتاح لسكان أفريقا الـــ 760 ملـــيونا."[2] وهذه الإحصاءات يمكن ترديدها مرارا، خاصة في السنوات الأولى من القـــرن الجديد. أما الآن فإن الشقة بدأت تضيق ولكن، وحتى أثناء حدوث ذلك تبقى قيمة مظاهر التنمية المرتبطة بالمعلومات وتقنيات الاتصال موضع نقاش.

ومع ذلك تبقى حظوظ التغيير السياسي المرتبط بأنشطة الانترنت هائلة. فعلى الجانـــب الإيجابـــي، يمكن لتأثير الجزيرة أن يساعد الحكومات لتصبح شفّافة أكثر وأقدر على التجاوب. وحتى المسائل العادية مثل سداد سعر تذكرة موقف السيارة،

يمكـــن جعلها أقل إزعاجا حين تتوفر الخدمة إلكترونيا. وعلى نطاق أوسع، يمكن للانتـــرنت وبقية الآليات الاتصالية أن تكون أدواتٍ رائعة في التحول الديمقراطي، وذلك بإضافة أبعاد جديدة لحرية التعبير والعمل السياسي. ومن ناحية أخرى، هناك جـــوانب ســـلبية. فالانتـــرنت بإمكانها أن تنقل المعلومات – بصرف النظر عن صـــحتها – بـــسرعة فائقـــة تجعل المسافة بين إمكانية النقاش وتحريك المظاهرات الاحتجاجية ضيقة إلى حد بعيد. كما أن الانترنت ثبت أنها أداة لا تقدر بثمن لدى المنظمات الإرهابية.

تحديد الأولويات

في تقريـــره بمناســـبة الألفية الثالثة، لاحظ الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان (Kofi Annan)، أن "التكنولوجيا الجديدة توفّر فرصة غير مسبوقة للبلدان الناميـــة تمكّنها من "القفز" على المراحل الأولى للتنمية. ينبغي بذل الجهد من أجل الارتقـــاء بدرجـــة وصول شعوب تلك البلدان إلى شبكات المعلومات الجديدة إلى الحد الأقصى." أمّا رئيس مايكروسوفت، بل غيتس (Bill Gates) فيَرى أن في التركيز المفـــرط علـــى المعلومات وتقنيات الاتصال صرفا للأنظار عن قضايا مُلحّة أكثر. وتساءل غيتس قائلا "هل يدرك الناس ماذا يعني أن يعيش إنسان على دولار واحد في الـــيوم؟ إن 99% مـــن فـــوائد امتلاك جهاز حاسوب شخصي تأتي بعد توفير مـــستوى معقول من التعليم والرعاية الصحية للشخص الذي سيجلس إلى الطاولة ويـــستخدمه." وقـــد ســـخّرت مؤسسة بل وميلندا غيتس أغلب مواردها لتطوير مستوى الرعاية الصحية والتعليم وليس لِمنح مرتبطة بالمعلومات وتقنيات الاتصال.[3]

إن الـــذين يعـــتقدون في إعطاء الأولوية لمكافحة الملاريا والإيدز والأمراض الأخرى، ويفضّلون تطوير الخدمات الصحية الأساسية قبل توسيع فرص استخدام الانترنت، يمتلكون حجة قوية. ومع ذلك فلا ينبغي أن يكون الطريقان متعارضين، والمـــشاكل الـــتي أثارهـــا غيتس وآخرون يمكن تذليلها نوعا ما بفضل استخدام المعلـــومات وتقنـــيات الاتصال. في الهند تستخدم "مراكز المعرفة" غير الربحية التي أقـــيمت في بعض القرى، الطاقة الشمسية والتكنولوجيا اللاسلكية لتقدم للمواطنين معلـــومات عـــن برامج الرعاية الحكومية، والاستشارات الصحية، وأسعار أسهم

الـــشركات في الـــسوق المالية، إلى جانب مواد أخرى مفيدة. وبإمكان الطلبة في المدارس المحلية أن يطوّروا قدراتهم في استخدام الحاسوب ويبحثوا عن وظائفَ عن طـــريق الانترنت. من جهة أخرى، تنمّي مراكز المعرفة لدى سكان القرى الصغيرة الـــشعور بالارتباط بمجتمعهم الواسع.[4] غير أن هذه الجهود لم تتمكن من القضاء علـــى الانقـــسام الرقمي بأي معنى من المعاني. فحتى داخل القرى التي توجد فيها مراكـــز المعـــرفة، يبقـــى الوصول إلى الانترنت مقصورا نسبيا على ذوي الدخل الأفـــضل، بينما يظل أولئك الأكثر فقرا غير مشمولين بها. كما أن بعض الأنشطة الـــتي تعتمد على الانترنت تبقى محدودة الفائدة: فالمسح الفضائي لحركة التيارات الكـــبرى للأسماك أنشئ بالأساس لفائدة صيادي السمك في القرى الهندية، إلا أن الـــصيادين الأكثر ثراء هم وحدهم من يملكون أجهزة الملاحة والقوارب الكبيرة بما يجعلـــهم أقدر على الاستفادة من المعلومات. إلى جانب ذلك، أغلب المواد المتاحة على الانترنت تقدَّم باللغة الإنجليزية، ولو أن ذلك قد بدأ يتغير بالتدريج.[5]

فالانتـــرنت ينبغي النظر إليها إذن باعتبارها عاملا من عوامل التقدم التدريجي ولـــيس باعتبارها الترياق الذي سيعيد بناء النظام الاجتماعي والاقتصادي بشكل فوري. ولا يمكن أن ننكر، مع ذلك، أن التغييرات جارية، حتى وإن كانت آثارها علـــى المـــدى البعيد غير مؤكّدة. ففي مقدونيا، دخلت الخدمة شبكة "واي فاي" (Wi-Fi) وهـــي تغطـــي مـــساحة ألف ميل^2 وتشمل ثلاثين مدينة. وفي إربد في الأردن، شـــارع طـــوله نحو نصف ميل، فيه أكبر تجمع في العالم لمقاهي الانترنت، كـــان ذلـــك عام 2002. ويمكن لـــ "واي ماكس" (Wimax) الذي أعقب واي فاي، أن يوفر خدمة الانترنت فائقة السرعة إلى المناطق الريفية التي كانت تعتبر في السابق خارج نطاق تغطية الانترنت.[6]

وبالتوازي مع حدوث هذه التغييرات، يستمر تطور التكنولوجيا. وأحد نماذج هذا التطور العملي والرمزي في الوقت نفسه، هو أن يتوفر "حاسوب محمول لكل طفـــل"، وهـــو مشروع وُلد في معهد مساشوستس للتكنولوجيا ويهدف إلى صنع حاســـوب محمول منخفض التكلفة، بحيث يمكن أن يتم توزيع ملايين منه على أطفال المدارس. وقد وصف في البداية بـــ "حاسوب الـــ 100$"، غير أن التكلفة الحقيقية يمكـــن أن تكـــون في حدود 150$، ومع ذلك تمثل هذه الخطوة إنجازا ملحوظا.

وحسب المقترح الأولي، سيستخدم الجهاز الجديد نظام تشغيل لاينوكس (Linux) ويتضمّن شاشة عرض ثنائية الاستخدام – واحدة على طريقة دي في دي (DVD) كاملة الألوان، والثانية بالأبيض والأسود مع قابلية القراءة حتى تحت ضوء الشمس الساطع. وسيشتغل الحاسوب المحمول بسرعة 500MHz وفيه ذاكرة الوصول العشوائي الديناميكية (DRAM) سعتها تقدَّر بـ 128MB، مع ذاكرة فلاش بسعة 500MB، ولن يكون فيه قرص صلب، وإنما ستكون له أربعة منافذ يو أس بي (USB). وستسمح هذه الأجهزة المحمولة بالارتباط اللاسكي بالانترنت، وهو ما سيجعل منها، إلى جانب أشياء أخرى، بمثابة شبكات ترتبط ببعضها البعض عبر التواصل مع الأجهزة القريبة منها بما يخلق من تواصلها شبكات محلية خاصة. وحسب معهد مساشوستس للتكنولوجيا، سيكون بإمكان هذه الحواسيب أن تؤدي أغلب الوظائف ما عدا تخزين كميات كبيرة من المعلومات، وستشتغل ببطاريات يمكن شحنها بسرعة فائقة. ومع توسع حركة الارتباط بالانترنت، تعِد هذه الأجهزة بأن تربط مستخدميها بالعالم الأوسع. وكما جاء على لسان سيمور بيبرت (Seymour Papert) من معهد مساشوستس، "ليست هناك طريقة أخرى مقترحة لتمكين الناس من إحداث تغيير جذري في طريقة وصولهم إلى المعرفة إلا باستخدام الإعلام الرقمي."[7]

بدأ إنتاج هذه الأجهزة بكميات كبيرة في أواخر عام 2007. وتضاعف الطلب عليها نظرا للتزايد الهائل في عدد التلاميذ الذين يذهبون إلى المدارس في البلدان النامية. فقد شهدت أفريقيا جنوب الصحراء وحدها تسجيل 22 مليون تلميذ إضافي بين عامي 1999 و2004 أي بزيادة 18% في نسبة المسجلين. وقد فاق هذا التسارع بكثير مقدرات تلك البلدان وهو ما نتج عنه ندرة في الكتب المدرسية وبقية اللوازم.[8] هذه المنطقة يمكن أن تكون أرضا خصبة لتطبيق مبدأ حاسوب محمول لكل طفل، وذلك لأن المشروع بإمكانه أن يعطي كل تلميذ شيئا يستخدمه في الفصل ثم يأخذه معه إلى البيت.

الاستجابة لهذا المشروع كانت متباينة. فقد وقّعت ليبيا في العام 2006 اتفاقا لاقتناء 1,2 مليون حاسوب، ما يعني جهازا محمولا لكل طفل في سن الدراسة في البلاد. أما المدارس في نيجيريا فتملك الأجهزة، بينما انضمت الأورغواي ورواندا

إلى بقـــية البلدان المشاركة في هذا المشروع. من جهتها تبنت البرازيل الفكرة ليس بغـــرض مـــساعدة أطفالها فحسب، وإنما لاغتنام فرصة تصنيع عدد من الأجهزة وتعزيـــز تطلعاتهـــا في التحول إلى أحد كبار مصنعي الإلكترونيات. وهناك بلدان أخـــرى، مثل الشيلي والهند، رفضت المشاركة – على الأقل في المرحلة الأولى – وذكرت أن لديها نفقات كبيرة من شأنها أن تعوق تمويل مشاريع إضافية.[9] ومن بـــين الأسباب الأخرى التي دعت إلى الاعتراض على مشروع الحاسوب المحمول، وعلى حركة انتشار أجهزة الحاسوب بشكل عام، الخشية مما يعد به المدافعون عن هـــذا المـــشروع تحديدا: تقريب العالم الخارجي من مستخدمي أجهزة الحاسوب المحمـــول. فقد أعربت بعض الحكومات في منطقة الشرق الأوسط عن خشيتها من أن يـــؤدي اســـتخدام الانترنت إلى انتشار الأفكار السياسية وأنماط الثقافة الغربية. فالقـــيادات السياسية والدينية تبدو بالتالي متحفّظة إزاء تمكين هذا العدد الكبير من صغار السن من الوصول إلى معلومات "غير مقبولة."[10]

وهناك خشية أخرى في بعض الأوساط من الإقدام على استثمار كبير في هذا النوع من الحواسيب المحمولة، وهي أن هذه الأجهزة سيقع تجاوزها قريبا باعتبارها أداة شخـــصية للحـــصول علـــى المعلـــومات. ويبدو أن خليفتها سيكون الهاتف الخلـــيوي – ولـــيس الهاتف المحمول الذي يستخدم للمكالمات فقط، وإنما الهاتف الـــذي يتمـــتع بمواصـــفات الحاسوب الشخصي وقدراته. وباعتباره غير مكلف، محمولا، وواسع الانتشار، فإن الهاتف الخليوي بإمكانه تقليص الهوة الرقمية بشكل كـــبير عبْر توفير الارتباط بالانترنت على نطاق واسع. وقد تطور استخدام الهاتف الخليوي بسرعة فائقة وعلى نطاق واسع. ففي روسيا على سبيل المثال، كان عدد مـــستخدمي هذه الأجهزة سنة 2000 مليون مستخدم، ومع نهاية 2005 بلغ العدد 120 ملـــيونا، مع زيادة بمعدل ثلاثة ملايين شخص يشتركون كل شهر. أما على الـــصعيد العالمـــي، وحسب إحصاءات الاتحاد الدولي للاتصالات، فقد تجاوز عدد مـــشتركي الهواتف الخليوية عتبة الثلاثة مليار شخص سنة 2007 (وهو تقريبا ثلاثة أضعاف عدد مستخدمي الانترنت).[11]

في بنغلاديش يرتبط القرويون بشبكة الانترنت أوّلا وأساسا عن طريق الهاتف الخليوي. فرغم أن عدد السكان يبلغ 150 مليون نسمة، لا يوجد في بنغلاديش إلا

مليون خط هاتف أرضي، بينما بلغ عدد مشتركي الهاتف الخليوي في أواخر العام 2006، ستة عشر مليون مشترك، مع زيادة مليوني مستخدم شهريا. فوتيرة النمو هناك مدهشة للغاية، إذ كان عدد مستخدمي الانترنت في شهر يناير/كانون الثاني 2006 في حدود 370 ألف بنغالي، وأصبح مع نهاية العام يعد بالملايين ولا تزال الأرقام في تصاعد.[12]

ولا يزال نطاق الخدمات التي يمكن للهواتف الخليوية أن تؤدّيها يتّسع باستمرار، من ذلك تطوير سبل الوصول إلى الانترنت وتوفير إمكانية مشاهدة الفيديو بجودة التلفزيون نفسها. وهذا من شأنه أن يؤثّر في الكيفية التي يتلقى بها الناس المعلومات: فهم يستطيعون الآن تلقّيها بسرعة أثناء تنقّلهم. وهذا بدوره من شأنه أن يؤثّر في طريقة تفاعلهم معها. فالمناخ الشّعوري الذي يصاحب مشاهدة الأخبار في البيت على جهاز تلفزيون أو شاشة حاسوب يختلف عن سماع الأخبار بهاتف محمول وسط جمع كبير من الغرباء على متن حافلة أو في زاوية من زوايا الشارع. وإذا صادف أن هنالك آخرين في نفس الظروف يتلقون الخبر نفسه فيمكن أن تحدث سلسلة من الاستجابات بين أولئك المتلقين. وعلى مزودي الأخبار أن يدركوا ذلك وأن يأخذوه بعين الاعتبار عند نقل تقاريرَ إخبارية يمكن أن يكون لها مفعول تحريضي.

خلال حرب العراق، أثر اتّساع عدد مزوّدي الأخبار واختلاف مقارباتهم في تغطية الأحداث على تقلب الأخبار. وفي سنة 2004 رفعت التقارير الإعلامية العربية حول مزاعم ارتكاب الجنود الأمريكيين تجاوزات بحق المعتقلين مستوى الخطاب من درجة الحذر إلى درجة التحريض. وفي تغطيتها لقضية "أبو غريب" امتنعت صحيفة "عرب نيوز" (Arab News) السعودية الناطقة بالإنجليزية عن نشر بعض الصور الأكثر إثارة للاشمئزاز. وفي تعليق لمحرر الصحيفة خالد المعيني، قال "إنها مقززة، ولا أريد أن ألهب العواطف أكثر. لا أريد أن أرى الشعب الأمريكي بأكلمه يدان بسبب ما ارتكبته حفنة من الأشخاص، تماما كما لا أريد تطبيق مبدإ الإدانة الجماعية على كافة السعوديين لأن 16 من أصل 19 من المختطفين [في هجمات 11/9] من أصل سعودي." ومن جهة أخرى نشرت صحيفة "الوفد" المصرية صورا قيل إنها لجنود أمريكيين ينتهكون حرمات نساء عراقيات. وقد

انتشرت الصور على نطاق واسع على شبكة الانترنت، لكن السفارة الأمريكية في القاهرة قالت إنها مفبركة ومأخوذة من مواقع إباحية.[13]

وفي سنة 2005، أدت تغطية فضائح أخرى مرتبطة بانتهاكات مماثلة إلى وفاة مـــا لا يقـــل عن خمسة عشر شخصا وجرح أكثر من مائة آخرين في مظاهرات تـــسببت فيها تقارير إخبارية. وقد نشرت مجلة "نيوزويك" (Newsweek) تقريرا استند إلى تصريح غير مؤكد لمصدر وحيد لم يذكر اسمه، قال إن محققين أمريكيين في معـــتقل غوانتـــنامو رمـــوْا نسخة من القرآن في الحمام إمعانا في إهانة المعتقلين المـــسلمين. وبعـــد أيـــام قليلة، وفي مؤتمر صحفي في إسلام آباد، ظهر السياسي الباكستاني (ونجم الكريكت السابق)، عمران خان وفي يده نسخة من المجلة متهما الـــولايات المـــتحدة بـــــ "تدنيس الكتاب الذي تقوم عليه عقيدتنا كلها." نقلت الإذاعـــة كلمـــة خـــان، ومعها مداخلات لرجال دين مسلمين غاضبين، وبثّت الهواتـــف الخلـــيوية ورسائل الإيميل ذلك على نطاق أوسع. ومن جهتها، نشرت الـــصحف المحلية الخبر وبدأت التحركات الاحتجاجية تعم أرجاء العالم الإسلامي. أما نيوزويك فقد تراجعت عن موقفها وذكرت أن هناك مشاكل بخصوص مصدر الخبر.[14]

هذه الزوبعة القاتلة هي نتيجة لصحافة رديئة زاد من سوئها سرعة الانتشار. فقـــد ورد في الخـــبر الأصـــلي أن "مصادر قالت للنيوزويك"، في حين كان هناك مـــصدر واحد وليس عدة مصادر. كما أورد الخبر أيضا أن الجزء الخاص بتدنيس القرآن "من المتوقع" أن يتضمنه تقرير للبنتاغون. وكما أشار محرر الواشنطن بوست (Washington Post) مايكل غتلر (Michael Getler)، فإن ذلك بمثابة قولك إنه "من المتوقع" أن يتم اتهام فلان، وببساطة ليس من شأن الصحفيين قول ذلك."[15] وحـــين يـــصدر خبر كهذا، فإنه سرعان ما ينتشر في كل أنحاء العالم، وستكون له تداعيات مختلفة بحسب الجمهور الذي يصل إليه.

مـــا دفـــع بالمـــسألة خارج كل الحدود الصحفية هو رد الفعل العنيف على التقريـــر. فقد مات أناس جراء ذلك. وقد أثبتت الأدلة لاحقا أن خبر النيوزويك كان صحيحا، وكما لاحظ هندريك هرتزبورغ (Hendrik Hertzberg)، القضية الحقيقـــية هـــي التعذيب والانتهاكات وليست الممارسة الصحفية.[16] ومع ذلك،

فعندما تنتقل المعلومات بعيدا جدا وبسرعة فائقة، ينبغي على المؤسسات الإخبارية أن تشعر بالحاجة إلى الارتقاء بمعاييرها وتتوقع ردود الفعل الممكنة على منتجاتها.

ومع اتساع دائرة لإعلام الإخباري، تصبح مسألة الكفاءة الصحفية والنزاهة أكثر أهمية. وسيصبح الناس محاصرين بمعلومات من مصادر لا حصر لها. ورغم أن أغلب مستهلكي الأخبار سيكون لهم عدد قليل من المزودين المفضلين، إلا أنهم سيكونون أيضا في مرمى ناشري الأخبار من مصادرَ غير مؤكدة. ستنتشر الإشاعات والأخطاء وعلى الجميع واجب التعامل معها. وكما ينبغي على المؤسسات الإخبارية أن تؤدي عملها بمستوى عال، فإن على الجمهور أيضا أن يتحلى بمسؤولية أكبر ويكون على قدر من المعرفة تؤهله لتصفية المعلومات وتمييز الأصلح منها.

وهذا جزء من التحول في مشهد الإعلام الإخباري الذي طرأ عليه تغيير هائل يفوق كل التغييرات التي شهدها في الماضي. فقد كانت الصحف قادرة على استيعاب الآثار التي خلفها ظهور الإذاعة والتلفزيون، ولكنها تخضع الآن لاختبارات جديدة أمام أحدث أنماط الإعلام. وهذا لا يتعلق بمسائل تكنولوجية بحتة، إذ أن الجمهور لم يهجر الإعلام القديم لأنه أصبح مفتونا بنواقيس الآلات الجديدة وصفاراتها، بل لأن العلاقة بين مزود الخدمة الإخبارية ومستهلك الأخبار قد تغيرت.

الشراكة الجديدة

في عام 2005 صرح ريوبرت ميردوخ قائلا، "أعتقد أن عددا كبيرا منا نحن المحررين والمراسلين انقطعت صلته بالقراء." وأضاف أن على مؤسسته الإخبارية أن تصبح أكثر ذكاء في استخدام الانترنت وأن تحوّل منتجاتها إلى "مساحات للتحاور" يستطيع الجمهور من خلالها "الدخول مع مراسلينا ومحرّرينا في نقاشات مطولة." وذكر ميردوخ الفرق بين "المهاجرين الرقميين" – الأشخاص الأكبر سنا الذين يوازنون بين الإعلام القديم والجديد – و"الرقميين الأصليين" الذين يعتمدون على البوابات الالكترونية مثل ياهو (Yahoo) وغوغل (Google) ويتلقون معلوماتهم بانتظام من المدونات. هذا الجيل الأصغر من الجمهور يعتبر أنّ الحصول على

المعلـــومات مسار من المشاركة، كما يبدو جليا في شبكات الويكي (Wikis) التي تسمح للقراء بتحرير المحتوى والمشاركة في إنتاجه.[17]

وعـــندما يـــندلع حدث كبير مثل غزو العراق في 2003، تدخل إلى الساحة أنمـــاط معينة من الاستخدام الإعلامي، كما ورد في النتائج التي توصل إليها مركز الإعلام الاجتماعي التابع للجامعة الأمريكية:[18]

- هناك تفاعل بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد غير الرسمي: مثال على ذلك إيراد مدوّنين لمقاطع من سي أن أن، ومتابعة نيويورك تايمز (New York Times) للمدونات.
- رغـــم هـــذا التفاعل، لا يزال محتوى الكثير من الإعلام العشوائي/غير الرسمي يعكس غياب الثقة في الإعلام الإخباري الرسمي.
- يعـــتمد الإعـــلام غير الرسمي على مستخدمين يثقون في الأصوات الفردية – الإيميل الذي يتلقونه أكثر من نشرات الأخبار التلفزيونية.

تتـــصرف أغلبـــية صـــحافة التـــيار الأساسي بأسلوب أبوي في تعاملها مع الجمهـــور. فالمؤســـسات الإخبارية تضع أجندة المحتوى وتحدد مواقيت البث، أما المـــدونات وأشـــكال الصحافة التشاركية الأخرى فقد تحدّت ذلك وغيّرته، ومن خـــلال قيامها بذلك انخرطت في منافسة حادة بشأن ضمان ولاء الجيل القادم من مستهلكي الأخبار.

وتجـــسد التجـــربة الروسية مع التدوين كيف يمكن للمدونات أن تتحول إلى مهرب للصحافة المستقلة التي لا يمكن ممارستها ضمن إعلام روسيا التقليدي. فمع اســـتمرار الـــرقابة الـــشديدة التي تمارسها الحكومة الروسية على حرية الصحافة التقليدية، يسمح الفضاء الالكتروني لمستخدميه من المواطنين الروس بإخفاء هوياتهم والوصـــول إلى مخـــتلف أنحاء العالم. وعلى طريقة المواطنين السوفيات الذين كانوا يعتمدون على ساميزدات (samizdat) – التوزيع السري للمطبوعات ذات المحتوى المـــناهض للحكـــومة – أصـــبح المدونون يناقشون سياسات الحكومة وفي بعض الأحيان يعلنون عن التحركات الاحتجاجية.[19]

وقـــد كتب غاري كاسباروف (Garry Kasparov)، بطل العالم الأسبق في الشطرنج والذي أصبح من أشد منتقدي حكومة بوتين، "سرعان ما تحولت الشبكة

العنكبوتية إلى ملجإ أخيرللمعارضة في بلادي." وكاسباروف هو أحد مؤسسي "روسيا الأخرى"، التحالف المعارض الذي يعتمد على الانترنت في نشر أشرطة فيديو تحتوي على مشاهد مصورة من المظاهرات التي ينظمها – بما في ذلك صور قوات الأمن وهي تهاجم المتظاهرين – وفضح ما يسميه "ازدراء نظام بوتين لحقّ المواطنين وللقانون." وتستخدم قوى المعارضة المدونات أيضا، وقد أَشار كاسباروف إلى أن عدد قراء مدونة "مجلة روسيا الحية" ذات الشعبية الواسعة يصل إلى 2.2 مليون أسبوعيا، ويقطن مليون منهم خارج روسيا. ويساهم هذا العدد الهام من الجمهور الخارجي في نشر رسالة المعارضة الروسية عبر وسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم.[20]

وإلى جانب التدوين في شكله البسيط، برزت "أوهماي نيوز" التي تنطلق من كوريا الجنوبية باعتبارها أحد أهم نماذج صحافة المواطن. لقد نقلت "أوهماي نيوز" التدوين إلى مستوى أقرب ما يكون من الصحافة التقليدية إذ أصبح لها "مراسلون" (60,000 مع أواخر 2007) ومحررون يفرضون معايير لضبط الجودة تجعل من الإنتاج المعروض أكثر مصداقية. ولكنها لاتزال مبادرة شعبية. فقد جاء في تعليق لجون ك. مين (Jean K. Min)، مسؤول الاتصالات وعلاقات العمل الدولية في أوهماي نيوز "على عكس ما كان يظن، ليست الانترنت وسيلة أخرى لنقل الأخبار فقط، بل هي فضاء يمكن للجميع أن يستخدمه. وذلك يعني أن الصحافة ستكف عن كونها محاضرة يلقيها عدد قليل من الأشخاص "الخاصين"، وستتحول إلى عملية حوارية."[21]

"أوهماي نيوز" نموذج لبقية الخدمات الإخبارية، مثل "آي طاك نيوز" (iTalkNews) التي تنطلق من الولايات المتحدة. فقد قالت إليزابيت لي (Elizabeth Lee)، إحدى مؤسسات "آي طالك نيوز" إن هذه المبادرات الالكترونية بصدد تغيير طبيعة الأخبار لأنها "تقليديا كانت تنزل من فوق إلى تحت. نريد أن نرى أخبارا تنبع من الناس، وتتجه صعودا. لا أعتقد أن صحافة المواطن بمثابة البديل عن الأخبار التقليدية، بل سيكون لدينا تيار تبادلي." وكان موقع "آي طالك نيوز" على الانترنت قد أعلن أن المشروع نشأ استجابة "للحاجة إلى جماعة تفاعلية حيث يمكن للناس أن يقرؤوا الأخبار العاجلة، ويناقشوها، ثم يرسلون مقالاتهم

الخاصـــة." ويشير الموقع إلى أن "الفرق بين التدوين وصحافة المواطن هو أن النوع الـــثاني يحـــاول أن يحـــافظ على مبدإ المحاسبة ودقة الوقائع التي كانت حاضرة في الصحافة الأم ولكنها ليست دائما متوفرة في المدونات."[22]

غلوبل فويسز (Global Voices) خدمة إخبارية أخرى تعتمد على الانترنت وتـــتجاوز التدوين العادي. وقد علق إيثان زوكرمان (Ethan Zuckerman) أحد مؤســـسيها قائلا إن غلوبل فويسز هي "شبكة من المدونين، والناشطين، والمواطنين الإعلامـــيين" يردون على "عقلية القطيع" التي تقود أغلب المؤسسات الإخبارية التي تغطي أسخن أحداث اللحظة على حساب قضايا أخرى هامة. وأضاف زوكرمان "ينبغي الانتباه إلى أننا لسنا موقعا إخباريا. نحن موقع إعلامي للمواطنين. وكثير مما نـــنقله هـــو ملاحظات وآراء." يوفر الموقع منتدى لـــ "مدونين جسور" لينقلوا ما يحـــدث في بلدانهم أو في مناطقهم إلى جمهور عالمي. والمحررون-المدنون المسؤولون عـــن الموقـــع ينتقون روابط أهمّ المدونات ويوفّرونها من مناطق مختلفة من العالم. وتستخدم "غلوبل فويسز" عددا من التكنولوجيات، من بينها المدونات، والويكيز، والبودكاســـت، والمحادثة الالكترونية للفت الانتباه إلى أخبار قد لا تكون انتبهت إلـــيها المؤســـسات الإعلامـــية التقليدية. ثم تعرض منتجاتها على تلك المؤسسات الإخبارية باعتبارها مواد يمكن اعتمادها أفكارا لقصص إخبارية.

تـــشبه فلـــسفة "غلـــوبل فويسز" تلك التي تقود بعض القنوات التلفزيونية الإخـــبارية الناشئة ومواقع الانترنت الإخبارية: "لأن أصوات الأمريكيين الشماليين والأوروبـــيين الغـــربيين ووجهـــات نظرهم تهيمن على الإعلام الإخباري وعلى الانتـــرنت معـــا، فـــإن "غلوبل فويسز" تركّز على بقية العالم. هدفنا هو إدخال الأصوات التي لم تكن في السابق مسموعة إلى التيار الأساسي في الإعلام."[23]

في بعـــض الأحيان يمكن لتلك الأصوات التي لم تكن في السابق مسموعة أن تبرز وتكتسب صدى بفجئية مذهلة. ففي اللحظات التي أعقبت تفجيرات لندن في 7 يولـــيو/تمـــوز 2005، بدأت البـــي بـــي سي في تلقي صور من أناس في مواقع الهجـــوم. وفي غضون ساعة ارتفع عدد الصور الثابتة ومقاطع الفيديو، التي التقطت أساسا بالهواتف النقالة، إلى الخمسين، وبعد أيام من الهجوم تجاوز العدد الألف. ثم عرضت البـــي بـــي سي تلك الصور في معرض الكتروني. كما استخدمت مواقع

الكترونية أخرى تلك الصور، وفي النهاية قدم هذا النمط من "صحافة المبادرة الذاتية" خدمة متكاملة فاقت ما قدمته وسائل الإعلام التقليدية. استخدمت الانترنت أيضا لوحة إعلانات ضخمة لأولئك الذين يبحثون عن أشخاص مفقودين، أو يسعون وراء الرفاه، أو يرغبون في مناقشة الأحداث.

لقد مثل ذلك تحوّلا هاما في مقاربة المؤسسات الإخبارية الأساسية لجمع المعلومات. تقليديا، ربما كانت التقارير الإخبارية المبكرة حول حدث مثل تفجيرات 7 يوليو/تموز لا تحوي صورا نظرا لعدم وجود مصوري أخبار محترفين في مسرح الأحداث. أما الآن فيمكن الاعتماد على الناس العاديين لتوفير الصور. في السابق كانت المؤسسات الإخبارية تدقق كثيرا في ما يصل إليها من مواد بغرض التخلص مما تعتبره زائفا، أما الآن وفي ظروف مشابهة بشكل عام، فقد أصبحت عملية جمع الأخبار تقوم على شراكة مفتوحة وموثوق بها مع الجمهور.

ورغم توفر المواقع الالكترونية، فإن الناس ما زالوا يعتمدون بدرجة كبيرة على المواقع الإخبارية التقليدية. ففي يوم 7/7 تلقت مواقع الأخبار الالكترونية ما نسبته 6% من كامل حركة المرور على النت، أي بزيادة 50% عن اليوم السابق. وقد سجل موقع بي بي سي ما نسبته 29% من جميع الذين اطلعوا على صفحات المواقع الإخبارية. ومن جهتها نقلت صحيفة "الغارديان" (The Guardian) أن موقعها استقبل 1.3 مليون زائر و8 ملايين اطلعوا على صفحاتها في ذلك اليوم، 500,000 منهم من الولايات المتحدة الأمريكية. أما مدريد، حيث وقعت تفجيرات مارس 2004 فقد استقبلت عددا من الزوار يفوق أية مدينة أخرى باستثناء لندن ذاتها.[24]

يجسد استخدام الجمهور للإعلام الجديد وسيلة لعرض المعلومات والوصول إليها بخصوص هجوم 7/7 تغييرا في العلاقة بين مستهلكي الأخبار ومزوديها. تلك الأحداث، إلى جانب النضج الذي وصلت إليه المدونات، يدل على أن هذا الالتقاء لن يعني بالضرورة استبدال الإعلام الجديد بالقديم، وإنما سيكون هناك مسار من التوسع التعاوني، يصبح فيه الجمهور شريكا نشطا في إنتاج نوع جديد من الصحافة بدلا من أن يظل متلقيا سلبيا للمعلومات.

ستصبح "صحافة المواطن" كما شهدناها في تغطية 7/7 أكثر انتشارا، سواء باعتبارها أحد مسارات إنتاج الأخبار التقليدية، أو صحافة مستقلة تمارس عبر

الانتـــرنت. وقـــد أكد بث مقطع فيديو إعدام صدام حسين الذي صور بالهاتف الخليوي في عام 2006 أن الويب يوفر فضاء غير مقيد بالمعايير الصحفية التقليدية في مـــا يخص الصور القوية. فبعد تنفيذ الإعدام بقليل، أصبح الفيديو متاحا على أحد مواقع الانترنت، ثم على خدمة الفيديو التابعة لوكالة أسوشيتد برس (Associated Press). وانتـــشر بسرعة قياسية عبر شبكة الانترنت ليجتذب 13 مليون نقرة فقط على اليوتيوب وغوغل فيديو وبرايك دوت كوم (Break.com).[25]

فكل من كان مرتبطا بالانترنت وأراد أن يشاهد الفيديو تمكّن من ذلك، وهـــذا مـــن شأنه أن يطرح أسئلة حول أقسام الأخبار في القنوات التلفزيونية ولدى بقية مزودي الأخبار التقليديين: هل ينبغي على المؤسسات الإخبارية أن تـــبث مقاطع الفيديو التي كانت في الأصل تمتنع عن بثها، أو على الأقل تتولى تحريرها، لأنها أصبحت متوفرة على الويب فقط؟ وهل أصبحت هذه المؤسسات غـــير ذات جـــدوى لأن الجمهور أصبح بإمكانه الحصول على المادة الإخبارية بوســـائله الخاصة؟ يمكن أن نجد الإجابة عن مثل هذه الأسئلة جزئيا في الوظيفة الأساسية للصحافة والمتمثلة في توفير السياق التاريخي والسياسي لما يتم عرضه. وعلـــى ســـبيل الافتـــراض، هناك على الأقل بعض الناس الذين تساءلوا وهم يشاهدون فيديو صدام حسين "ماذا يعني ذلك؟" هذا سؤال على الصحفيين أن يجدوا له جوابا.

ما وراء الأخبار

لقد أصبح الإعلام الجديد يستخدم هو الآخر لتحقيق عدد من الأغراض شبه الـــصحفية. فخـــلال أسبوع واحد من تسونامي 2004، كانت مواقع مثل "لوحة إعلانـــات الكارثـــة بـــبوكت" جاهـــزة بلوائح الأسماء ووصف الأضرار، وصور الأشخاص المفقودين، وروابط لمن كان يحتاج المساعدة في مسائل كثيرة. وقد اطّلع أكثـــر مـــن ثلاثـــة ملايين شخص على ثلاثة عشر ألف مادة أُرسلت عبر الموقع المخـــصص لكارثة تسونامي. تلك المعلومات منحت الأمل للبعض في حين أكّدت مخـــاوف الـــبعض الآخر. ومما جاء في تلك الرسائل من أوصاف الضحايا: "طفل، يرتدي قميصا أزرق على كامل واجهته رسم الرجل العنكبوت."

مـــن ناحـــية أخرى أثبتت الانترنت أنها أداة سريعة وفعالة لجمع تبرعات الإغاثة. فقد أعلنت منظمة أوكسفام (Oxfam) الإغاثية أنها تهدف إلى جمع 5 ملايـــين دولار أمريكي لإغاثة ضحايا تسونامي، وحققت ذلك الهدف في اليوم الـــتالي. وبعـــد أسبوع تمكنت أوكسفام من جمع 15 مليون دولار من 73000 تـــبرع أغلبها تم عبر الانترنت. وعقب إعصار كاترينا سنة 2005 في الولايات المتحدة، تبرع الأمريكيون بما قيمته 738 مليون دولار خلال عشرة أيام، كانت نـــصفها تـــبرعات إلكترونية. تجدر الإشارة إلى أن الانترنت استخدمت أيضا كوسيلة للاحتيال بشأن التبرعات الإغاثية، حيث كان على المستخدمين التعامل مع طلبات التبرع التي ترد إليهم من رسائل الكترونية مصدرها منظمات إغاثة مزيفة.[26]

وقـــد جسدت لايف 8 (Live8) في سنة 2005 قدرة الانترنت على دعم مجهـــودات جمـــع تبرعات الإغاثة. فقد نظمت يو 2 (U2) عددا من الحفلات بهـــدف مكافحـــة الفقر في أفريقيا، شارك فيها بونو (Bono) وفنّاون آخرون. انتظمت تلك الحفلات بشكل الكتروني في كل أنحاء العالم وأعلن المنظمون أنه مـــع الـــزمن أصبح يتابعها ثلاثة مليارات شخص. ومع أواخر 2005 تبرعت المنظمة بنحو 6 ملايين دولار. والأهم من الأموال، يقول منظمو لايف 8، هو الضغط السياسي على مجموعة الثماني، ذلك المنتدى الذي يضم أغنى ثماني دول، لـــدفعها لتقديم العون وإلغاء الديون عن أفريقيا. وفي يوم واحد أرسل أكثر من 26 ملـــيون شخص من أنحاء العالم رسائل نصية مؤيدة لحملة لايف 8. (الرقم القياســـي السابق بشأن الرسائل النصية اليومية كان قد سجله المصوتون على أمـــريكان آيـــدول وذلك بإرسال حوالي 6 ملايين رسالة.) وكانت الفكرة أن ينتبه السياسيون إلى الجمهور العريض الذي وصل إليه منظمو لايف 8 فيرسمون سياستهم تجاه أفريقيا تبعا لذلك.[27]

وفعلا فقد أعطيت الوعود، ولكن وراء التبرعات يظل الأثر الحقيقي للايف 8 وأمثالها من التظاهرات والاحتجاجات، ظنيا. فمتابعة حفل الكتروني وإرسال مبلغ من المال ورسالة نصية ليست دليلا على التزام سياسي متواصل. قد تكون البداية، ولكن الأهم هو أن يفهم ذلك من يمسكون بالسلطة السياسية الفعلية.

إن الـــسّرعة، إلى جانـــب حجـــم الجمهور الذي يمكن أن يصل إليه الإعلام الجديد، يمكن أن تكون مفيدة للغاية في أعقاب حدث مثل تسونامي 2004. ولكن مـــن جهـــة أخرى يمكن للسرعة والقدرة على الوصول إلى الانترنت أن تزيدا من تدهـــور وضـــع الأزمـــة. ففي الاضطرابات التي حصلت في فرنسا سنة 2005، اســـتخدمت المـــدونات ومواقـــع الانترنت ورسائل الهواتف الخليوية من المحتجين المناهـــضين للحكـــومة لغرض تعبئة مؤيديهم. وقد دعت إحدى المدونات قراءَها "للتوجه إلى أقرب مركز شرطة وإضرام النار فيه،" في حين دعت رسائل الكترونية أخرى إلى تنظيم هجومات عنيفة في أوقات محددة. وكان كثير من تلك المدونات يستخدم شبكة سكاي بلوغ (Skyblog)، الذي يعمل لفائدة محطة الإذاعة الوطنية سكاي روك (Skyrock)، التي تدّعي بأن لديها أوسع جمهور فرنسي من الفئة التي تتـــراوح أعمارهـــا بـــين خمس عشرة سنة وأربع وعشرين. ومع أحداث العنف التي حـــصلت في أكثر من مائتي مدينة، وبعد إحراق أكثر من ألفيْ سيارة، بدأت الحكومة الفرنـــسية في مراقبة المدونات تحسبا لتحركات المحتجين. ولكن حينها كانت سكاي بلوغ قد باتت تستضيف ثلاثة ملايين مدونة مع زيادة عشرين ألف كل يوم، كما أن المحتجين كانوا يستخدمون الهواتف الخليوية للمكالمات وإرسال الرسائل النصية. وسرعان ما وجدت الحكومة نفسها عاجزة عن مُجاراة تلك الموجة.[28]

لا يمكـــن لوسائل لإعلام الجديد أن تتسبب في الاضطرابات ولكن بإمكانها المـــساعدة في نـــشرها وإدامـــتها، سواء تعلق الأمر بأحداث شغب في المدن، أو بنـــــزاعات على نطاق أوسع، أو بأحداث إرهابية. ففي أفريقيا، استخدمت الانترنت لغـــرض النقاش السياسي، أو "سلاحا في الحرب" على حد تعبير أحد قادة مجموعة التمـــرد العاجية "القوات الجديدة". فقد استخدمت "القوات الجديدة" موقعها على الانتـــرنت ومحطـــتها التلفـــزيونية للمساعدة في إطلاق انتفاضة قادت إلى سقوط الحكـــومة. وكتب أبود كوليبالي (Aboude Coulibaly) مدير "القوات الجديدة"، "عندما تندلع الثورة علينا أن نكون مرتبطين بالأسلاك حتى نكسب." وفي الكونغو، يعـــتقد متمردو ماي ماي (Mai Mai) أن الماء يحميهم من الرصاص، ولكن لهم موقع علـــى الانترنت يروّج لقضيتهم أيضا.[29] وكتب روبرت هفنر (Robert Hefner) أن مجموعة لسكر جهاد الإندونيسية شبه العسكرية:

"تعـــتمد كـــثيرا على تكنولوجيات الاتصال الحديثة التي أصبحت منتشرة في كامل إندونيـــسيا في تسعينات القرن الماضي. وقد بدأ ذلك مع جهاز الفاكس والبرمجيات الجديدة للنشر المكتبـــي في بداية التسعينات، ولكن سرعان ما دخلت الانترنت التي عم استخدامها المدن الكبرى في إندونيسا في أواخر عام 1997 وبداية 1998. وليس هناك منظمة جماهيرية اعتمدت أكثر على تلك التكنولوجيات لتنسيق عملياتها... وقد سمـــح الجمـــع بين الاتصال المجرد – الالكتروني والتعبئة وجها لوجه بتوسيع قاعدة لـــسكر جهاد أكثر مما كان سيتيحه استخدام الاتصال عبر الانترنت أو وجها لوجه بشكل منفرد."

ولاحـــظ هفنر أنه مع حلول سنة 2000 أصبح موقع لسكر جهاد دوت كوم ينـــشر تقارير إخبارية يومية عن العمليات القتالية وعن مزاعم ارتكاب المسيحيين لأعمـــال وحشية في مالوكو، كما كان يبث تقارير ويوفر روابط عن المجاهدين في كل من الشيشان وكشمير وأفغانستان. وقد استخدمت الجماعة الانترنت لإرسال تلك التقارير اليومية إلى مكاتبها الفرعية الأربعة والعشرين المنتشرة في كامل البلاد، حـــيث يمكـــن تحمـــيلها – وقد أعدت أصلا بصيغة الناشر المكتبـــي – وطبعها وتوزيعها لأولئك الذين لا يتمكنون من الوصول إلى الانترنت.[30]

تستخدم الانترنت أيضا للتبشير بالأفكار والمعتقدات لدى جمهور عالمي. وهذا مـــثال مأخـــوذ من المجلة الالكترونية السعودية "صوت الجهاد": "إخواني المسلمين والمجاهـــدين، ألا تـــرون المسلمين يقتلون في أفغانستان والعراق؟! ألا ترون، على شاشات التلفزيون، النساء الثكالى يصرخن طلبا للمساعدة من المسلمين؟! ألا ترون أعضاء أجساد الأطفال الممزقة، وجماجمهم وأدمغتهم المتناثرة...؟" يبين هذا المقطع حسب ما كتبه فيصل دوجي (Faisal Devji) أن "تصوير الإعلام لمسألة الشهادة يخلـــق مجـــتمعا عالميا ويفرض على من يتابعونه من أعضاء ذلك المجتمع مسؤوليات محـــددة."[31]. كما أن شيوع مثل تلك الرسائل يمنحها ثقلا إضافيا. فعندما يتلقاها الجمهـــور بشكل متواصل، فإنها غالبا ما تتدخل في تشكيل وعيه السياسي وتدفع متلقيها نحو الممارسة.

تنتقل المعلومات الالكترونية بسرعة فائقة وعلى نطاق واسع، وهو ما يمكن أن يكون أمرا إيجابيا – إلا إذا كانت معلومات خاطئة. كتب توماس فريدمان أن أحد الإندونيـــسيين العـــاملين في السفارة الأمريكية في جاكرتا ذكر له أن "مستخدمي

الانتـــرنت لا تـــتجاوز نسبتهم 5% من مجموع السكان – ولكن هولاء الـــ 5% ينـــشرون الإشاعات لدى بقية المواطنين. يقولون "إنه أخذها من الانترنت"، فهم يتصورون أنها بمثابة الإنجيل." ويضيف فريدمان قائلا:

"في أحـــسن الحالات، يمكن للانترنت أن تعلم عددا أكبر من الناس بأسرع مما نعرفه عـــن أيـــة وسيلة إعلامية أخرى. وفي أسوإ الحالات يمكنها أن تدفع الناس للصمت أكثـــر مـــن أية وسيلة إعلامية أخرى. فالكذبة القائلة إن أربعة آلاف يهودي وقع تنبـــيههم حـــتى لا يذهـــبوا إلى مركز التجارة الدولي يوم الحادي عشر من سبتمبر انتـــشرت بالكامل عبر الانترنت والآن يتم تصديقها بشكل تام في العالم الإسلامي. ولأن الانترنت تحيط بها هالة "التكنولوجيا" فإن غير المتعلمين يثقون بالمعلومات التي تـــأتي منها حتى أكثر من غيرهم. فهم لا يدركون أن الانترنت في أقبح وجوهها هي عبارة عن قناة للمجاري: قناة الكترونية للمعلومات غير المعالجة وغير المصفاة."[32]

الأمـــثلة الـــتي عرضها فريدمان تجسد الطبيعة متعددة الأوجه "للمعلومات". فالـــثقة ينبغـــي أن تمـــنح بعناية، والشك لا يقدَّر بثمن. وليس كل ما نجده على الانتـــرنت صـــحيحا، كما أن ليس كل ما تنشره نيو يورك تايمز صحيحا. إلا أن المعلـــومات الـــتي تنـــشرها التايمز تخضع لعملية فحص وتحرير ما يزيد من حظوظ صـــحتها، أمـــا أغلب المعلومات التي تنشرها مواقع الانترنت لا يخضع لمثل ذلك الاختبار. هذا التمييز هام، وسيظل تأثير الانترنت غير قابل للتوقع في وقت يستمر فـــيه تطور المعايير بما يساعد الجمهور في كل أنحاء العالم على اختيار المحتوى الذي يمكنهم الوثوق به.

إلى جانـــب الانترنت، هناك أيضا أقرانها من التكنولوجيات القديمة التي بات اســـتخدامها حـــول العـــالم أكثـــر انتشارا. في بعض الأحيان يمثل دخول تلك التكنولوجـــيات قفزة كبيرة إلى الأمام مثلما هو الحال في أفغانستان. فعند سقوط نظـــام طالـــبان في عام 2002 لم يكن هناك غير 25,000 خط هاتفي في بلد يبلغ تعـــداد سكانه 30 مليون نسمة، ولم يكن ممكنا إجراء مكالمات إلى الخارج. ومع بداية 2006 أصبح هناك 1,3 مليون مستخدم للهواتف النقالة مستفيدين من الخدمة الـــتي امتدت لتشمل حتى المناطق الريفية. وفي أبريل/نيسان 2006 انعقد في كابول مؤتمر تركزت أعماله على إنشاء منظومة ألياف البصرية لنقل الأصوات والمعلومات وربط أفغانستان بالعالم الخارجي. ويمكن الوقوف على دلالة الحجم الذي بلغه هذا

التحول من خلال الطريقة التي أرسلت بها بعض الدعوات إلى هذا المؤتمر: استخدام نظام تلغراف "مورس".[33]

تحظى الرسائل النصية عبر الهواتف النقالة بشعبية خاصة في المناطق التي تكون فيها البنية التحتية للانترنت ضعيفة أو تكون هناك قيود على استخدامها. ففي المملكة العربية السعودية يرسل 60% من مستخدمي الهواتف النقالة رسائل نصية، وأحد وجوه تلك العملية هو خدمة الرسائل القصيرة التي تسمح للمستخدمين بإرسال رسائل يتم عرضها على الأشرطة المتحركة على شاشات التلفزيون. وقد ساهم برنامج ستار أكاديمي، وهو برنامج عربي على نمط تلفزيون الواقع يقدم شبانا يتطلعون لأن يصبحوا نجوما في مجال الغناء ويعيشون تحت سقف واحد، بقدر كبير في تعميم استخدام الأس أم أس (SMS). يستطيع المشاهدون التصويت لمن يفضلون من المشاركين في البرنامج كما يمكنهم إجراء محادثات تظهر في أسفل الشاشة، وهو ما يجعل من الشاشة أداة تفاعلية. وقد أصبح استخدام الأس أم أس يحظى بشعبية واسعة إلى درجة أن بعض القنوات أوقفت برامجها العادية وسخّرت الشاشة بكاملها لاستقبال سيول من الرسائل محولة التلفزيون إلى غرفة محادثة. والخطوة القادمة هي الأ م أم أس (MMS) – خدمة الرسائل متعددة الوسائط، التي تسمح بإرسال صور الفيديو الشخصي وتلقّيها.[34]

يعد تصوير الفيديو والمشاركة فيه تحوّلا آخر ضمن التغييرات الجارية في مجال الاتصال. فعلى مواقع الويب مثل يوتيوب يشاهد الزوار فيديوهات تتراوح بين ما هو تافه وما له قيمة إخبارية. وقد سجل موقع يوتيوب في أواخر عام 2006 دخول عشرين مليون زائر شهريا يشاهدون 100 مليون فيديو كل يوم، مع إرسال 65,000 فيديو جديد يوميا. ومع بداية 2008 تجاوز عدد الفيديوهات الجديدة التي يتم تحميلها يوميا 150,000. فالناس الذين يحملون كاميرات منتشرون في كل مكان، يلتقطون زلات السياسيين ويصورون أهوال الحرب، ومسائل أخرى كثيرة مما كان حكرا على الصحفيين المحترفين ولكنه أصبح الآن "يغطّيه" أي شخص يحمل هاتفا خليويا وبإمكانه تصوير فيديو.

ومثلما هو شأن "تأثير الـ سي أن أن" الذي يفترض أنه أثر في أولويات سياسات الحكومات عبْر إطْلاع الجمهور على تقارير إخبارية مريعة – لاجئين

تحت القصف ومثل ذلك – فإن محتوى يوتيوب يمكن أن يكون له أثر مشابه. فبعض لقطات الفيديو التي تعرض على الانترنت تستخدمها مؤسّسات إخبارية كبرى، والبعض الآخر ينشره المدونون أو يعرض على مواقع الانترنت. ومازالت سرعة انتشار هذه الظاهرة واتساع نطاق استخدامها في تزايد مستمر، وهو ما يقلص من اعتماد مستهلكي الأخبار على المؤسسات الإخبارية التقليدية ويوفر عددا لا يحصى من مصادر المعلومات الجديدة.

لا شك أن محتوى بعض الفيديوهات زائف، ولكن نظرا لحجم المادة المتوفرة فبالتأكيد يوجد هناك الكثير من الحقيقة. لقد اتسم رد فعل الحكومات بنوع من الفزع تجاه هذا الدفق من الصور غير الخاضع للرقابة. فقد أمر المسؤولون الأمريكيون جنودهم في العراق بألا يرسلوا مواد فيديو قبل أن يتم فحصها، وهو ما يتعارض بالطبع مع الفكرة الأساسية لهذه الأداة. كما قلصت الحكومة الإيرانية من سرعة الارتباط بالانترنت حتى تحد من استخدام مواد الفيديو، ولا شك أن هناك عوائق أخرى سيتم خلقها.[35]

يوتيوب وأمثاله من المشاريع الأخرى له عدد كبير من مزودي الفيديو والمشاهدين مما يجعل العوائق التي تفرضها الحكومات ليست أكثر من مطبات على الطريق. وإذا أخذنا حرب العراق مثالا، فرغم الجهود التي بذلتها الحكومة الأمريكية – وفي نفس السياق وسائل الإعلام الرئيسة – من أجل تطهير صورة الحرب، فإن يوتيوب والمواقع المرتبطة به تمكنت من تقديم الحقائق القاسية لمن يرغب في الاطّلاع عليها. وأشرطة الفيديو التي صورها بعض موظفي الخدمات الأمريكيين أو نشرها المتمردون العراقيون بإمكانها أن تتكامل مع ما يقدمه التلفزيون التقليدي من مواد إخبارية وبالنسبة إلى بعض المشاهدين بإمكانها أن تحلّ محلّها. ومع الوقت، ربما يصبح "تأثير اليوتيوب" قابلا للقياس باعتبار أن هذه المواد الالكترونية تؤثر في موقف المشاهدين السياسي.

***

إن عالم الإعلام الجديد مذهل. فهو ديناميكي وفي نمو مستمر، ويستجيب لما هو أكثر بكثير من مجموعة من الرغبات في الاطلاع على التكنولوجيات الفائقة. فوسائل الإعلام الجديد تساهم كذلك في التغييرات الحاصلة في طريقة اشتغال

العـــالم، وتغير من شكل البنى السياسية التقليدية التي بني عليها النظام العالمي. وهذا وجـــه مـــن وجـــوه "تأثير الجزيرة"، وسيقود إلى المزيد من التغييرات على صعيد الشؤون الدولية.

- 4 -

صعود الدولة الافتراضية

الدولـــة التقليدية ذات حضور حسي - ترابـــي من خلال حدود واضحة، ومكان على خريطة العالم. علينا أن ندير الكرة الأرضية وسيكون بإمكاننا الإشارة إلى أي بلـــد: هـــنا فرنسا، هنا نيجيريا، هنا الشيلي." الجغرافيا السياسية بهذا المعنى يتقـــنها الأطفال حين يبدؤون في تأمل العالم الواسع، ويرون أنه يشبه لعبة تركيب الصور، فيتعلمون كيف يضعون القطع في أماكنها الصحيحة.

يمكـــن للحـــدود أن تتسع أو تضيق أو تتغير بشكل من الأشكال، مثلما حصل عـــندما اشترت الولايات المتحدة أرض لويزيانا، أو عندما بسطت القوات الاستعمارية نفـــوذها علـــى البلدان التي استولت عليها. وغالبا ما يرتبط الصراع بنـــزاعات حول الحدود، وكثيرا ما تنتج الحروب حدودا جديدة وبلدانا جديدة أحيانا. وهذه الأحداث تـــنعكس مباشـــرة على الخرائط، رغم أن الحدود الدقيقة تظل في بعض الأحيان محل نـــزاع. وبغضّ النظر عن الكيفية التي يتم بها تغيير الحدود، تبقى للدول أبعاد حسية.

تلـــك علـــى الأقل هي الطريقة التقليدية التي ننظر بها إلى الجغرافيا السياسية. ولكـــن، كما تغير مفهوم السيادة مع الزمن، فقد تغيرت الادعاءات بشأن الدول. وعلى حد تعبير بنديكت أندرسون (Benedict Anderson)، الأمة "جماعة سياسية متخيلة" تنتظمها "روابط أفقية عميقة" - وهي روابط الأخوة التي جعلت بالإمكان "علـــى مدى القرنين الماضيين أن تجتمع كل هذه الملايين من الناس لا على أن تقتل بل على أن تموت طوعا من أجل تلك التخيلات المحدودة."[1]

هل يمكن لجماعة متخيلة أن توجد ضمن حدود متخيلة؟ إذا كان ذلك ممكنا فلابـــد مـــن توفر أمر آخر يشدها إلى بعضها البعض، ويخلق لها هويتها، ويصون الانـــسجام الذي تصنعه تلك "الروابط الأفقية." يمكن لوسائل الاتصال الإعلامية

الجديـــدة أن تـــساهم في ذلـــك عن طريق خلق أرضية فكرية مشتركة للجماعة وتمكينها من القيام بذاتها دون اعتبار الحدود التقليدية.

يكتسي كل ذلك أهمية بالغة لأن الدولة الافتراضية يمكن أن تعطي تأثيرا وتمنح أملا لأولئك الذين قد يكونون حرموا منهما ضمن البنى السياسية العادية. خصوصا في تلك الأجزاء من العالم حيث الدول والحدود من مخلفات الإمبراطوريات الغابرة، يمكـــن للواقع أن يسفر عن دول جديدة تفتقر للاعتراف الدبلوماسي والخرائطي، ولكـــنها مـــع ذلك تتمتع بدينامية سياسية هائلة. يمكن لتكنولوجيات الاتصال أن تطـــوّر أي حـــضور سياسي على مستويات كثيرة. يمكن للانترنت كما لاحظت ميرلينا ليم (Merlyna Lim) أن تدعم "أواصر الهوية الوطنية وأن تساهم في الوقت ذاتـــه في إنشاء هوية غير مرتبطة بالأرض" وفي بعض الحالات يمكنها أن تساعد في إقامة "نمط جديد من التراتبية التي لا ترتبط بالأرض."[2]

لقد نشأ حزب الله منذ سنوات في لبنان باعتباره دولة داخل دولة، وقد تحول مـــن كـــونه مليشيا إلى منظمة سياسية تتولى حقائب في الحكومة اللبنانية، وتدعم برامج اجتماعية تتراوح من الرعاية الصحية إلى فرق كرة القدم. ونظرا لما يحظى به مـــن دعم سوري وإيراني، يبدو أن حزب الله بدأ يشعر أن في مقدوره الدخول في حرب مع إسرائيل، كما أصبح يعلم مجموعات أخرى مثل حماس. ولكن حزب الله لم يذهب إلى أبعد من ذلك بحيث يعتبر نفسه كيانا وطنيا منفصلا، بل ركز جهوده بـــدلا مـــن ذلك على اكتساب القوة من داخل لبنان. فهو إلى حد ما يحمل الهوية التقليدية لـــ "شبه دولة."

وإذا تركنا حزب الله جانبا، فلا يوجد هناك مخطط كامل لبناء دولة افتراضية. ورغم أن الإرادة السياسية والقيادة ضروريتان إلا أن التدفق الثابت للمعلومات هو مطلـــب أساســـي أيضا، إذ الدولة الافتراضية في جوهرها هي تزاوج بين السياسة والاتصال.

سيادة كردستان الافتراضية

يقول الأكراد في بعض الأحيان إنهم أكبر أمة في العالم دون أن يكون لهم دولة خاصـــة بهم. يصل تعدادهم إلى نحو 25 مليون نسمة ويعيش أغلبهم في المنطقة التي

تلتقي فيها أراضي العراق وتركيا وسوريا، رغم أن جالياتهم امتدت إلى بلدان تقع في مختلف أنحاء العالم.[3]

تظل "كردستان" شيئا يشبه السراب. والأكراد يسعدهم أن يقدموا خارطة كردستان لكل من يبدي اهتماما، وقد اعترفت الولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى ضمنيا بالحكم الذاتي القائم في المنطقة الكردية شمال العراق في أعقاب حرب الخليج سنة 1991، وخاصة منذ سقوط نظام صدام حسين في 2003. ولكن في تلك المنطقة التي يسودها التوتر تعمل الأمم القائمة ومختلف القوى السياسية ضد ولادة دولة "واقعية" أخرى.

تعود جذور أزمة الهوية السياسية الكردية المتواصلة إلى قرارات اتخذتها الأطراف المنتصرة في الحرب العالمية الأولى. فقد أراد ونستون تشرشل (Winston Churchill) إقامة كيان كردي وكان يأمل أن يكون "دولة صديقة تقف حاجزا في وجه الأتراك والروس." ولكن مع انعقاد مؤتمر القاهرة في 1921 الذي وقع فيه تقسيم المنطقة، كان قد تم إقناع تشرشل بأن قيام دولة كردية ليس ضروريا ولا حكيما.[4] وكما جرت العادة، فقد احتلت قضايا أخرى الأولوية على حساب وضع الأكراد. إذن فقد عانى الأكراد إخضاعا متواصلا كان على يد العراقيين والأتراك والسوريين أساسا ومع ذلك لم يتخلصوا من فكرة كردستان. من جهة أخرى لم يكن الحفاظ على الانسجام سهلا، وأحد الأسباب يكمن في غياب لغة كردية مشتركة. وكما لاحظت كرستيان بيرد (Christiane Bird)، "فالذين يتحدثون الكرمانجي لا يفهمون من يتكلم السوراني، والعكس بالعكس" رغم أن الحروب والاضطرابات السياسية الأخرى زادت من الاختلاط بين من يتكلمون هاتين اللهجتين وبقية اللهجات الكردية.[5] كما أن الانقسامات السياسية بين الأكراد قلصت من نفوذهم السياسي. وقد تمكنوا من تحقيق وحدة صعبة فيما بينهم أثناء مرحلة إعادة الإعمار التي تلت سقوط نظام صدام حسين، حين برز الشمال الكردي باعتباره أكثر مناطق العراق الجديد أمنا وازدهارا. ولكن الحياة السياسية للأكراد تظل منقسمة طائفيا بشكل كبير، حيث تستنسخ المجموعتان الرئيستان الوظائف الإدارية والأمنية. بل هناك شركتان للهواتف النقالة – شركة لكل فصيل – ما يعني أن على المستخدمين

أن يستبدلوا بطاقات هواتفهم عند عبورهم من منطقة نفوذ أحد الفصائل إلى منطقة نفوذ الفصيل الآخر.[6]

يضاف كل ذلك إلى حالة "أمة" مجزّأة وغير فعالة ولا تستطيع الحفاظ على تماسكها. ومع ذلك، ورغم الفُرقة السياسية فقد برزت في العشرية الماضية إحدى أدوات التوحيد – جيل جديد من الإعلام الكردي. فقد منحت محطات التلفزيون الفضائية، وفي الآونة الأخيرة شبكة الانترنت كردستان هويتها الحقيقية التي ظلت إلى وقت طويل غير واضحة. ولكن، حتى هذه الخطوات في اتجاه تحقيق الانسجام الافتراضي واجهتها عقبات سياسية.

انطلقت القناة التلفزيونية الفضائية الكردية الأولى ميد تي في (Med-TV) سنة 1995. (ميد مشتقة من كلمة ميداس وهم أجداد الأكراد المنحدرون من أصول هندية – أوروبية، والذين كانت بلادهم تسمى ميديا – وهي مصادفة على غاية من الأهمية في هذا السياق.) كانت القناة مشروع المهاجرين الأكراد الذي حصلوا على ترخيص في المملكة المتحدة من الهيئة المستقلة للتلفزيون (ITC) وقرروا إقامة "السيادة في الفضاء." وقد ركزت البرمجة على تعزيز الهوية الكردية، عبْر تقديم نشرات أخبار للكبار مع تحليل للأحداث من وجهة نظر كردية، وتوفير دروس في اللغة الكردية للأطفال. وكان العلم الكردي والنشيد الرسمي جزءًا ثابتا من المحتوى.[7]

شدت القناة الانتباه داخل "كردستان" على الفور، وكانت تبث ثماني عشرة ساعة في اليوم بعدة لهجات كردية إلى جانب اللغة التركية والأشورية والعربية والإنجليزية. كان بإمكان الأكراد في أوروبا والشرق الأوسط مشاهدتها، وبدأت الصحون اللاقطة تنتشر في القرى الكردية النائية، وخاصة في تركيا. وحسب ما جاء على لسان مجموعة من أعضاء البرلمان التركي الذين كانوا معتقلين، "بفضل ميد تي في عادت اللغة الكردية إلى الحياة، وهو أمر يهدد أولئك الذين أرادوا قبرها. لقد كانت – ميد تي في – رمزا لتطلع الشعب الكردي إلى الاعتراف، فهي بمثابة المغناطيس الذي يجذب الأكراد بعضهم إلى بعض. أمّا المسؤولون الأتراك فكان موقفهم مختلفا جدا، فقد جاء على لسان أحدهم أن "ميد تي في تهدد أمن هذه الأمة أكثر من تهديد هجمات عصابات حزب العمال الكردستاني (PKK)."[8]

تعـــرض باعـــة الصحون اللاقطة ومستخدموها داخل تركيا إلى الاضطهاد وكانت الكهرباء تُقطع على القرى الكردية في مناسبات عديدة أثناء ساعات البث الرئيـــسة لمـــيد تي في. وفي عـــام 1999 قدمت تركيا إلى سلطات البث البريطانية نـــصوصا تم تفـــريغها مـــن مقابلات أجرتها ميد تي في دعا فيها بعض الأكراد إلى التحرك ضد الحكومة التركية. وكانت النتيجة أن سحبت الهيئة المستقلة للتلفزيون في بريطانيا رخصة القناة وأوقفتها عن البث. ورغم أن الآي تي سي برّرت الإجراء الـــذي اتخذته بأسباب قانونية، إلا أن مؤيدي ميد تي في اعتبروا أن القرار البريطاني جاء نتيجة ضغط تركي.[9]

وعلى الفور حلت قناة ميديا تي في محل ميد تي في بعد حصولها على ترخيص في فرنـــسا، ومـــثل سابقتها ركزت في برمجتها على دعم اللغة والثقافة الكرديتين. ومـــثل مـــيد تي في أيـــضا، لم تعش ميديا طويلا ويبدو أن إيقافها حصل بسبب احـــتجاجات تـــركية. ففي فبراير/شباط 2004 حكمت محكمة فرنسية أنه بسبب ظهـــور متحدثين باسم حزب العمال الكردستاني على شاشة القناة، فإن ميديا تمثل "خطرا على الأمن العام" وبالتالي لم يعد من حقّها الاحتفاظ برخصتها.[10]

وفي غضون أيام من إيقاف بث ميديا، أطلق الأكراد قناة جديدة أخرى باسم روج (الشمس) تي في. هذه المرة انطلقت القناة من الدنمارك التي سرعان ما بدأت في تلقّـــي الشكاوى من المسؤولين الأتراك حول مزاعم ارتباط روج بحزب العمال الكردستاني. وردا على ذلك، أرسل أربعة وخمسون رئيس بلدية من جنوب تركيا الكردي يطالبون فيها الحكومة الدنماركية بالسماح للقناة بمواصلة بثها. وفي الوقت نفـــسه أعلنت روج أنها تحافظ على مسافة من حزب العمال الكردستاني، رغم أنها بـــثت مـــواد مـــن إنتاج الحزب تصور مقاتلين وهم ينفّذون عمليات ضد الجيش التركـــي. وفي ربيع 2008 أعلنت السكرتارية الدنماركية للإعلام رفضها للشكاوى التركية وسمحت لروج بمواصلة عملها.

وفي سياق جهودها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبـــي، تخلت تركيا عن منعها الـــبث باللغة الكردية ولكنها وضعت إجراءات تحدد مدة البث بأربع ساعات في الأسبوع، وتمنع برامج الأطفال ومناقشة المواضيع "السياسية". ولكن المقاربة التركية لا يمكنها الصمود إلى الأبد، وستتعزز الهوية الكردية المدعومة إعلاميا.

فمـــع تزايد عدد المنازل التي تستقبل البث الفضائي في تركيا وفي أنحاء أخرى مـــن العـــالم، ومع تزايد عدد الأقمار الاصطناعية المتاحة لشركات البث بأسعار زهيدة، سيكون بمقدور روج ومحطات كردية أخرى الوصول إلى الجماهير الكردية العريـــضة سواء في تركيا أو حيث توجد عبر العالم. كما أن بإمكان تلك الجماهير مشاهدة عدد من القنوات الكردية التي تبث عبر الانترنت.

من الأمثلة الجيدة على أولئك المشاهدين، تلك السيدة الكردية التي تعيش في تـــركيا ولكنها لا تتكلم اللغة التركية، وهي من كبار المعجبين بروج. تقول تلك السيدة لأحد الصحفيين "إن روج تعكس عواطف الأكراد، وتنقل آراءنا، إنها مرآة الأكـــراد."[11]. إنها الآن مرتبطة بالمجتمع الكردي الأوسع، المجتمع الذي بدأ يتحول إلى كـــيان أكثر تحديدا على الصعيد الثقافي والسياسي، وذلك راجع إلى حدٍّما إلى الروابط التي خلقها البث التلفزيوني الفضائي. إنها الآن جزء من كردستان.

وتتعـــزز الـــروابط أكثـــر بين الأكراد بفضل ما تتيحه الانترنت مثل موقع "كردستان ويب (KurdistanWeb.org)، الذي يوفر هذه الخدمة باعتبارها سبب وجوده:

"لقد أتاحت الانترنت فرصة غير مسبوقة للأكراد في مختلف أركان المعمورة ليتناقشوا فـــيما بينهم، ويقدموا للآخرين معلومات عن ثقافتهم وسياستهم وتراثهم الإنساني. كمـــا وفرت أيضا فرصة لإدارة نقاش مفتوح حول مواضيع تعتبر محرمة بين ملايين الأكراد الذين يعيشون في مجتمعات محافظة مثل تركيا. ومن جهة أخرى فقد ساهمت في إحياء مجموعات كردية صغيرة مثل الغوراني، والكلهوري، والبهلي، والهيورامي، والكرماشاني، وأعادت الاعتبار لآدابهم الثرية التي تمتد على نحو ألف عام... وبإبراز هـــذه المعـــرفة، نحن في كرد ويب نعتقد أن الخدمة التي نقدمها ستساعد الأكراد في الحـــصول علـــى حقوقهم المتساوية وحرياتهم مثل بقية الأمم العظيمة في العالم. إن تطلعات الأكراد المشروعة والسلمية لا تختلف بأية صورة عن تلك الحقوق الأساسية التي يتمتع بها غير الأكراد من متصفحي موقع كرد ويب، التي تتضمن الحياة والحرية والمساواة."[12]

هناك موقع آخر، وهو كردستان ميديا (KurdishMedia.com) الذي يروج لنفسه تحت لافتة "المحل الذي يجب أن تتوقف عنده" من بين مزودي المعلومات عن الأكـــراد وكردســـتان." ويذكر من بين أهدافه "تقديم الأكراد أمة متحضرة على

المسرح العالمي" وتصوير كردستان على أنها "جزيرة سلام في قلب الشرق الأوسط."[13] يوفر هذا الموقع روابط لنحو سبع مائة موقع آخر له علاقة بالأكراد، مثل كرد لاند الذي يقدم الأخبار والموسيقى وحتى النغمات الكردية التي تستخدم في الهواتف النقالة. وهناك كرد نت الذي يقدم روابطَ لخدمة المواعيد وكذلك الأخبار إلى جانب مواقعَ أخرى. هذه المئات من المواقع مجتمعة، تمثل مجتمعا افتراضيا ناميا. وبالتوازي مع النضج السياسي والنمو الاقتصادي الذي تشهده المنطقة الكردية في العراق، يحمل النشاط الكردي على صعيد الانترنت حضورا متزايدا ونوعا من الشرعية للتطلعات الكردية لأن يعترف بهم على نطاق واسع باعتبارهم أمة.

ثمة دولة هنا، رغم كونها غائبة عن الخرائط التقليدية وتنقصها الشرعية الرسمية المتمثلة في الاعتراف الدبلوماسي. هذه الدولة ينبغي أخذها على محمل الجد لأن القومية الكردية الافتراضية أكثر من تمظهر للأدوات الاتصالية. فهدفهم السياسي موجود منذ وقت طويل، ولكنه يشهد انبعاثا جديدا بفضل اتساع الحضور الكردي على القنوات الفضائية وعلى شبكة الانترنت (إضافة إلى الاستخدام الواسع للصحافة المطبوعة والإذاعة). والأقليات الكردية في بلدان مثل سوريا وتركيا وكذلك الأفراد الذين هم جزء من الشتات الكردي العالمي، تشترك في القدرة على تعزيز ثقافتهم وسياستهم المشتركة عبر قناة روج والقنوات التلفزيونية الأخرى وعبر مواقع الانترنت.

للانترنت أهمية خاصة لأن طبيعتها التفاعلية تشجع الأكراد ليس على تلقي المعلومات فحسب، بل على البقاء متواصلين فيما بينهم أيضا. وبالتوسع المستمر في استخدام الانترنت، فإن ذلك التعاطي الفردي مع الدولة الافتراضية سيكتسي أهمية أكبر، إذ سينمّي الشعور بالانتماء إلى المجتمع الكردي الأوسع. فالتواصل الذي يخلق التحاور ويوجد أشكالا أخرى من التعاطي ينمي "الترابط الأفقي" الذي وصفته أندرسون.

كردستان، الدولة الافتراضية، تكتسي أهمية خاصة باعتبارها نموذجا، لأنها تجسد طريقا يمكن للآخرين ممن لا تشملهم الخرائط أن يسلكوه، وخاصة أولئك الذين يتطلعون إلى بناء هويتهم بشكل أفضل، لا سيما في العالم الأقل نموا. وعلى

السياسيين أن ينتبهوا إلى ذلك لأنه يمكن أن يشجع النـــزعات الانفصالية ويؤثر في اســـتقرار الـــدول القائمة التي تشمل عناصرَ ترغب في الانشقاق عن الوضع الجيو سياسي الراهن. يمكن أن يؤثر ذلك أيضا في الاستقرار الإقليمي إذا ما اتجه اللاعبون الجدد إلى تعزيز أنفسهم وتغيير موازين القوة السياسية والاقتصادية.

وحـــتى دون المضي بعيدا والانفصال رسميا وإعلان نفسها جمهورية كردستان المـــستقلة، فـــإن الدولة الكردية الافتراضية بدأت تتحول إلى لاعب في المنطقة إذ يـــساهم مخـــزونها النفطي وما تشهده من هدوء نسبـــي في نموها الاقتصادي. ولا شك أن تركيا تراقب ذلك بحذر، وتحسب كل حساب لما يمكن أن يتركه ذلك من أثـــر علـــى الأقلية الكردية داخل حدودها. (يمثل الأكراد حوالي 20% من مجموع ســـكان تركيا.) وقد تدخلت القوات التركية في كردستان العراق تعقبا للمقاتلين الأكـــراد، وهـــناك سيناريوهات عديدة يمكن أن تزيد من حدة التوتر بين أكراد العراق والسلطات التركية. ومن شأن تلك الأحداث أن تخلق صعوبات دبلوماسية للولايات المتحدة ولدول أخرى من بين حلفاء تركيا في حلف الناتو.

وتعتـــبر ســـوريا، بما لها من أقلية كردية (أقل من 10% من مجموع السكان) ميالة لإحداث الشغب، مرشحة لأن تكون إضافة غير مرحب بها عند حدوث أي نـــــزاع ذي علاقة بالأكراد. وإذا تصاعد التوتر حول هذه القضايا، فإن وسائل الإعلام والاتصال التي تساهم في تعزيز وجود كردستان الافتراضي، يمكنها أيضا أن تساهم في تسخين الأجواء السياسية أو تبريدها في حينها. وعلى كل من يبحث في منع ذلك النـــزاع أو حلّه أن يعترف بأهمية تلك الوسائل الإعلامية.

إن امتلاك قناة تلفزونية فضائية أو حضور على شبكة الانترنت لا يكفي بذاته أن يفتح الباب لإقامة دولة، سواء أكانت افتراضية أم غير ذلك. ينبغي أن تتوفر إلى جانـــب ذلـــك قيادة سياسية قوية وأن يكون هناك تصميم واسع بين المجموعات المكـــونة لها إذا ما أريد لأدوات الاندماج والانسجام أن تستخدم بفعالية. ولكن، حـــتى مـــع توفر هذه الشروط، فإن المثال الكردي يبين كيف يمكن لخرائط العالم وسياســـاته أن تـــتغير. لم يعد ممكننا أن تظل حسابات العالم مرتبطة إلى حد كبير بالآلـــيات التي تفرزها مؤتمرات ما بعد الحرب، أو بقرارات أخرى تتخذها القوى الكبرى التي تقسم الشعوب والأمم أو تجمعها دون اعتبار للحقائق على الأرض أو

لـــتطلعات أولئك الذين يتأثّرون بتلك التغييرات. بإمكان الإعلام الجديد أن يعزز أواصر الهوية الوطنية، وعصر الدولة الافتراضية قادم في الطريق.

الشرق الأوسط والإسلام العالمي

قبل طرْق موضوع الديناميات الافتراضية في أوساط المجتمع الإسلامي، يجدر بـــنا أن نـــبحث بنية ذلك المجتمع أولا. إلى أي حد هو متسع؟ كيف تعمل القيادة وكـــيف يمـــارس التأثير – إلى أي حد ومن أين إلى أين؟ هل تثير القضايا البعيدة الاهتمام وتحرك العواطف، أم أن الانشغالات المحلية تطغى على القضايا الأكبر؟ هل العولمة تعزز قوة الإسلام عبر العالم أم تضعفها؟

تـــنطوي هذه الأسئلة على إجابات متنوعة. أولا، فيما يخص مدى اتساع دائرة المسلمين، يعرّف أوليفيه روي "المسلمين العالميين" باعتبارهم "إما مسلمين يقـــيمون في مجـــتمعات غـــير إسلامية بشكل دائم (وأساسا في الغرب)، وإما مسلمين يحاولون إبعاد أنفسهم عن ثقافة إسلامية معينة ويؤكدون على انتمائهم إلى أمـــة عالمية، سواء بطريقة صامتة تماما أو عبر العمل السياسي." ويلاحظ أن "طمـــس الحـــدود بـــين الإسلام والغرب ليس نتيجة للهجرة فقط. إنه مرتبط بظاهـــرة أكثر شمولا: الانتزاع من الأرض. والإسلام يميل أكثر إلى أن لا يرتبط بـــأرض معيـــنة وبمرحلة حضارية محددة... وعن طريق اتساع تيارات الهجرة والـــنمو السكاني، أصبحت أعداد متزايدة من المسلمين تعيش في مجتمعات غير إســـلامية." ويضيف بأن العولمة "بصدد محو الإثنيات من الإسلام... فمشروع بـــناء مجتمع معياره الوحيد العقيدة الدينية يفترض أولا نفي أية ثقافة وأية إثنية خاصة."[14]

وهـــذه مسألة خطيرة، فأياً كانت قوة العقيدة الدينية، هل تتمتع تلك العقيدة بالقـــوة الكافية لمحو الأوجه الأخرى للثقافات والإثنيات الخاصة؟ وسواء كان ذلك ممكـــنا أو ضـــروريا، فهـــو لا يـــزال في حاجة إلى تأكيد، ولكن القوة الباقية في الدولة/الهوية الثقافية لا ينبغي الاستهانة بها. ففي السياق العلماني، مثّل ذلك إشكالا داخـــل الاتحاد الأوروبـــي. إذ كانت الفكرة أن مفهوم "المجتمع" العابر للقومية لا يمكـــن أن يـــتقدم إلا إلى الحد الذي لا يتعارض مع تأكيد مكوناته على مصالحها

الذاتية. يمكن للبعض أن يحاجج بأن مبادئ الإسلام الدينية أكثر أهمية وتحظى بقبول أوسع من مبادئ الاتحاد الأوروبـــي السياسية، لذلك فهي ذات قوة توحيدية أكبر، ولكن العولمة الحقيقية "لأي شيء" لا يمكن أن تحدث بسهولة.

تقـــول الآية 10 من سورة الحجرات "إنما المؤمنون إخوة." وهذا المبدأ يقع في القلـــب من فكرة "الأمة"، رغم أنه وقع تأويله بطرق مختلفة فيما يتعلق بقضايا مثل الشمولية. يعرف أنطوني شديد (Anthony Shadid) الأمة في سياق تاريخي باعتبارها "معـــنى يحيل على مجتمع إسلامي تكوّن عندما بدأ أتباع محمد ينظرون إلى ما وراء انتماءاتهم القبلية والعشائرية في الجزيرة العربية ليروا أنفسهم مسلمين بدرجة أولى." أمـــا اليوم فإن بعض العلماء المسلمين والرموز الإسلامية أمثال علي بولاق وأبـــي العلـــى ماضي يؤكدون أن الأمة ينبغي أن تقوم على قاعدة أوسع، وأن تكون بمثابة بـــديل عـــصري للمجـــتمع المدني على الطريقة العلمانية، ولكن ينبغي أن تكون ديمقـــراطية أيـــضا. ويعلق شديد على أن بعض الناشطين "يؤكدون على أن العمل الجماعـــي هـــو في الوقت ذاته واجب ديني وبرنامج سياسي ناجح. وبطبيعته، فإن ذلك العمل يمثل قوة ديمقراطية، يكتسب مشروعيته وحيويته من المجتمع بدلا من أن يفـــرض نفـــسه من فوق."[15] ومع ذلك فإن الأصوليين يمكن أن ينظروا بريبة إلى البنية الديمقراطية باعتبارها عائقا أمام الوحدة الإسلامية الحقيقية.

ومـــن شأن تحولات البنية السكانية أن تعقد مسألة وحدة الأمة. ففي المجتمع الإسلامي، وحتى في بعض دول الشرق الأوسط العربية، تعكس الحركة الإثنية اتساع قاعدة الإسلام. وفي هذا السياق يقول فيصل دوجي "بشكل عام، لقد وقع التهوين مـــن أهمـــية المـــسلمين غير العرب ومن الإسلام غير العربـــي بالنسبة إلى الشرق الأوسط... فوجود أعداد كبيرة من العمال غير العرب في شبه الجزيرة العربية، إلى جانب هيمنة المسلمين من غير العرب على صعيد بلورة الأفكار الإسلامية ونشرها عالمـــيا، وخاصة بلغات مثل الإنجليزية، يجعل من الفكرة القائلة بأن الشرق الأوسط العربـــي هو الموطن الأصلي للإسلام الراديكالي غير ذات معنى."

ويلاحـــظ دوجي أن في دبـــي على سبيل المثال، "يمكن للمرء أن يلتقي من يـــتكلم الأوردو أو السواحيلية في الأماكن العامة بنفس القدر الذي يلتقي فيه من يـــتكلم العـــربية" ويضيف، "إن العالم الجديد من العلاقات الاجتماعية وغيرها من

العلاقات التي تمثلها دبـــي هو ذات العالم الذي يتكون داخله الجهاد. وربما هذا ما يفسر السبب الذي يجعل الجهاد يعيد تشكيل الشرق الأوسط أو العالم العربـــي من خـــلال ســـرديات تخـــتلف عن تلك المرتبطة بالأمة أوالمنطقة باعتبارها كيانات ديموغرافية وجغرافية منفصلة تميزها ثقافات سياسية أو اقتصادية جماعية."[16]

إن تحديد ما إذا كان الدافع للجهاد يمكن رده إلى هذه المجموعة أو تلك، ليس إلا واحـــدا مـــن طـــرق فهمنا للتشابك الذي خلقته العولمة فيما بين الجماعات الإسلامية. وكل من قضى وقتا في الكويت أو قطر أو أية دولة من الدول الخليجية الأخـــرى، وبدرجة أقل في مناطق أخرى من الشرق الأوسط، لا بد أنه قد التقى بعدد كبير من المسلمين غير العرب الذين يتحدث عنهم دوجي. أغلبهم من جنوب آســـيا وأكثـــرهم لا يتقـــنون الحديث بالعربية، أولا يتحدثونها. هؤلاء هم أساس الصناعات الخدمية في المنطقة، والكثير منهم يقومون بالأعمال التي لا يرغب العرب الأصليون في القيام بها. وتعتبر السهولة التي يتنقل بها الناس من بلد إلى آخر بحثا عن العمـــل مـــن عناصـــر العولمة، ولهذه الظاهرة انعكاسات تتخطى إعاة تشكيل قوة العمل. ورغم أنهم في أحيان كثيرة ينظر إليهم على أنهم مقيمون من الدرجة الثانية (وعادة ممنوعون من المواطنة الكاملة)، فإنهم بصدد تغيير وجه الشرق الأوسط، تماما كما فعل مهاجرون آخرون في مناطق أخرى من العالم.

إن المعلـــومات مثل الناس، تتنقل بسهولة، وذلك يؤثر أيضا في طبيعة الإسلام الـــسياسية. فقـــد قدمت قنوات التلفزيون الفضائية وشبكة الانترنت الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين إلى جمهور عالمي. وبما أن شريحة مزودي المعلومات نمت بـــشكل أصـــبح يـــضم عـــددا أكبر ممن يحملون وجهات نظر إسلامية وداعمة للفلـــسطينيين، فإن أخبار هذا الصراع بات لها تأثير أكبر في الجماهير المسلمة. وقد قال ستيفن ب. كوهين (Stephen P. Cohen) "هذه الحرب الإسرائيلية – الفلسطينية ليـــست صـــراعا محليا ذا طبيعة إثنية فقط يمكن أن نتجاهله. إن صداه يتردد لدى ملايـــين كـــثيرة من الناس، مرتبطة بعدد كبير من قنوات التلفزيون الفضائية، ولها أسلحة كثيرة خطرة."[17]

ومن أمثلة هذا الاتساع وهذا الصدى: في ربيع 2002 خلص استطلاع للرأي أجرته مؤسسة زغبـــي أن 65% من الإندونيسيين اعتبروا فلسطين القضية "الأهم"

أو قـــضية "هامة جدا"، وفي سنة 2003 ذكر استبيان أجراه برنامج بيو للاتجاهات العالمـــية أن في إندونيسيا 68% من الذين أجابوا عن الاستبيان اعتبروا ياسر عرفات الرمـــز العالمي الذي يثقون به أكثر من غيره.[18] وقد كتب أيمن الظواهري، الرجل الـــثاني في تنظيم القاعدة، في كتابه "فرسان تحت راية النبـــي"، "الحقيقة التي ينبغي أن نعترف بها أن فلسطين هي القضية التي ظلت تلهب مشاعر الأمة الإسلامية من المغرب إلى إندونيسيا على مدى الخمسين عاما الماضية. إضافة إلى ذلك، فهي المحور الـــذي يحتـــشد علـــيه كل العرب، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، خيّرين أو أشرارا."[19]

يمكن للإعلام الاتصالي أن يجعل البعيد يبدو قريبا، خاصة عندما تقدم الأخبار في شكل تيار متواصل، وأحيانا في الوقت الحقيقي، ويعرضها عدد كبير من المزودين. في هـــذه الحالـــة يصبح الفلسطينيون جيرانَ الإندونيسيين، وداخل القرية العالمية، تجـــتذب محنة الجار كثيرا من الاهتمام. ولا يعني ذلك بأية حال أن منظورا سياسيا وحيدا سيسيطر عبر أنحاء العالم الإسلامي، أو أن الأولويات ستكون واحدة.

وحتى إذا حصل اتفاق على أهمية قضية معينة، فإن اختلاف القيم سيدفع إلى سلوك ممارسات مختلفة. يصف كوينتن فكتوروفيتش (Quintan Wiktorowicz) كـــيف كادت الحركة السلفية، التي تتمتع بحضور قوي داخل العربية السعودية، أن تتعرض إلى التفكك حين أرادت أن تدفع بتأثيرها إلى مناطق أخرى من العالم. ففي الشيـــشان، كما يقول "حيث تسيطر الممارسات الصوفية، تعارضت الأيديولوجيا الـــسلفية للمجاهـــدين العرب مباشرة مع الفهم المحلي للإسلام وتسببت في توليد التوتـــر بين الشيشان وحلفائهم العرب... ولم يكن الحوار بين القيادات الدينية في الشيشان والمقاتلين السلفيين ناجحا، ما أدى إلى صدامات بين الفصائل وإلى صراع دولي."[20] وفي الـــشرق الأوسط، توجد توترات بين الدول العربية، ويمكن لها أن تشتد أكثر حين يبدأ النظر إلى القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الأخرى على أنها أدوات لممارسة الدعوة. وقد لاحظت نعومي صقر (Naomi Sakr) أنه في أوائل تـــسعينات القـــرن الماضي "كان المعلقون المصريون يحذرون من الجهود السعودية الرامية لاستخدام الإعلام الفضائي لفرض (الرؤية السعودية القبلية للقيم الإسلامية) على الحياة السياسية والاجتماعية المصرية."[21]

وفي إندونيسيا، يمكن ملاحظة التصادم بين العالمي والمحلي حين وصلت الأفكار الإسلامية من الشرق الأوسط باعتبارها جزءًا من جهود بعض المسلمين الإندونيسيين لتعزيز الروابط بين الإسلام والسياسة والثقافة. وفي هذا السياق كتب أنطوني بوبالو (Anthony Bubalo) وغريغ فيلي (Greg Fealy):

"عاد بعض الطلبة الإندونيسيين الذين سافروا إلى الشرق الأوسط متأثرين بأفكار الإخوان المسلمين. وبعض التأثيرات الأكثر ضررا تم استيرادها أيضا من بعض الإندونيسيين الذين ذهبوا إلى أفغانستان في ثمانينات القرن الماضي وتسعيناته للمشاركة في "الجهاد" ضد السوفييت وربطوا علاقات مع قيادات القاعدة وأعضائها المستقبليين. ولكن أفكار الإسلاميين، وخصوصا الأصوليين الجدد وقع استيرادها أيضا من الشرق الأوسط. بالأساس فقد لعبت الأنشطة الدعوية التي تمارسها المنظمات الرسمية وغير الرسمية التابعة للمملكة العربية السعودية دورا محوريا في ظهور تيار سلفي داخل المجتمع الإندونيسي. وقد اختلف تأثير تلك الأفكار. فبعض عناصر التفكير الإخواني ساعدت حزب الازدهار والرفاه (بي كاي أس) على لعب دور إيجابي في الحياة السياسية الإندونيسية، رغم أن بعض أوجه البي كاي أس الأكثر سوداوية، لا سيما الآراء المعادية للسامية ونظريات المؤامرة المعادية للغرب التي يتبناها بعض أعضائه، تحمل تأثيرات قادمة من الشرق الأوسط. وكثير من المجموعات الإندونيسية المدعومة من السعودية تحصر نشاطها في مجال نشر قيم التقوى الإسلامية – ولو في شكل طهوري إلى حد ما – مع أن البعض شارك في صراعات طائفية عنيفة. والأخطر من كل ذلك هو تأثير القاعدة وبعض المصادر الشرق أوسطية الأخرى في توجهات المجموعة الإندونيسية الإرهابية (الجماعة الإسلامية) وعلى تقنياتها العملية."[22]

تلك الجهود الدعوية التي تنطلق من الشرق الأوسط وتتوجه إلى المسلمين في مناطق أخرى ليست جديدة، ولكنها تدعمت بشكل كبير بفضل انتشار وسائل الإعلام الدولية الواسع. ومثلما يحصل تقريبا مع جميع الناس في العالم، فإن انتشار الرسائل بفضل هذه الوسائل في أوساط المسلمين من شأنه أن يؤثر في سياق الحياة اليومية وفي التطلعات الفردية والاجتماعية بعيدة المدى.

فالمعلومات تغير الطريقة التي ينظر بها الناس إلى بعضهم البعض وإلى عالم الأفكار. إنها تغير مستوى التطلعات ويمكن أن تولّد نموا فكريا ورقيا روحيا. وذلك بدوره يمكن أن يقود إلى تغيير سياسي عميق، سواء في الاتجاه الإيجابي أو

الـــسلبـــي. ويمكن أن يكون الإسلام على أعتاب ذلك التغييرالذي يحمل في طياته انعكاسات من شأنها أن تؤثر في بقية مناطق العالم

الأمة الافتراضية

علـــى نطـــاق أوسع من كردستان الافتراضية، تخيل قيام دولة افتراضية على امـــتداد الإسلام المعولم. تقول لنا الحكمة التقليدية إنه رغم انتشار المعرفة بالقضايا التي تؤثر في حياة المسلمين عبر العالم، فإن "الأمة" باعتبارها كيانا منسجما، كانت وستظل، سرابا.

نظريا، ليس بين المسلم في عمان والمسلم في جاكرتا والمسلم في داكار والمسلم في تورنـــتو الكـــثير ممـــا يمكن قوله لبعضهم البعض لأن لغاتهم وثقافاتهم الوطنية وسياســـات دولهم تختلف اختلافا كبيرا، وهذه الاختلافات تفوق أيّ رابط توفره عقـــيدتهم الدينية المشتركة. ففي أعقاب السجال بشأن الرسوم الدنماركية سنة 2006، كـــتب كريم رسلان (Karim Raslan) من إندونيسيا "نعم، نحن جزء من العائلة الممتدة للمؤمنين، الأمة. ولا يمكننا إلا أن نشعر بمعنى التضامن مع إخواننا في الدين في دمـــشق وطهـــران أو القاهرة. ولكن تفجر الشارع العربـــي لا يجد صداه في أوساط شعوب المناطق المدارية. فالكثير منا لديه شكوك متزايدة بأننا مختلفون ثقافيا عـــن إخواننا الناطقين بالعربية وبالأوردو، ربما نحن أكثر تسامحا وأقل عاطفية."[23] يمكـــن أن يكـــون الأمـــر كذلك، ولكن هناك على الأقل وعي متزايد بالقضايا السياسية والدينية التي تؤثر في الإخوة في المناطق النائية. تختلف تلك القضايا المُلحّة بحـــسب مـــستوى القرابة التي يشعر بها الإخوة في الدين المنتشرون في مختلف أنحاء العالم، ولكن تدفق المعلومات يمكنه أن يخلق الاهتمام وعلى أقل تقدير، ينشئ رابطة مؤقتة. ومن تلك النقطة، يمكن أن تتطور علاقات أمتن.

وكما أشار دايل إيكلمان (Dale Eickelman) وجون أندرسون (Jon Anderson)، "المـــسلمون، بالطبع، لا يتصرفون باعتبارهم مسلمين فحسب بل من موقع المصالح الطبقـــية، ومن خلال شعورهم القومي، وباسم الشبكات القبلية أو العائلية، وبكل الدوافـــع المختـــلفة الـــتي تطبع العمل الإنساني، ومع ذلك فإن أعدادا كبيرة من المـــسلمين، وبـــشكل متـــزايد، يفسرون أهدافهم بلغة الإسلام القيمية."[24] هناك

اختلافات كثيرة بين المسلمين، ولكن أجزاء الإسلام المعولم يمكن جمعها معا بطريقة غـــير مسبوقة بمساعدة وسائل الإعلام التي تعزز قيمة الاشتراك في الإسلام باعتباره عاملَ توحيد مهيمن.

وبلغـــة السياسة فإن الحد الأدنى هو التالي: إذا كان بإمكان قنوات التلفزيون الفـــضائية وشبكة الانترنت أن تخلق مناخا يساعد على انتشار الخطاب الإسلامي وتوفـــر منبرا يمكن أن ينشأ على أساسه مستوى جديد من الانسجام داخل "الأمة" وبـــين أبنائها البالغ عددهم 1,3 مليارا، فإن الموازين الجيو سياسية الدولية يمكن أن تشهد تغييرا جوهريا.

ولاشـــك أن صـــانعي السياسة الغربيين سيكونون على قدر من الحكمة إذا ما اعتـــبروا حجم التغيير الذي يمكن أن تحدثه "أمة" موحدة ولو جزئيا في اتجاه خلق عالم مخـــتلف تمامـــا. في الولايات المتحدة على سبيل المثال، عندما ينظر الجمهور والقيادات السياسية إلى الإسلام، فإنهم غالبا ما يسقطون في الفهم المبسط حيث يبدو "المسلمون" و"العـــرب" متـــرادفين، وبالـــتالي فهم لا ينظرون إلى ما وراء الشرق الأوسط وشمال أفـــريقيا. يمكن لـــ 280 مليون عربـــي يعيشون في منطقة واضحة الحدود إلى حد ما أن يـــبدوا ككيان قابل للتحكم حيث تكون المقاربة السياسية القائمة على مبدإ قياس واحد يسع الجميع أمرا معقولا. وبالطبع، حتى بالنسبة إلى العالم العربـــي وحده، تعتبر هذه المقاربة ساذجة إلى حد الخطر، إذ أن الاختلافات ما بين العرب في طنجة والعرب في الدوحـــة يمكن أن تكون جوهرية. والأهم من ذلك، فإن المأساة المتواصلة في العراق تجسد الآثار المدمرة للعداوة التي تمت إثارتها بكل سهولة بين السنّة الشيعة.

يكمـــن الخلل الأساسي في هذه الرؤية الضيقة للعالم في عدم قدرتها على فهم أن المجتمع الإسلامي أوسع بكثير من الشرق الأوسط. فالإسلام المعولم يبلغ حجمه أكثر من أربعة أضعاف العالم العربـــي موزعين في مختلف أنحاء العالم. وإذا أرادت هـــذه المجمـــوعة الضخمة أن تحقق مستوى معقولا من الوحدة، فإن قوتها المتوقعة يمكـــن أن تكون هائلة. وعندها، فإن بلورة سياسة للتعامل مع أمة الإسلام ستكون مهمة أكثر تحديا.

ولم يعـــد ذلك الاحتمال بعيدا كما كان يبدو في الماضي، ويعود ذلك أساسا إلى مـــا يتمتع به الإعلام الجماهيري الجديد من سرعة ومن اتساع في الاستخدام.

ولـــنا في تـــصاعد الغضب إزاء تقرير النيوزويك سنة 2005 عن تدنيس القرآن في غوانتـــنامو، المعـــتقل الأمريكي في كوبا، والانتشار السريع للجدل بشأن الرسوم الكـــرتونية الدنماركـــية، دليل على كيفية وصول ترددات ما يقال على التلفزيون وعلى شاشات الحاسوب بسرعة فائقة إلى أبعد أنحاء العالم الإسلامي.

لقد تعززت إمكانات تحقيق الانسجام عبر الإعلام بطبيعة الانترنت والقنوات الفـــضائية. فالمنتمون إلى مجموعة متفرقة، حيثما كانوا، يمكنهم جمع المعلومات من عـــدد كبير من المصادر بدءًا بالجزيرة وانتهاءً بالمدوّنين الأفراد. وإضافة إلى شعوب البلدان ذات الأغلبية المسلمة، فإن المجتمعات المسلمة التي اقتلعت من جذورها والتي تعـــيش في أوروبا وفي مناطقَ أخرى من العالم، ربما لها رغبة خاصة في الارتباط بما تقدمـــه وســـائل الإعـــلام والذي يشكل لديهما معنى للانتماء ويوفر لها روابط الكترونية بالوطن والدين.

وليس معروفا بعدُ كيف سيؤثر ذلك في عملية تكيف المسلمين الذين يعيشون في بيـــئات غير إسلامية. يمكن لذلك أن يوفر لهم حزام أمان يجعل سكنهم الجديد وسط ثقافـــة مختلفة يبدو أقل تهديدا بفضل الروابط المتواصلة مع العالم الإسلامي الأوسع عبر وسائل الإعلام. أو ربما تجعل تلك الروابط الافتراضية الوطن السابق يبدو أكثر قربا وفي المتناول بحيث يصبح الاندماج في المجتمع الجديد أقل ضرورة وجاذبية.

وأحد الأسباب الكامنة وراء الغموض الكبير في طبيعة الروابط الإسلامية هو أن المواقـــف إزاء الهوية الإسلامية تختلف من بلد إلى بلد، حتى في المجتمعات ذات الأغلبـــية المـــسلمة. وكان استبيان لمشروع بيو حول الاتجاهات العالمية نشر سنة 2005 قـــد ســـأل: "هل تعتبر نفسك مواطنا قوميا أولا أم مسلما أولا؟" فجاءت إجابات مسلمين من ست بلدان على النحو التالي:

باكستان: مواطن قومي 7%؛ مسلم 79%

المغرب: مواطن قومي 7%؛ مسلم 70%

الأردن: مواطن قومي 23%؛ مسلم 63%

تركيا: مواطن قومي 29%؛ مسلم 43%

إندونيسيا: مواطن قومي 35%؛ مسلم 39%

لبنان: مواطن قومي 30%؛ مسلم 30%.[25]

تبين هذه النتائج المتأثرة بالخصائص السياسية والثقافية لكل بلد على حدة، أن قوة الهوية الإسلامية ليست متطابقة. كما تبين هذه الاختلافات أن التغييرات يمكن أن تحدث داخل البلد الواحد حسب السياسة المتبعة في لحظة معينة أو حسب طبيعة الأحـــداث الجارية، وربما يساهم في ذلك الطريقة التي تغطى بها الأخبار وتقدم بها المعلـــومات سواء على شبكة الانترنت أو من أي مصادر أخرى. ويبدو أن النتائج المسجلة في لبنان، على سبيل المثال، عكست الأحداث الوطنية التي كانت تهز ذلك البلد في الفترة التي أجري فيها الاستبيان. وقد ساعدت المدوّنات ومواقع الانترنت، إلى جانب وسائل الإعلام التقليدية على تأجيج الحراك السياسي الوطني هناك، وقد بات ذلك جليا عقب اغتيال رفيق الحريري في عام 2005.

وبالنظر إلى اختلاف الديناميات الاجتماعية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فـــإن التغـــيير يـــبدو أقرب من استمرار الوضع الراهن. وربما يكون إنشاء جسور إعلامـــية لتعزيز التماسك الإسلامي أحد وجوه ذلك التغيير الذي غالبا ما سيكون مرحّبا به بشكل خاص من أولئك المسلمين الذين يعتقدون أنهم يتعرضون إلى تهديد متزايد من العالم غير الإسلامي.

إن التقـــريب بـــين مكونات "الأمة" ليس فكرة جديدة. ففي القرن العشرين كانـــت بعض الشخصيات أمثال حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، قد أرست قواعد ذلك. وقد بدأ البنّا نشاطه في عشرينات القرن الماضي وسرعان ما أصبح رائدا لحركة "أسلمة المجتمع." وقد مثلت حركته حسب رضا أصلان (Reza Aslan)، "أول محاولة معاصرة لتقديم الإسلام باعتباره نظاما شاملا للأبعاد الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فالإسلام، في نظر البنّا، أيديولوجيا متفوقة على كل ما سواها من أشكال التنظيم الاجتماعي التي عرفها العالم."[26] كما دعا سيد قطـــب، وهو إسلامي مصري آخر، إلى "أمة موحّدة بالمعنى الحديث للأيديولوجيا الـــشعبية العابـــرة للحدود."[27] والآن، وبعد أقل من أربعة عقود على وفاة سيد قطـــب، اكتسبت عبارة "عابرة للحدود" معنى أوسع بعدما أعيدت صياغة المفهوم بالتكنولوجيات التي قلّصت من أهمية الحدود التقليدية. وكان أوليفيه روي قد أشار إلى أن "الأمـــة" "لم تعـــد لها أية علاقة بكيان جغرافي محدد. وينبغي أن يتم التفكير فيها بالمعنى المجرد أو التخيلي."[28]

يتأســـس فهـــم روي على حقائق الإعلام الجديد والقدرة على الوصول إلى المعلـــومة. وإذا كان التلفزيون الفضائي عابرا للحدود، فإن الانترنت يمكن اعتبارها فوق – حدودية لأن الحدود داخل الدول وفيما بينها ليست اعتباطية بالكامل، أما في العـــالم الالكتـــروني، فلا حاجة إلى الاعتراف بها أصلا. ولدينا مثال يبين كيف تتجـــسد هـــذه النظـــرية علـــى أرض الواقع، وهو نجاح موقع إسلام أون لاين (www.islamonline.net)، الذي يقدم الأخبار، والمعلومات العامة حول الإسلام، و"الـــشريعة الحية"، كما يقدم "فتاوى مباشرة" وغيرها، وكل ذلك متاح باللغتين العربية والإنجليزية. (ولكل من الموقعين العربـــي والإنجليزي فريق مختلف، ومحتوى مخـــتلف، وجمهور مختلف، ونادرا ما يترجم أحد الموقعين موادَّ من الموقع الآخر.) ويـــضع الموقـــع مـــن بين أهدافه: "تقوية روابط الوحدة والانتماء بين أفراد الأمة الإسلامية، ودعم عملية التبادل المعرفي والتمازج الثقافي بينهم. توسيع دائرة الوعي بمـــا يدور من أحداث وتطورات مهمة عربياً وإسلامياً ودولياً. تعزيز الثقة وإشاعة روح الأمل لدى المسلمين."[29]

وببـــساطة، لم يكن ممكنا لمثل هذا الترابط داخل "الأمة" أن يحدث في غياب وســـائل الإعلام الجديد. ففي أوائل عام 2006 كان متوسط عدد من يطلعون على صـــفحات موقـــع إسلام أون لاين يصل إلى 13 مليون في الشهر، بينما يبلغ عدد الزائـــرين القراء إلى 5،1 مليون، وقد أرادت الإدارة زيادة هذا العدد بتوفير محتوى الموقـــع بلغات إضافية مثل الفرنسية والتركية. ويشغل إسلام أون لاين حوالي 300 موظـــف يعمل أغلبهم في القاهرة، ويستخدم مواد تأتيه من حوالي 1500 مراسل وعالم دين ومشاركين آخرين، كثير منهم ليسوا مسلمين. بالنسبة إلى نسخة الموقع الإنجليـــزية الـــتي تجتذب نحو 25% من نسبة المتصفحين، نصف عدد الجمهور من الـــولايات المتحدة. ويتضمن جزء من أجندة إسلام أون لاين العمل مع المنظمات الدولـــية. فطـــاقم الموقع الخاص بقسم الصحة والعلم على سبيل المثال يتعاون مع الفيدرالـــية الدولية للصحفيين المختصين في الشؤون العلمية، بهدف تطوير مهارات الصحفيين المشتغلين في هذا المجال حول العالم.

بالنـــسبة إلى موقع إسلام أون لاين وأمثاله من وسائل الإعلام الأخرى، تعتبر تـــرجمة المواد التي يقدمهونها شرطا أساسيا للوصول إلى جمهور عالمي بالفعل. فقد

صنعت الجزيرة اسمها عبْر نشراتها باللغة العربية، ثم جلبت الانتباه أكثر حين أعلنت عن خططها لإطلاق قناة ناطقة بالإنجليزية. كان هناك نقاش عام بالغ الأهمية، خاصة في العالم غير الإسلامي، حول طبيعة محتوى هذه القناة ونبرتها السياسية، وكيف يمكن أن تختلف عما عرفت به القناة العربية، وكيف ستستقبلها الجماهير والحكومات الغربية. وبسبب العداء الذي تكنّه بعض الجهات للجزيرة – لا سيما الإدارة الأمريكية – فقد كان يُنظر إلى اتساع نطاق تأثير الجزيرة بشيء من الريبة، رغم أن القناة الجديدة، كما ظهرت، تشبه سي أن أن أو بي بي سي أكثر مما تشبه شقيقتها الناطقة بالعربية.

وبينما كان النقاش دائرا بهذا الصدد، ثم تأجّل إطلاق الجزيرة الإنجليزية لأسباب فنية (والبعض من الداخل يقولون بسبب التوتر بين صحفيي القناة العربية وزملائهم من صحفيي القناة الإنجليزية وأغلبهم من غير العرب)، أعلنت إدارة المؤسسة الأم بهدوء عن أملها في إطلاق قناة الجزيرة الناطقة بالأوردو. ويتوقع أن يشرف مكتب الجزيرة في باكستان على ترجمة مادة هذه القناة وتحرير محتواها الذي سيتكون بالأساس مما تبثه القناة العربية وتتم دبلجته إلى الأوردو ليقدم إلى جمهور يقدر بـ 110 مليون مشاهد، وهو تقريبا ثلاثة أضعاف عدد مشاهدي القناة العربية. وتخطط الجزيرة إلى جانب ذلك لإطلاق منتجاتها بلغات إضافية مثل اللغة التركية. وعلى الأغلب، لن يبدأ التوسع في هذا الاتجاه قبل أن تثبت الجزيرة الإنجليزية أنها قادرة على جلب المداخيل وأن تضمن شبكة الجزيرة بشكل عام قاعدة تمويلية صلبة.

ومع ذلك، تستحق التداعيات السياسية الممكنة لهذه المشاريع المستقبلية أن يأخذها صانعو السياسة بعين الاعتبار. وإذا قبلنا جدلا بالحجة (وهي قابلة للنقاش)، القائلة بأن تغطية قناة الجزيرة العربية تتسم بالتحيز ومعاداة أمريكا بما يثير "الشارع العربي" ضد أمريكا وبقية المصالح الغربية، فإن وصول تلك التغطية إلى جمهور إسلامي إضافي هائل يمكن أن يؤثر بشكل حاسم في المنافسة الأوسع على كسب الرأي العام العالمي. وإذا كانت تلك التغطية تدعم عقلية "نحن ضد هم" بين مشاهديها، فإن بإمكانها أن تزيد من تعقيد الطبيعة العدائية لعلاقتهم بالغرب اللا-الإسلامي – وهي مسألة أخرى على واضعي خطط السياسة الأمريكية أن يزِنوها

بدقة. إن الحس السليم يدعو إلى إعادة النظر في علاقة الحكومات الغربية بالجزيرة، باتجاه التركيز أكثر على التعاون والتقليص من العداوة، غير أنه لا توجد أدلة كثيرة على أن الحس السليم سينتصر.

بقطع النظر عما يفعله الغرب، فإن تأثيرات ذلك الإعلام المعولم يمكن أن تغذي حالة الإحباط التي يعيشها بعض المسلمين تجاه المواطنة بمعناها العلماني داخل دولهم. كما يتساءل أوليفييه روي، "ماهي أرض المسلم الحقيقية، في الوقت الذي يعتبر فيه الكثير من المسلمين الراديكاليين أن كل الأنظمة التي تحكم البلاد الإسلامية غير شرعية؟"[30] بالنسبة إلى المسلمين الذين يشعرون بولاء أكبر للإسلام ذاته يفوق ولاءهم لأي وطن بعينه، يمكن أن تصبح "الأمة" كدولة عظمى هي "أرض المسلمين الحقيقية"، ولا يهم إن كان ذلك واقعيا أم لا.

في مجتمع افتراضي، يقول جون أندرسون، تلعب الانترنت دور "فضاء عام جديد، يمكّن طبقة جديدة من المؤولة، الذين تيسر لهم استخدام هذه الأداة، من مخاطبة، وبالتالي إعادة تأطير، سلطة الإسلام وتعبيراته بالنسبة إليهم باعتبارهم أفرادا وإلى كل من يدخل ذلك الفضاء." فالفضاء الافتراضي، يضيف أندرسون، لا يسهِّل علاقة المتحدث – الناشط ضمن المؤسسات القائمة، وإنما يستخدم بدلا من ذلك طائفة أوسع من مؤولي الإسلام الجدد، أو المؤولين الذين أصبحوا ظاهرين."[31]

من بين هؤلاء يوسف القرضاوي الذي تمكّن، عبْر حضوره على شاشة الجزيرة وفي موقع إسلام أون لاين، من تأكيد ذاته باعتباره أحد أشهر الرموز العامة في العالم الإسلامي. ولد القرضاوي في عام 1926 ودرس علوم الدين في جامعة الأزهر وقضى فترة من الزمن في السجون المصرية بسبب علاقاته بالإخوان المسلمين. كتب عن الإحياء الإسلامي – تباع كتبه العديدة بمئات الآلاف – وركز على أهمية دور العلماء، الذين يعلّمون الأمة الإسلامية دينها، باعتبارهم قادتها. ويعدّ القرضاوي رائدا لتيار استقلالية العلماء حجته أن الإسلام يحتاج إلى حرية الفكر والنقاش.[32]

لقد أثبت القرضاوي قدرته على تكييف رسالته لتستجيب لشروط الإعلام الجديد. كما لاحظ أندرسون، "إنه أصولي تماما في فهمه الديني ولكنه يعبر عن ذلك بأدوات حديثة تجتذب جمهورا عابرا للقومية بين المهنيين من الطبقات

الوسطى."[33] ولا يعني استخدام الوسائل الحديثة كونه معتدلا، فقد أيد القرضاوي التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين باعتبار ذلك تكتيكا مشروعا في سبيل استعادة الأرض الإسلامية.[34] ومع ذلك فقد أصدر فتوى تدافع عن الديمقراطية لا باعتبارها كفرا، بل هي نظام يمنح الناس الحق الفعلي في اختيار حكامهم دون إكراه وفي مساءلتهم وعزلهم. وفي مناسبة أخرى أدان أبا مصعب الزرقاوي، قائد القاعدة في العراق، واعتبره قاتلا.[35]

وأيا كانت آراء القرضاوي حول قضايا بعينها، فهو دون شك يتمتع بنفوذ أكبر نظرا لكونه شخصية إعلامية. وقد تدعمت سلطته باعتباره الـ "مفتي العالمي" بما تتيحه له قنوات التلفزيون الفضائية وشبكة الانترنت من حضور متكرر وقدرة كبيرة على الانتشار. يمثل القرضاوي، إلى جانب عديد الشخصيات العامة الأخرى مجموعة دينية – سياسية تتسع دائرتها باستمرار وتستخدم وسائل الإعلام الجديد استخداما متطورا. وقد لاحظ غاري بنت (Gary Bunt) أنه "بالنسبة إلى النخب، أصبحت الانترنت تشكل جزءًا من إطار ديني مفاهيمي، يقوم على استخدام الرموز، والكلام الإلهي، والنصوص المقدسة، والقوة لإلهام الأفراد وتحفيزهم سواء على صعيد ممارستهم الشخصية أو على صعيد الأهداف الدنيوية والمقدسة على نطاق أوسع... لقد أصبحت أعداد متزايدة من الناس تنظر إلى دينها وإلى موقعها في العالم الإسلامي عبر الوسيط الرقمي."[36]

إن القرآن عامل محوري في الحضور الالكتروني للإسلام. ويعود ذلك إلى حد ما إلى وظيفة الدعوة، أي حشد الناس للإيمان بالدين، أو كما يرغب البعض في تعريفها، وعظ المؤمنين من أجل العودة إلى الإسلام الأصيل والنقي. (الذين يتبنون المقاربة الثانية يبدو أنهم لا يرون أية غضاضة في استخدام الانترنت لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء.) حتى المواقع التي تقدم الأخبار والمواد الخفيفة تركّز بدرجة أولى على الدين نفسه. فموقع إسلام سيتي (www.islamcity.com) يبث "إذاعة الإسلام" التي تقدم الآذان، وقراءة القرآن، ويوفر أدوات للبحث في معاني القرآن وحفظ نصه، إلى جانب تحديد مواقع المساجد وأوقات الصلاة المحلية.[37]

وعلى عكس الكتب المقدسة للديانات الأخرى، يعتبر القرآن كلام الله الذي لم يحرّف، أي كما نزل على رسول الله محمد الذي تلاه، وتلك هي حقيقة

طبيعـــته المقدسة. وتظل تلاوة القرآن مسألة محورية في الممارسة الإسلامية، ولذلك عـــندما يُبث أو يُعرض الكترونيا فإن جمهورا واسعا يتفاعل مع كلماته وإيقاعاته. كما يجلب نداء المؤذن المصلين إلى المساجد، يجمع نداء القرآن أو تلاوته عبر وسائل الإعلام أبناء الأمة الافتراضية.

بدأ استعمال الانترنت لخدمة القرآن منذ حوالي عقدين من الزمن. وقد لاحظ جـــون و. أندرسون أن "الإسلام دخل العالم الالكتروني في ثمانينات القرن الماضي عـــن طريق طلبة من البلدان الإسلامية درسوا وعملوا في بعض المؤسسات التقنية المـــتطورة حيث كان يتم تطوير أو توسيع مجال استخدام التكنولوجيا... لقد كان جلبهم للاهتمام بالإسلام الكترونيا عبارة عن ممارسة للتقوى من قبل شاهد في بيئة عمـــل جديدة." ولتطوير محتواهم الالكتروني في البداية، شكّلوا "مجموعات نقاش امتزج الحوار داخلها بين الدين ومسائل تطبيق النصوص على الحياة المعاصرة وعلى ما يطرأ لمسلمي المهجر من قضايا تتراوح بين البحث عن أماكن للعبادة، والمكتبات الإســـلامية، ومحلات بيع اللحم الحلال، إلى أخبار الوطن، والرحلات الجوية بثمن زهيد، وحتى ترتيبات الزواج الإسلامي." ثم تم توسيع نطاق هذا المحتوى "ليتضمن نشرات إخبارية رقمية، غالبا ما كانت توجَّه إلى أبناء جنسية معينة، أو تركز على الجالـــيات المسلمة في بلدان أوروبية بعينها." وكان المحتوى في أحيان كثيرة "خطابا مـــركّبا" أغلـــبه باللغة الإنجليزية وأحيانا بالفرنسية مع النقل الحرفي إلى لغات مثل العـــربية والفارسية وغيرهما من اللغات الأخرى.[38] وقد نمت تلك الجهود المبكرة لتـــشكل لاحقـــا حضورا الكترونيا متطورا، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال الاطّلاع على كثير من المواقع ذات المحتوى الإسلامي التي نصل إليها بسهولة. وبعد بحث سريع على غوغل تظهر لنا عدة آلاف من تلك المواقع.

يكتـــسي المنبر الرقمي، أو الالكتروني أهمية خاصة لدى المهاجرين المسلمين. وتجـــدر الإشارة إلى أنه حتى في مراكز الهجرة الإسلامية البعيدة مثل باريس ولندن ونـــيويورك ســـرعان ما يتم تعيين الأئمة وإقامة المساجد، حتى لا يظل المسلمون المقـــيمون هناك يعتمدون فقط على الروابط الافتراضية من أجل قضاياهم الدينية. ومـــع ذلك، ولكون الخدمات الالكترونية تمثل قاعدة للإسلام المعولم، فهي تتمتع بجاذبية خاصة: إذ تربطهم بماضيهم المفعم بالحنين وتخفف عنهم غربتهم.

في الواقع، ربما كانت الصعوبات الاقتصادية والصراعات السياسية قد جعلت حياة السابقين أقل جاذبية مما تبدو عليه في الذاكرة. ومع ذلك، يمكن للإعلام الجديد أن يبني جسرا مناسبا عبر الزمان والمكان بحيث يصبح الموقع الالكتروني أو القناة الفضائية أداة عزيزة تربطنا بـ "وطن" حقيقي أو متخيل. وكما قال بيتر ماندافيل (Peter Mandaville)،" من المرجَّح أن تلعب وسائل الإعلام الجديد دورا متزايد الأهمية بين الشباب المسلم الذين ولدوا ونشأوا في الغرب، لأنهم يبحثون عن فضاءات ولغات تساعدهم على بناء إسلام ملائم في الوقت نفسه لوضعهم الاجتماعي – الثقافي ومتحرّرا من هيمنة المصادر التقليدية للتأويل والسلطة." ولاحظ ماندافيل أيضا أن "الانترنت وتقنيات المعلومات الأخرى توفر، أكثر من أيّ شيء آخر، مجالات يمكن للمسلمين، الذين غالبا ما يجدون أنفسهم في وضع الأقليّة المهمشة أو المتطرفة في كثير من المجتمعات الغربية، أن يذهبوا إليها بحثا عن آخرين "مثلهم."[39]

ويبين تناول الجزيرة لبعض القصص الإخبارية كيف يمكن للصحافة المعولمة أن تؤثّر في الإسلام المعولم. كتب سام شريبي (Sam Cherribi) أن الجزيرة استخدمت تغطيتها لقضية منع الحجاب من المدارس الفرنسية "لبناء هوية إسلامية عالمية (و) تعبئة رأي عام مشترك." وحسب شريبي، قدمت الجزيرة قضية الحجاب في تقاريرها من 2002 إلى 2005 "لا باعتبارها مشكلا للفتيات والنساء في المدارس في فرنسا فحسب؛ بل هو مشكل يتعرض له المسلمون نساء ورجالا في مختلف أنحاء العالم." فتغطية الحجاب، كما قال، هي جزء من "رسالة حضارية" تنقلها الجزيرة، في هذه الحالة لأن "الحجاب يمنح على الفور الاعتراف بالمغايرة: فغير المسلمين لا يحملونه." ويرى شريبي أيضا أن الجزيرة قناة دينية، أقرب إلى شبكة البث المسيحية (CBN) منها إلى سي أن أن، بأجندة تركّز على الإسلام حتى بشكل يفوق العروبة."[40]

وعلى العكس من ذلك، يرى آخرون أن محتوى الجزيرة متوازن نسبيا عندما تتناول قضايا دينية، فهي تعكس تعقيدات الشبكة العنكبوتية للإسلام والعروبة التي تمثل في جزء منها عقلية الكثيرين ممّن يعيشون في العالم العربي ويشاهدون القناة.

إلى جانب التغطية الخبرية لأحداث بعينها، تكمن أهمية وسائل الإعلام الجديد في توفيرها ساحة ستكون مسرحا للتنافس حول تحديد مستقبل الإسلام. وهذا

يحـــدث علـــى مستويات عدة: نقاش عقدي بين المعتدلين والمحافظين حول تحديد عقائـــد "الإســـلام الحقيقي" وممارساته، وجدل سياسي بشأن موقف الإسلام من العـــالم غـــير الإسلامي. وبالنسبة إلى أولئك الذين يرون أن الإسلام ليس طرفا في صـــدام الحـــضارات وإنما هو يمر بمرحلة صراع داخلي لتحديد وجهته، فإن العدد الهائـــل مـــن المواقع الإعلامية – خاصة الالكترونية – يوفر الفرصة لمتابعة مختلف الأطراف وهي تعرض قضاياها.

وبالنسبة إلى عملية تحديد هذه الوجهة، فإن الانترنت والقنوات الفضائية تعيد تـــشكيل التراتبية التقليدية وتتجاوزها. وقد لاحظ روبرت هفنر أن "العلماء الذين بسطوا سيطرتهم طويلا على التقاليد الدينية أفاقوا ليجدوا أنفسهم في مواجهة طيف جديـــد مـــن المـــتحدّين بما في ذلك المفكرون المسلمون الجدد الذين تلقّوْا تعليما علمانـــيا، الـــدعاة المـــستلقون، إســـلاميو الانترنت، وآخرون ممن استفادوا من التكنولوجيات الجديدة ومن المنظمات."[41]

كتبت ميرلينا ليم أنه من خلال زيادة عدد الأصوات التي يمكن لجمهور واسع أن يستمع إليها، فإن الانترنت:

"تعـــزز آفاق بناء نمط من الاتصالات يقوم على المساواة يتمتع فيه كل صوت تقريبا بـــنفس القدر من الأهمية، التي تتمتع بها الأصوات الأخرى. وبالنسبة إلى مستخدمي الانتـــرنت من المسلمين، تفتح هذه الإمكانية المجال للتعامل مع الدين دون أية سلطة عـــدا ســـلطة القرآن والحديث. وبالتعلم مما يعرض على الانترنت، يمكن للناس أن يـــشعروا بـــأنهم حـــصلوا على ما يكفي من المعرفة الإسلامية لتوجيههم عند اتخاذ القـــرارات الهامـــة في حياتهم، دون أن يضطروا للرجوع إلى العلماء التقليديين مثل الأئمـــة أو أولئك الذين يعلمون الإسلام في المساجد المحلية. في الوقت نفسه، يمكن للمجمـــوعات الأصـــولية اســـتخدام الانتـــرنت لتجاوز السلط المحلية – والسلط الوطنـــية/الجهـــوية، مـــثل الإمام أو القيادات الدينية المحلية، والأولياء – والوصول مباشرة إلى المسلمين العاديين في الفضاء الالكتروني."

ومثالا على ذلك، تقول ليم، "إن الاتجاه الاختزالي، وبساطة الروايات القائمة على نظرية المؤامرة، والسلفية الجهادية تتلاءم أكثر مع الطبيعة الجماهيرية للانترنت. لذلك نفهم لماذا يبدو هذا النوع من الرسائل أكثر شعبية في الفضاء الالكتروني حتى منه في وسائل الإعلام الأخرى."[42]

بهذه الطريقة تتم إعادة تشكيل بنية الإسلام وماهيته عن طريق وسائل الإعلام الجديد. الوجه الآخر لتأثير الانترنت في الدين هو تغير دور اللغة العربية. فعلى غرار اعـــتماد الكنيسة الكاثوليكية على اللاتينية طيلة قرون، بصرف النظر عما إذا كان الـــناس يفهمونها، يصر الكثير من العلماء المسلمين على أن العربية هي لغة الإسلام الحقيقـــية لأن محمدا كان يتكلمها، لذلك فإنه يتعين حتى على الناطقين بغير العربية أن يتعلموا منها على الأقل ما يكفي لتمكينهم من تلاوة أجزاء من القرآن. نظريا، مـــن شأن اللغة المشتركة أن تدعم الوحدة الإسلامية. وكما لاحظ فيصل دوجي، فإن "العربية لم تتجاوز حدودها الإقليمية فحسب، وإنما هي أيضا تغيّر المناطق التي تـــستخدم فيها. فتصبح هذه المناطق ممثلة لعالمية إسلامية تمتد إلى أقصى أنحاء الكرة الأرضية."[43]

إن وجود لغة واحدة يمكن لجميع أبناء الأمة التخاطب بها، من شأنه أن يجعل الانسجام ممكنا أكثر، ولكن أن يتخذ الجميع لغة واحدة للتخاطب اليومي، فذلك أمـــر غير واقعي. إن ذلك ليس من طبيعة عالم اليوم، وبالتالي فالاعتماد على اللغة العـــربية وحـــدها يعتـــبر تضييقا كبيرا، ومن أسباب ذلك أن أغلب المسلمين لا يـــتكلمونها. وعلى حد تعبير دايل إيكلمان وجون أندرسون، "بينما لا تزال العربية لغـــة تخاطـــب عالمية في مستوى من المستويات، فإن اختلاف اللغات داخل العالم الإســـلامي يحـــد بـــشكل كـــبير من تداول الأفكار. فبعض المفكرين المسلمين الإندونيـــسيين الذين تدربوا مرارا في الولايات المتحدة وكندا يواكبون ويناقشون الـــتطورات التي تحدث في العالم العربـــي، بينما لا يوجد مفكرون عرب يواكبون النقاشـــات الـــتي تدور حول الحياة الفكرية والسياسية الإسلامية في جنوب شرقي آسيا."[44]

وبمـــا أن الانترنت توفر المعلومات بعدة لغات لا سيما الإنجليزية، فقد تقلص الاعـــتماد على العربية بينما اتسع الجمهور. وقد جاء على لسان جوسلين سيزاري (Jocelyne Cesari)، أن التخلي عن العربية وبعض اللغات الموروثة الأخرى "أدّى إلى نـــشوء أشكال "عامية" من الإسلام في أوروبا وأمريكا، حيث يتزايد استخدام اللغـــة الإنجليـــزية في الخطب والأدب الديني والنقاشات العامة، ما جعل الإنجليزية تصبح لغة المسلمين الثانية على صعيد الأمة كافة."[45]

يمكن للمحافظين أن يتباكوا على غياب الحافز على تعلم اللغة العربية، ولكن اتساع عدد اللغات المستخدمة لنشر المعلومات من شأنه أن يكسب عددا أكبر من الناس الشعور بأنهم حقيقة جزء من "الأمة" وبإمكانهم المساهمة في تعزيز الانسجام بالاستفادة مما تتيحه تكنولوجيات الاتصال الحديثة. ويكتسي قبول الاختلاف اللغوي هذا أهمية بالنسبة إلى المواقع الالكترونية والمدوّنات، التي حققت نموا لافتا في وقت قصير على صعيد عددها وتنوع رؤاها.

وأيا كانت اللغة التي تستخدم في تقديم المحتوى الالكتروني، فإن الانترنت تمد الجمهور القديم والجديد بعمق ديني وسياسي إضافي. ففي إندونيسيا، تقول ميرلينا ليم، "لعبت الانترنت دورا حاسما في إضفاء الشرعية السياسية وإدامتها، وفي دعم المقاومة وتعزيز مشاريع بناء الهوية في أوساط الأصوليين الإسلاميين... لقد أصبحت الانترنت عاملا رئيسا في تشكيل الهوية – يسمح للمستخدمين بالوصول إلى المصادر العالمية للمعلومات مع تأويل تلك المعلومات وفقا لسياقات الهوية المحلية بالاعتماد على نقاط التقاء ومصادر أساسية."[46]

فالصوفية، التي ينتقدها بعض الأصوليين باعتبارها غير إسلامية بينما أنصارها يقولون إنها تمثل الجوهر الحقيقي للإسلام، بدأت كل مبادئها تطرح للنقاش كما حققت حضورا متزايدا بفضل الإعلام الجديد. يقول كارل أرنست (Carl Ernst)، إن المواقع الصوفية على الانترنت أطلقها بالأساس فريق واحد من الحركة الصوفية: "ينتمي أعضاؤه إلى طبقات عالمية: إما قيادات صوفية مهاجرة أسست قواعدَ جديدة لها في أمريكا وأوروبا، وإما تكنوقراط مهاجرون صادف أن كانت لهم روابط نسب مع بعض الصوفية، وإما أوروبيون وأمريكيون اعتنقوا التصوف بشكل أو بآخر."

يلاحظ أرنست أن أحد قيادات الصوفية في جنوب شرقي آسيا، حين سُئِل إن كان يرغب في إطلاق موقع على الانترنت، أجاب "نحن لسنا تجارا نعرض بضاعتنا في السوق... الناس هم الذين يأتون إلينا." ولكن أتباعه الماليزيين أطلقوا موقعا الكترونيا يبيعون عبره مطبوعات باللغة الإنجليزية من تأليف رواد الطريقة."[47]

إعادة رسم الخارطة والسياسة الخارجية

عندما تبلور الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى سياساتها، فإنها غالبا لا تأخذ بعين الاعتبار الثقافة السياسية المتطورة والقوة التي تتمتع بها الدول الافتراضية. وعند وضع الاستراتيجيات المتعلقة بالتعاطي مع الدول والشعوب الإسلامية، فإن واقع الأمة الحقيقي يتم تجاهله بينما تُكرّس الجهود لمواجهة "الشارع العربي" (دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تحديد ما يمكن أن يعنيه الشارع العربي) ولا يعيرون للإسلام خارج العالم العربي إلا قليلا من الاهتمام.

قبل خمسين عاما، كان من السهل إنكار وجود الأمة باعتبارها كيانا متماسكا لأن الآليات التي من شأنها أن تجمع بعضه إلى بعض لم تكن قد وجدت بعد. أمّا أن نفعل ذلك اليوم، فهو يعني أننا نتجاهل القدرات الهائلة لتكنولوجيات المعلومات والاتصال. على أقل تقدير، ينبغي على صانعي السياسات في العالم غير الإسلامي أن ينظروا بعناية إلى الانعكاسات المحتملة لعموم الحالة الإسلامية التي تتطور باستخدام التكنولوجيا.

وعلى صعيد آخر، يمكننا أن نبرهن على أنه بدلا من "صراع الحضارات" كما يصفه صاموئيل هنتنغتون (Samuel Huntington)، فإن هناك صراعا "داخل" الإسلام بين عناصر تقدمية وأخرى رجعية. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمواج الارتدادية لمثل ذلك النزاع من المحتمل أن تكون أبلغ أثرا حين تصدر عن أمّة موحدة على أي مستوى من المستويات.

يمكن لتكنولوجيا الاتصال أن تكون هذه الأداة الموحِّدة. ففي العقد القادم، ستنقل الجزيرة ونظيراتها من القنوات الفضائية الأخرى رسائلها بلغات أكثر وإلى عدد أكبر من الناس، كثير منهم مسلمون. وسيعزز هذا الانتشار المتزايد من تأثير الإعلام، خاصة إذا كان مزودو المعلومات هؤلاء يعرضون منتجاتهم بتحيز سياسي. والأهم من ذلك، سيتسع جمهور الانترنت في هذه الفترة بوتيرة هائلة وستمكن المحتويات المعروضة الكترونيا من توسيع دائرة الخطابات والروابط الأخرى داخل كيان الأمة الافتراضية.

عندئذ، بإمكان صانعي السياسات أن يستلقوا ويشاهدوا كل ذلك يحدث، أو أن يشاركوا في تلك العملية. الخيار الثاني يتطلب منهم وضع خطة واقعية. وكما

أثبتت جهود الدبلوماسية العامة الأمريكية منذ الحادي عشر من سبتمبر، لا جدوى في الغالب من المنافسة رأسا لرأس. فلم تستطع قناة الحرة الفضائية، التي تمولها الحكومة الأمريكية، أن تصبح منافسا حقيقيا للجزيرة والعربية وبقية قنوات البث الأهلية الأخرى. و لم تكن المنتجات الالكترونية ذات الخدمة الذاتية أفضل بكثير. بالمقابل، يمكن سلوك سياسة أكثر ذكاء تقوم على منافسة أقل وتعاون أكبر. فوسائل الإعلام ذات التوجه الإسلامي وصاحبة الجمهور الأوسع – فضائيا والكترونيا – تتميز عموما بالانفتاح على وجهات نظر مختلفة، وهذه الوسائل لها من المصداقية ما يزيد من حظوظ حصول ما تبثه من رسائل على استقبال عادل.

المعلومات التي تصدر عن "أحد ما" ستصل إلى الأمة الافتراضية، ولا ينبغي ترك هذه المنافسة تسيطر عليها وجهة نظر واحدة. وإذا أرادت الولايات المتحدة والديمقراطيات الأخرى أن تبلّغ وجهة نظرها إلى الأمة الإسلامية، فعلى صانعي سياساتها أن يطوروا نظرتهم لتأثير الإعلام الجديد.

إن الدول الافتراضية جزء من حقيقة الجغرافيا السياسية. ويقوم جوهرها على الترابط لا على الإقليم الأرضي. وسواء أتمكنت تلك الدول من ضم جمهور الأمة الذي يتجاوز تعداده المليار نسمة، أم كان لها جمهور أقل من ذلك بكثير، فإن وجودها المدعوم تكنولوجيّا باعتبارها كيانات افتراضية يستحقّ أن يُعترَف به.

- 5 -

ترابطات عالمية.. إرهاب عالمي

يمكـــن أن نجد مثالا على استخدام الانترنت تحديدا لبناء أمة عالمية في الحضور الالكتروني لحزب التحرير، الذي يُعتقد أن له نشاطا في ما لا يقل عن أربعين بلدا. يـــبين نـــشاطه في الفـــضاء الالكتروني – عبر موقعه الرئيس المتاح باللغات العربية والإنجليـــزية والروسية والتركية والأوردو والألمانية – كيف يمكن للأمة الأوسع أن تتكتل عبْر استخدام الانترنت.

يوصـــف حـــزب التحريـــر بكونه حركة سياسية إسلامية راديكالية تسعى لتشكيل ولاء واسع "للعقيدة الإسلامية النقية" وإقامة خلافة إسلامية في وسط آسيا مـــن أجـــل توحيد كامل أجزاء العالم الإسلامي. وتتبنى الجماعة مسارا يتكون من ثلاث خطوات لتحقيق ذلك: تربية المسلمين على أهداف الحزب في تأسيس مجتمع قـــائم علـــى مبادئ الشريعة؛ تشجيع المسلمين على نشر هذه الآراء بين الآخرين، وخاصـــة أعضاء الحكومة والجيش ومراكز القوة الأخرى في بلدانهم؛ ثم عن طريق أتـــباعه المؤمـــنين، يعمل على إسقاط الحكومات العلمانية إذ الولاء لا يكون لغير الإســـلام – لا الجنسية ولا السياسة، ولا الانتماءات العرقية. في تلك المرحلة، يبدأ القائـــد الإسلامي الأعلى، أو الخليفة على غرار القرون الماضية، في ممارسة سلطته السياسية والدينية على جميع المسلمين.[1]

يعـــتمد حزب التحرير كثيرا على الانترنت. وقد جاء على لسان زينو باران (Zeyno Baran) "تعتـــبر الانترنت بما لديها من قدرة على الوصول إلى كل أنحاء العـــالم، أداة مثالية في أيدي المجموعات التي لا تعترف بشرعية القيادات السياسية. فمواقع حزب التحرير على الانترنت يمكن للمسلمين أيا كانت مواقعهم أن يدخلوا إلـــيها بكـــل ســـهولة. وتعتبر الانترنت وسيلة فعالة، خاصة في ما يتعلق بتسهيل

التواصـــل بـــين أناس يعيشون في مجتمعات قمعية." ويرى باران أن حزب التحرير "تمكـــن أساسا من بناء مجتمع إسلامي افتراضي في الفضاء الالكتروني، يتواصل معه الأعـــضاء والأعـــضاء المحتملون، والمتعاطفون. وقد صُممت مواقع الحزب لجلب المـــسلمين الـــذين يبحرون في الانترنت ويشعرون بالاغتراب تجاه المجتمعات التي يعيشون داخلها، فيجدون فيها مساحة للحصول على المعلومات والتحاليل، وتبادل الأفكار، ويشعرون بأنهم جزء من أمة إسلامية عالمية."[2]

وتقـــديم خدمة "الوطن" الافتراضي يجسد الاستخدام المتطور لوسائل الإعلام الجديد أحسن تجسيد ويؤكد إدراك المنظمة لمسارات التواصل العابر للوطنية. كما يتبين من مقاربة حزب التحرير، فإن إمكانات الأمة لتحقيق مزيد من التماسك هي جـــزئيا إحدى وظائف العولمة. وتعتبر إقامة خلافة لحكم الأمة العالمية، ولو بشكل مجـــرد، مـــبدأ من مبادئ الأصولية الجديدة التي، وكما يقول أوليفييه روي، "تثمن عملـــية اقتلاع الناس من أوطانهم. فادّعاء تجاهل السياق الثقافي وتوفير دليل سلوك بإمكانـــه الاشـــتغال بـــنفس الطريقة في أي جزء من العالم، يعد أداة للعولمة. فهو ينـــسجم تماما مع العولمة – الفردانية، الاجتثاث من الثقافة، الاقتلاع من الأرض – ويروّج لإعادة تشكيل الهوية المؤسسة على توحيد أنماط السلوك."[3]

يعتـــبر حـــضور حزب التحرير على شبكة الانترنت مثالا مفيدا على كيفية تشكل الأمة الافتراضية. فالموقع الرئيس – www.hizb-ut-tahrir.org – والمواقع الفـــرعية الـــتابعة لـــه، مـــثل موقعه في بريطانيا – www.hizb.org.uk – سهلة الاستخدام ومصممة بطريقة جيدة للفت انتباه أي زائر يرغب في التصفح السريع. ولكن الأهم من كل ذلك هو أن الموقع يمنح المنظمة حضورا افتراضيا دائما ويسهل العثور إليه. وهذا أفضل، من نواحٍ كثيرة، من اتخاذ مقرات على أرض الواقع. فالمقر الافتراضـــي يمكـــن لأي كان أن يراه، ولكنه أقل عرضة للتدخل من جهات إنفاذ القانـــون أو من الخصوم. يمكن أن يكون مراقبا ولكن لا يمكن مداهمته أو اختراقه بنفس الطريقة التي تحدث للقواعد التقليدية أو لأماكن العمليات، مع أنه يظل قابلا للتعطيل من قراصنة الانترنت. وبإمكان المتعاطفين معه أن "يزوروه" افتراضيا بأمان.

كـــل شخص موصول بالانترنت يمكنه الوصول إلى حزب التحرير، وبالطبع ينطـــبق الأمـــر ذاته على أية مجموعة لديها موقع الكتروني. ولكن الآثار السياسية

للموقـــع، وبعـــضها لا يمكن أن يتوقعه حتى أصحابه، وطريقه الانتداب باعتبارها عملية تبادل افتراضية، تضعانه في صنف خاص. فالمنظمة عبر موقعها تمارس نشاطا دعـــويا متواصلا، محاولة بذلك إقناع زوارها بأن مقاربتها لمستقبل الإسلام تستحق دعمهم ومشاركتهم.

يصف الموقع العضوية بأنها انتماء خفي: "فالشخص نفسه هو الذي يفرض نفـــسه على الحزب، حين ينصهر فيه، وحين تتفاعل الدعوة معه، ويتبنى أفكاره ومفاهـــيمه." ثم غالبا ما يساعد العضو في عملية التبشير السياسي التي يقوم بها الحـــزب، بمـــا في ذلك إقناع إخوانه المسلمين بأهمية قيام النظام السياسي على أساس الأحكام الإسلامية. وبعد ذلك، ينوي الحزب إعادة بناء الأمة لتعود إلى "ســـابق عزّها ومجدها، بحيث تنتزع زمام المبادرة من الدول والأمم والشعوب، وتعـــود الدولـــة الأولى في العالم، كما كانت في السابق، تسوسه وفق أحكام الإسلام."[4]

ويعكـــس مفهوم حزب التحرير للأمة وبرنامج عمله أنه يهدف في البداية إلى إقامـــة خلافـــة جديـــدة على أرض افتراضية. فهو يعتمد على الفضاء الالكتروني باعتـــباره مجـــالا سياسيا يمكن للدولة الافتراضية أن تنشأ ضمنه. وباستثناء بعض المناســـبات الـــتي يقوم فيها الحزب بأنشطة في أماكن معينة، مثل الاحتجاج على مـــشروع قانـــون بـــريطاني لمكافحة الإرهاب، فإن الحدود التقليدية لا اعتبار لها والـــسيادة لا قـــيمة لها أيضا. فالأمة باعتبارها كيانا سياسيا راشدا، تتجاوز تلك القـــيود العلمانية، ويُعد الفضاء الالكتروني الموطن الأنسب للأمة بدلا من الأرض المحددة تقليديا.

ورغـــم أن حزب التحرير لم تنسب إليه أعمال عنف بشكل مباشر، فإن بعض الحكومات تصنفه منظمةً إرهابية. وإلى حدود شهر أبريل/نيسان 2008، لم يكـــن الحـــزب على قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للمجموعات الإرهابية الأجنبـــية، أمـــا في روسيا وبعض بلدان وسط آسيا فقد تعرض نشطاء الحزب للـــسجن، كما حصلت موجات من الإيقافات في صفوف عناصره في كل من طاجيكـــستان وغيرغستان في أواسط عام 2006. وفي ألمانيا وباكستان وأغلب البلدان العربية لا يسمح للحزب بالنشاط القانوني. أما في بريطانيا فقد اتهم قادة

الحـــزب بالترويج لمعاداة السامية. وفي خريف عام 2006 تسارع نشاط الحزب وتكـــثفت جهـــود أعضائه فوضعوا ملصقات في كامل أنحاء زنجبار تحضّ على إقامـــة الخلافة من أجل وضع حدّ للفساد المستشري في الحياة الإسلامية هناك على يد السياح الغربيين.[5]

بحلـــول عـــام 2007 أصـــبح حزب التحرير ينشط داخل الولايات المتحدة، معـــتمدا بدرجـــة أولى على الترويج الالكتروني مثل المشاركة في أشرطة الفيديو، وشبكات المواقع الاجتماعية، وحتى رعاية محلات الهيب – هوب. ويبدو أن الحزب قـــد أراد أن يهيئ نفسه للاستفادة من أي تصدع قد يحصل بين الجالية المسلمة في أمريكا والحكومة الأمريكية.[6]

ويفتـــرض أن الأجهزة الأمنية في مختلف أنحاء العالم تراقب كل من يشتبه في كونه عضوا في حزب التحرير. ولكن، يبدو كذلك أن التصورات والجهود المبذولة للـــتفكير في كيفـــية التعاطـــي مع خصم وهمي يعتمد أساسا على الانترنت أداة سياسية، محدودة جدا.

***

رغـــم الفرص التي تتيحها تكنولوجيات الاتصال والمعلومات، تظل العقبات الـــتي تحول دون إرساء تعايش سلمي داخل دائرة الإسلام الواسعة، هائلة. وقد كـــشفت الحـــرب بـــين المسلمين في العراق عمق الجراح التي يمكن للطائفية أن تحـــدثها. ولهذا الصراع مكون الكتروني، حيث يستخدم السنة والشيعة كلاهما منتديات الانترنت للتحريض على تدمير الطرف الآخر. وعلى صعيد أقل دموية، تـــوجد بين المسلمين اختلافات حادة في نظرتهم للعالم حيث يصعب مثلا وجود أرضـــية مـــشتركة بـــين متصوف وأحد استراتيجيي حزب التحرير. كما يمكن لأصـــولي وحداثـــي أن يشعر كل منهما بأن الآخر يسير على طريق يؤدي إلى الكارثة. وهذا الاختلاف لا يعني أن الأمة لا يمكنها أن تتوحد، ولكن إذا حصل ذلك فسيكون نسيجها فضفاضا.

ومـــع ذلـــك يظل تلاحمها يمثل حضورا جيو سياسيا بالغ الدلالة. ويمكن لنـــسيجها أن يـــزداد حـــبكة بفعل تأثير العوامل الخارجية، مثل الأعمال التي يـــرتكبها أولـــئك الـــذين ينظر إليهم أعداء مشتركين – بدرجة أولى إسرائيل

والـــولايات المتحدة – حسب ما تصوره التقارير الإخبارية أو ما تورده مصادر أخـــرى، أغلبها يعتمد على وسائل الإعلام الجديد. فعندما كشفت الصور من غزة ومن لبنان سنة 2006 معاناة الإخوة المسلمين، كانت التقارير الأكثر وثوقا هي تلك التي نشرتها وسائل الإعلام العربية التي تتمتع بمصداقية لدى جمهورها الخـــاص علـــى الـــصعيدين الإقليمي والعالمي. وعندما تصل تلك التقارير إلى العائلات في القاهرة وكاراتشي وجاكرتا وباريس، يشعر المسلمون هناك بالألم تجـــاه المـــسلمين الآخرين، ويمكن أن يبدؤوا آليا في البحث عن حاضنة الأمة الإسلامية.

إن الإســـلام لا يحتكـــر استخدام تكنولوجيات الاتصال العالية، فالأديان الأخرى أيضا تستخدمها: يتجاوز عدد المواقع الالكترونية والمدونات المسيحية كـــل مـــا ســـواها. وتعـــتمد بعض الأقليات المهاجرة على القنوات الفضائية والمنـــتديات الالكتـــرونية للحفـــاظ على هويتها. ولكن الإسلام وأبناء الأمة الإسلامية العالمية أمر مختلف. ففي هذه اللحظة التاريخية، يؤثر الإسلام بمختلف تمظهـــراته في كـــثير مـــن الأحـــداث العالمية وهو أحد العوامل في العديد من الصراعات المسلحة في العالم. وذلك ما يجعل من اعتماد الولايات المتحدة على القومية التقليدية، إلى جانب دول أخرى، سياسة خاصة تجاه الأمة وتجاه الدول، أمرا منطقيا.

وســـواء أحببـــنا ذلك أو كرهناه، فالإسلام يمثل حالة خاصة. وينبغي على صـــانعي السياسة في الولايات المتحدة وبقية العالم غير الإسلامي، أن يفكروا بجدية كـــيف يمكـــن للأمة إذا تحققت وحدتها أن تغير العالم، خاصة في سياق يمارس فيه الإرهاب تأثيرا عميقا في مجريات الشؤون الدولية.

القاعدة كدولة افتراضية

يمكـــن للدولة الافتراضية أن تكون لها خصائص سياسية واضحة ومحددة كما هـــي حال كردستان، أو أن تكون أكثر غموضا كما هو شأن الأمة. ما يميزها هو وحـــدة الهـــدف والـــرغبة في تحقـــيق مستوى معين من التماسك. ويمكن للدولة الافتراضية أن تمارس الأعمال مثل جمع الأموال وصرفها وتقديم الخدمات لمواطنيها.

بإمكانهـــا أيضا أن تكون قادرة على شن الحرب. ويمكن أن يكون لها تأثير واسع النطاق عن طريق بناء شبكة خاصة على امتداد العالم.

ورغم أنه غالبا ما يطلق عليها "شبكة"، يمكن للقاعدة أن ينظر إليها باعتبارها دولـــة. فهـــي عـــبارة عن كونفدرالية، فروعها ممتدة عبر العالم تحتفظ بقدر من الاستقلالية وفي الوقت ذاته تعتبر نفسها جزءًا من الكل. وعلى صانعي السياسة أن ينظـــروا إليها كدولة وليست منظمة غير مكتملة المعالم، لأن معاملتها كدولة من شـــأنها أن تولّد تقديرا أكثر واقعية لقدراتها السياسية وشبه العسكرية، وربما تضفي مزيدا من الانسجام على القرارات السياسية.

يعتبر التعامل مع القاعدة كدولة أمرا منطقيا إذا نُظر إليها باعتبارها عدوا تُشن الحرب ضدّه. أما باعتبارها مشروعا سياسيا يحتاج في الأنظمة الديمقراطية أن يُحشد التأييد الشعبـــي لأجله، فإن الحرب تقتضي وجود عدو ذي هوية يمكن للجمهور أن يفهمها. فالحرب ضد "شبكة" من الصعب استيعابها.

يعكـــس الـــصراع ضد القاعدة هذه الصعوبة. فمفهوم القاعدة كعدو يطرح مـــشكلا على صعيدي التعريف وسياسة التعامل معه. والقاعدة هي الهدف الرئيس "للحـــرب ضـــد الإرهاب"، ولكن شن "حرب ضد الإرهاب" لا يحمل كثيرا من المـــنطق لأن "الإرهاب" مفهوم وأثر وليس كيانا محسوسا يمكن استهدافه على أنه عـــدو. والقاعـــدة تحمل من المعنى ما يتجاوز "الإرهاب" في حد ذاته لأن لها بنية وهوية محددة ذاتيا، رغم أنها تظل غامضة باعتبارها خصما ماديا. فهي ليست عدوا علـــى شاكلة ألمانيا أو اليابان حين كانتا تقاتلان الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية. فقد كانتا أمّتين تقليديتين ولهما وجود متحيّز على الأرض جعل مهاجمتهما ثم احتلالهما لاحقا أمرا ممكنا.

عـــندما غـــزت الـــولايات المتحدة أفغانستان في عام 2001، كانت القوات الأمـــريكية تهـــاجم طالـــبان التي كانت تحكم البلاد، إلى جانب أسامة بن لادن والمقـــاتلين المُوالين للقاعدة. ولكن أفغانستان ليست وطنَ القاعدة؛ ولا وجود لمثل ذلـــك الأمر، على الأقل بالمعنى التقليدي المادي. وحتى لو نجح احتلال أفغانستان، علـــى المدى البعيد، وتحولت إلى بلد مسالم (وهو أمر مشكوك فيه)، فلا يعني ذلك بالـــضرورة أن القاعـــدة قـــد هُـــزمت. فوطن القاعدة الحقيقي شاسع وافتراضي

ويكتسب مزيدا من التماسك بالأدوات الالكترونية ووسائل الإعلام الجديد بدلا من أن تكون لها أرض تحدّها الحدود.

القاعدة لها قواها المنتظمة في شكل خلايا بدل قطاعات. وعلى غرار أغلب الكيانات المتمحورة حول الانترنت، لا يمكن أن تكون بنيتها القيادية خطية. وبالنسبة إلى الذين يحاربونها، ربما تبدو القاعدة طائفة متناثرة من المرضى النفسيين ينشطون تحت لافتة واحدة. وإذا كان ذلك صحيحا، فبالإمكان القبض عليهم واحدا تلو الآخر وفي الأخير سيزول التهديد. ولكن، باعتبارها دولة افتراضية، فإن للقاعدة مضموناً ومرونة أكبر مما يبدو للوهلة الأولى، وما زالت بصدد التطور. وقد كتب عبد الباري عطوان أن التغييرات التنظيمية المستقبلية "ستنقل القاعدة بعيدا خارج دائرة وخبرات قوات الأمن الدولية. وبتحويل القاعدة إلى مجموعة من المبادئ الموجهة، أي أيديولوجيا، ستتجاوز كافة الحدود القومية وتجعل من الانتماء إليها أو الانفصال عنها أمرا في غاية السهولة."[7] وقد جاء في تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر الأمريكية عند عرضها لهذه القضايا:

"كان ينظر إلى الأمن القومي في السابق عبر دراسة الحدود الخارجية، وتقدير وزن المجموعات الدولية المعارضة، وقياس القدرة الصناعية. وحتى يُعتبر العدو خطيرا ينبغي أن تجتمع لديه جيوش عريضة. وقد بدأت الأخطار تظهر بالتدريج، وفي أحيان كثيرة بشكل ظاهر، حين بدأ تصنيع الأسلحة، وتجنيد الجيوش، وتدريب الوحدات ونقلها إلى مواقعها. وبما أن الدول الكبيرة كانت على درجة كبيرة من القوة، فقد كان لديها ما تخسره أكثر من غيرها، وكان يمكن بالتالي ردعها. أما الآن فالتهديدات تظهر بسرعة فائقة. فتنظيم مثل القاعدة، مقره في بلد يقع في الطرف الآخر من العالم، في منطقة فقيرة إلى درجة أن الكهرباء أو خطوط الهاتف نادرة، يصبح بإمكانه مع ذلك حيازة أسلحة ذات قوة تدميرية غير مسبوقة في أكبر مدن الولايات المتحدة... عدوّنا مضاعف: القاعدة، شبكة الإرهابيين غير النظامية التي هاجمتنا في الحادي عشر من سبتمبر؛ وحركة إيديولوجية راديكالية في العالم الإسلامي، ألهمتها القاعدة التي أفرزت مجموعات إرهابية وأعمال عنف على امتداد الكرة الأرضية."[8]

"شبكة دون دولة"، أو دولة متشابكة؟ يلاحظ فيصل دوجي أن القاعدة، مثلها مثل الحركات الجهادية عامة، "ذات طبيعة غير جغرافية، وتستخدم الأراضي

علـــى اخـــتلافها الشديد كقواعد مؤقتة لنشاطها. وهذا يجعل منها عدوا مستحيلا بالنـــسبة إلى الولايات المتحدة لأنها توجد خارج دائرة قدراتها على إدارة الحرب." إنهـــا نمط عالمي جديد، يقول دوجي "تتمتع بالقدرة على الحركة الجغرافية والمالية والتكنولوجية التي تشكل جوهر العولمة ذاتها."[9]

لا ينبغي أن ننظر إلى القاعدة باعتبارها "عدوا مستحيلا" ولكنها عدوّ صعب. وإذا شنّت القاعدة هجوما كبيرا آخر ضد الولايات المتحدة أو بريطانيا أو أية دولة أخرى، كيف سيكون رد فعل الضحية؟

فعدد الدول "العدوة" أصبح محدودا: لقد تم شطب أفغانستان والعراق من القائمة، وتمكنت ليبيا من رفع اسمها بحكمة، والغوص في أوحال إيران أو سوريا يمكـــن أن يـــأتي بنتيجة سياسية وعسكرية عكسية. ولنفترض أن هجوما شنّه نشطاء من القاعدة يعيشون في باريس أو روما أو مونتريال. فهل سيكون الرد العسكري حلا عمليا، أم أنه سيتم النـــزول بالرد إلى مستوى العملية الأمنية؟ يمكـــن أن يكـــون الرد المعتدل معقولا، ولكن هل سيكون قويا بما فيه الكفاية لـــيكون مقـــبولا سياسيا في أوساط الأمة الضحية، خاصة إذا كان الهجوم قد خلّف خسائرَ بشرية كبيرة؟

هـــناك مـــا لا يُحصى من التنويع على هذه الأسئلة الافتراضية، والبحث في كيفـــية الإجابـــة عنها يحتاج إلى وظيفة كامل الوقت لأحد استراتيجيي مكافحة الإرهـــاب. ومـــما يقتضيه التصدي لمثل تلك المسائل أن نفهم ما هي القاعدة وما ليست هي. في أحيان كثيرة يتم التعامل معها كـــ "منظمة" ويمكن لذلك أن يكون مـــضلّلا فالعبارة تستدعي صورة شركة على غرار جنرال موتورز أو جماعة أخوية مثل روتاري العالمية. تسير هذه المنظمات وفق خطوط واضحة للسلطة والمسؤولية بحيث يكون أولئك الذين في قاعدة البنية التنظيمية – مثل باعة الشوارع أو أعضاء الـــنوادي المحلـــية – مرتبطين ومسؤولين في النهاية أمام مَن هم في القمة. وتتدفق التعليمات والمعلومات الأخرى بانتظام من الأعلى إلى الأسفل. مثل تلك المجموعات يمكن بشكل عام تصويرها في مخططات دقيقة تبرز طريقة تنظيمها.

ولكـــن، وكمـــا لاحـــظ جايسون بورك (Jason Burke)، أن ننظر إلى القاعـــدة "مـــنظمة منسجمة ومتماسكة، ولها "مخالب في كل مكان" وتحكمها

أيديولوجيا محددة وموظفون معروفون، وقد برزت إلى الوجود منذ بداية ثمانينات القرن العشرين، فذلك ينطوي على سوء فهم ليس لطبيعتها الحقيقية فحسب، وإنما أيضا لطبيعة الراديكالية الإسلامية آنذاك والآن.[10] ليست القاعدة شركة أو ناديا، إنها كيان سياسي له أعضاؤه – المنتشرون على نحو أو آخر – الذين يمارسون مبادلات مالية، وأنشطة اتصالية، وعمليات عسكرية. وبفضل هذه الخصائص وما تتمتع به من انتشار على امتداد العالم، ينبغي أن نحلل القاعدة باعتبارها دولة افتراضية. لقد طرح "مايكل شوير" (Michael Scheuer) هذا السؤال:

"هل يمارس أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وتنظيم القاعدة وحلفاؤه نشاطا دبلوماسيا بالمعنى التقليدي لذلك النشاط؟ نظرا لأن القاعدة والفصائل التي تنتمي إليها ليست دولا–أمما وليست لها عواصم، ولا ترسل أو تستقبل ممثلين يمكن تسميتهم سفراء، فالجواب ينبغي أن يكون "لا". ومع ذلك هناك معنى محدد يمارس ذلك التنظيم وفقه سياسة خارجية تهدف إلى جعل الحركة الإسلامية تتقدم باتجاه النصر... وتصل هذه السياسة الخارجية – الاستراتيجية الحربية – من فوق رؤوس القيادات الأمريكية والغربية، إلى الناخبين في البلدان غير الإسلامية وتهدف إلى تحقيق أمرين اثنين: تغيير سياسات البلدان الحليفة للولايات المتحدة عن طريق تقليص التأييد الشعبي لمساعدة الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب، وثانيا، إبعاد أولئك الحلفاء عن الولايات المتحدة وتركها تعيش في عزلة متزايدة."[11]

وعلى صعيد البنية التنظيمية، لاحظت لجنة 11/9 أن التطور الذي شهدته القاعدة في تسعينات القرن الماضي جعلها "تعتمد أساسا على أفكار وأعمال القادة الميدانيين أصحاب المبادرة والإرادة القوية، الذين يتمتعون باستقالية كبيرة."[12] وقد ذكرت دراسة أجرتها مؤسسة رند (RAND) أنه "قبل غزو الولايات المتحدة لأفغانستان، كانت القاعدة تعمل وفق بنية المحور والركائز، التي تتواصل عبرها الخلايا الناشطة مع أسامة بن لادن وأعوانه في أفغانستان، وبنية العجلة التي تسمح بتواصل النشطاء فيما بينهم دون الاضطرار للمرور عبر القيادة.[13]

بعد سقوط طالبان، ومع اضطرار أسامة بن لادن وبقية عناصر القيادة إلى الفرار، أصبحت البنية أكثر مرونة حتى من ذي قبل. وكما لاحظ غبريال وايمان

(Gabriel Weimann)، "في البنى الفضفاضة للشبكات، ينتظم أعضاء المجموعة في خلايا مرتبطة بشكل محدود، وربما لا تربطها أية علاقة، بالخلايا الأخرى أو بالقيادة المركزية أو المقر الرئيس. فالقيادة لا تصدر أوامر للخلايا وإنما تنشر معلومات عبر وسائل الإعلام، ومواقع الانترنت، والرسائل الالكترونية التي يمكن توزيعها والوصول إليها دون كشف الهوية. تكمن إيجابيات هذه البنية العملية في أن مراقبتها واختراقها أو القبض على نشطائها لا تقود وكالات الاستخبارات إلى الخلايا الأخرى أو إلى بنية القيادة المركزية." وتُعتبر القاعدة والمجموعات الإرهابية الأخرى، يضيف وايمان، "شبكات منظمة بطريقة فضفاضة تعتمد على التشبيك الأفقي أكثر من اعتمادها على الهياكل التراتبية. ويشترك الكثير من المجموعات الإرهابية، بدرجات متفاوتة، في نمط الشبكات ذات النسيج الفضفاض: اللامركزية، النزعة الانقسامية، وتفويض السلطة."[14]

ولكن تنظيم القاعدة قد لا يكون فضفاضا إلى هذا الحد، فالتوجيهات، إن لم نقل الأوامر، يمكن أن تنزل من أعلى إلى أسفل. وفي منتصف عام 2007، وكما كانت الحال قبل هجوم 2001، بدأ مجلس الشورى، أو القيادة يجتمع بانتظام ويرفع توصياته إلى ابن لادن الذي يتخذ القرارات بنفسه بشأن بعض المسائل التي تُرفع إليه. وتتكون النواة الرئيسة للقاعدة من حوالي مائتي شخص يتلقى الكثير منهم رواتبَ منتظمة.[15] الدولة الافتراضية ليست شبكة فقط نظرا لما تتميز به من وحدة الهدف وما يتعلق بها من تبادل للمعلومات – مثل كيفية صناعة جهاز متفجر بطريقة مرتجلة – عبر الاستخدام المتطور للإعلام. والدولة الافتراضية لا تحتاج إلى بنية تراتبية تقليدية. فالقاعدة تواصل تطورها التدريجي باعتبارها مشروعا عالميا غير تراتبي، دولة جديدة يتجاوز نشاطها البنى والحدود التقليدية على حد سواء. لها قادة نجوم مثل أسامة بن لادن وأيمن الظواهري – ولكن الأهم من ذلك هو أن لها "مواطنين" في كل أنحاء العالم، ولاؤهم لقضية القاعدة إن لم يكن لبن لادن شخصيا. بالنسبة إلى البعض، تُعتبر القاعدة بمثابة الدولة التي تقاتل عددا كبيرا من الأعداء من أجل الذود عن الإسلام، وهي بذلك تقوم بالدور الذي تخلت عنه الدول الفاسدة والتابعة مثل العربية السعودية. في حين يرى البعض الآخر من المواطنين أن دولتهم الجديدة تمثل معبرا مؤقتا في اتجاه استعادة الخلافة.

إن الـــتعامل مع القاعدة باعتبارها دولة افتراضية بدلا من منظمة إجرامية يمكـــن أن يـــصدم البعض الذين يرون فيه تمييزا غير ضروري بين الإرهابيين. ولكن، أيا كانت درجة السوء التي تميز أعضاء القاعدة وتطبع أنشطتهم، فلابد أن يعترف خصومها بأن العثور على رجل في كهف سيساعد فقط، ولن يكون حاسمـــا، في وضـــع حـــد لإرهاب القاعدة. وكما أثبت مقتل أبـــي مصعب الـــزرقاوي، الذي أعلن نفسه قائدا للقاعدة في العراق، عن طريق هجوم جوِّي أمريكـــي في يونيو/حزيران 2006، فإن مستقبل القاعدة ليس مرتبطا بشخص بعيـــنه. ولن يكون رحيل أسامة بن لادن مؤشرا على انهيار القاعدة، التي هي أكثر من عصابة تابعة له.

تتمـــتع الدول الافتراضية بقدرة فائقة على البقاء، ويعود ذلك في جانب كبير مـــنه إلى الاندماج بين شبكاتها ذات الأبعاد المتعددة. وقد حدد السياسي الإسباني والخـــبير في قضايا الإرهاب، غوستافو أريستيغي (Gustavo de Aristegui) أربعة أنـــواع من شبكات القاعدة: "أولا، هناك الشبكة الأم، تلك التي نفذت هجمات 9/11، والـــتي تستخدم مواردها الذاتية ونشطاءها الذين انتدبتهم ودربتهم." ثانيا، هناك "الشبكة الإرهابية غير الرسمية والتي تتكون من المنظمات الفرعية التي شكّلتها القاعدة – في أحيان كثير لتحل محلَّ تلك التي لم تكن دموية بما يكفي – في بلدان مثل الفلبين والأردن والجزائر." والنوع الثالث، يقول أريستيغي، هو الشبكة المظلة، وهـــي عـــبارة عن "اتحاد استراتيجي بين شركات تعمل لأغراض متشابهة" يربطها بالقاعدة هدف مشترك ويموّلها ابن لادن. وفي الشبكة الرابعة "المقلدون والمحاكون" الـــذين يـــتفقون مع برنامج القاعدة ولكن ارتباطاتهم المالية بن لادن أقل. ويرى أريـــستيغي أن الأعـــضاء من هذا المستوى هم الذين نفذوا تفجيرات مدريد عام 2004.[16] ويـــبين ثالث هذه المستويات بشكل خاص أن نمو القاعدة تجاوز كونها شبكة فقط، لتصبح أكثر تحديدا واتحادا.

إنهـــا كـــيان مركب، يمتد عبر العالم، ويعمل بسرية، وتلاحقه أجهزة إنفاذ القانون، ويتعقبه من يسعون لاختراقه،[17] وهو في حاجة دائمة إلى القيادة والتمويل عند التخطيط لتنفيذ هجماته. وبإمكان وسائل الإعلام العالمية أن تدعم هذه الدولة الافتراضية. فقد جاء في تصريح لأيمن الظواهري سنة 2005 قوله "نحن في معركة،

وأكثـــر من نصف هذه المعركة يدور في ساحة الإعلام... نحن في معركة إعلامية لكسب قلوب وعقول أمتنا."

تمد قنوات التلفزيون الفضائية، عبر تقاريرها الإخبارية، مواطني القاعدة وعامة الجمهـــور بـــصور قوية عن أعمال القاعدة، وفي بعض المناسبات تبث مشاهد لبن لادن نفسه. والأهم من ذلك، تقدم الانترنت روايات للأحداث التي تغطيها وسائل الإعلام الإخبارية بتفصيل وتكرار أكثر، بشكل يظهر الترابط العملياتي ويبرز معنى الانـــسجام. وفي مـــا يـــتعلق بالتنظيم، يقول مايكل شوير "تتيح الانترنت اليوم للمناضـــلين المـــسلمين من كل بلدان العالم فرصة اللقاء، والتخاطب، والتعارف الكتـــرونيا، وكـــان هذا المسار الذي يحقق الألفة واللحمة يقتضي، في الثمانينات وأوائـــل التـــسعينات من القرن الماضي، القيام برحلة إلى كل من السودان واليمن وأفغانـــستان أو باكـــستان."[18] ولتعزيز الأمن الالكتروني لهذه العلاقات، أُطلقت "مجلـــة المجاهد التقنية" الالكترونية في أواخر عام 2006 لإرشاد قرائها حول تأمين المعلومات الالكترونية وبعض المسائل الأخرى المتعلقة بالتكنولوجيا العالية.

لقد أدركت قيادة القاعدة ذلك وبدأت تؤكد على استخدام الانترنت في توجيهاتها لأتباعها، كما يتضح من خلال الرسالة التالية التي نقلها أحد مواقعها:

"نظـــرا لتقدم التكنولوجيا الحديثة، فقد أصبح من السهل نشر الأخبار، والمعلومات، والمقـــالات، وأيـــة مـــواد أخرى عبر الانترنت. ندعو المتخصصين في الانترنت من المسلمين لنشرأخبارالجهاد والمعلومات الخاصة به وتوزيعها عن طريق قوائم التراسل، ومجموعات النقاش، ومواقعهم الخاصة. وإذا فشلت وأُغلق موقعنا قبل أن تفعل ذلك، قـــد نحاســـبك أمام الله يوم القيامة... نتوقع أن يتم فتح موقعنا وإغلاقه باستمرار، وبالـــتالي فإننا نحث كل المسلمين المهتمين بموادنا أن ينسخوا كل ما يحتاجون إليه من موقعـــنا وينـــشروه عبر مواقعهم الخاصة ومجالس النقاش وقوائم التراسل. وهذا أمر يمكن أن يشارك فيه كل مسلم بسهولة، بما في ذلك الأخوات. وبهذه الطريقة، حتى إذا أُغلقت مواقعنا، تبقى موادنا حية بفضل الله."[19]

وحـــتى عندما كانت تتعرض لهجوم القوات الأمريكية في أواخر عام 2001، تشبثت القاعدة باستخدام أدوات التكنولوجيا العالية. فقد كتب صحفي باكستاني كـــان على عين المكان أنه بينما كان مقاتلوها يتراجعون أمام الهجوم، "كان أحد عناصر القاعدة يحمل جهاز حاسوب محمول إلى جانب الكلاشنكوف."[20]

لقد أدارت القاعدة شؤونها الالكترونية بنجاح في الوقت الذي كانت تبني فيه أمة القاعدة العالمية. يذكر "وايمان" أن نشاط القاعدة على الانترنت نما من موقع واحد في أواخر التسعينات إلى أكثر من خمسين سنة 2006. وتعد المواقع الجهاديـــة الأخرى بالآلاف. وكلما جرت قرصنة موقع أو سحَبه أحدُ مزودي الخدمـــة، سرعان ما يظهر المحتوى على موقع آخر. يقول وايمان "هناك شبكة واســـعة من مواقع الانترنت تُستخدم لتبليغ التوجيهات والمعلومات من أولئك الـــذين في قمـــة القاعـــدة إلى المـــؤيدين والمتعاطفين عبر مختلف أنحاء العالم. فالمحاضـــرات، والإعلانـــات المـــسجلة، وأشرطة الفيديو التي تصور العمليات الإرهابـــية، والكتيـــبات التوجيهية، وكتيبات التعليمات، كلها يتم تناقلها عبر مواقـــع القاعدة على الانترنت والمنتديات وغرف الدردشة ولوحات النشرات الالكترونية."

ومـــن أمـــثلة تلك المنتجات "صوت الجهاد" وهي مجلة الكترونية أطلقت في فبراير/شباط من عام 2004 للتعريف بمنجزات المجاهدين. ويجسد المقتطف التالي من افتتاحية عدد أكتوبر 2004 النبرة التي تستخدمها المجلة:

"فانفروا أيها المسلمون إلى الجهاد في سبيل الله فقد فتحت الجنة أبوابها وتزينت الحور لخطابهـــا، وهذا وعيد الله لا يترك من له قلب يهدأ باله أو يقر قراره حتى ينفر كما أمـــره الله لـــيقاتل أعداء الله. من لم يتحرك امتثالا لأمر الله، ولا غيرة على أعراض المسلمات المنتهكة في أبـــي غريب وغيره من سجون أئمة الكفر، ولا حمية ولا حياء من القعود، فما الذي يحركه بعد هذا؟"[21]

كما يشير "وايمان"، تعكس "صوت الجهاد" تعدد الأهداف لمثل هذه المشاريع الـــتي تطلقهـــا القاعدة: "تنظيم الهجمات ضد الأهداف الغربية هام، ولكن يظل الهـــدف الـــرئيس هـــو حـــشد التأييد الجماهيري واكتساب شرعية لدى عامة المسلمين."[22] والوجه الآخر لهذا الجهد الرامي إلى تأسيس قاعدة شعبية على شبكة الانتـــرنت هو تكوين مكتبة الكترونية توفر مواد للتدريب تفسر كيف يتم تركيب ســـم الريسين، وكيف تُصنع القنابل بمواد تجارية، وكيف يمكن التسلل إلى العراق عـــبر سوريا، إلى غير ذلك من هذه النصائح. بعض هذه المواد يقدم مدعوما بآراء خبراء يجيبون عن أسئلة القراء على لوحة الرسائل وفي غرف الدردشة.

تـــؤكد المجلـــة الالكتـــرونية الأخرى "معسكر البتار" على أهمية التعليمات الالكتـــرونية إذ تقـــول "أيها الأخ المجاهد، للالتحاق بمعسكرات التدريب العظيمة لست مضطرا للسفر إلى أراضٍ أخرى. بإمكانك أنت أيضا، سواء كنت وحدك في بيتك أو مع مجموعة من إخوانك، أن تبدأ تطبيق برنامج التدريب."[23]

وقد نشر موقع "النداء" الذي بدأت القاعدة تستخدمه في بداية عام 2002 تحاليل عن الحرب في كل من أفغانستان والعراق، وتعليقات لرجال دين مسلمين على عمليات القاعدة، وشرحا يبين كيف يمكن لأهداف حرب القاعدة أن تفيد الأمـــة، مـــن خـــلال التهوين من قوة الولايات المتحدة وإسرائيل وحكومات المـــسلمين الكافـــرة. يرى مايكل شوير أن المحتوى الذي تنشره مواقع القاعدة "يضيف مساهمة كبيرة لما ظل ابن لادن يردده دائما بأن أولويته وأولوية القاعدة هي: التحريض على الجهاد على يد أكبر عدد من المسلمين في أكبر عدد ممكن من المواقع."[24]

من جهتها، لاحظت نادية لابـــي أن واضعي استراتيجيات القاعدة "أدركوا أن الانتـــرنت يمكـــن أن تـــتحول إلى مساحة انتداب عالمية واسعة – عبارة عن أفغانستان جديدة بلا حدود."[25] لقد استخدمت أشرطة الفيديو الدعائية التي تنشر عـــبر الانتـــرنت لتقوية التزام مواطني القاعدة، وإخافة الجمهور، وتجنيد القادمين الجـــدد. وقد استُهدف المسلمون الأمريكيون والبريطانيون من قبل الجهود المبذولة للانـــتداب، مـــثل شريط الفيديو الذي وُزع سنة 2006 والذي أكد على عمليات الاغتـــصاب والقـــتل التي ارتكبها الجنود الأمريكيون في العراق. تم توزيع الفيديو لإحـــياء الذكرى الأولى لتفجيرات 7/7 في لندن، وقد وردت فيه صور لنائب ابن لادن، أيمـــن الظواهـــري، وشهزاد تنوير أحد الذين نفذوا تفجيرات لندن وقتل في الهجوم، وآدم غاداهن المعروف أيضا باسم "عزام الأمريكي" الذي نشأ وترعرع في كاليفورنيا.

أثـــناء تـــسجيل وصـــيته بالإنجليزية وبلكنة أهل يوركشاير، قال تنوير "نحن ملتـــزمون بقضية الإسلام مائة في المائة. ونحب الموت كما تحبون أنتم الحياة... يا مـــسلمي بريطانيا، يوما بعد يوم، على شاشات التلفزيون تشاهدون وتسمعون ما يحـــدث من اضطهاد للمسلمين، من الشرق إلى الغرب. ولكنكم تديرون ظهوركم

وتواصلون حياتكم كأنكم لم تسمعوا شيئا، أو كأن ذلك لا يعنيكم... يا مسلمي بريطانيا، انهضوا وافعلوا وليكن لكم دور... قاتلوا الكفار، لأن ذلك واجب فرضه الله عليكم." وأضاف غاداهن إلى ذلك "من الضروري أن يدرك المسلمون أن الأمريكيين والبريطانيين وبقية أعضاء تحالف الإرهاب يستهدفون المدنيين المسلمين عن قصد."[26]

يتجلى مستوى التطور الذي شهدته القاعدة على الصعيد الإعلامي في تأسيس شركة الإنتاج الخاصة بها، وهي مؤسسة السحاب التي تنتج أشرطة فيديو تحمل خطب أسامة بن لادن، إلى جانب مواد إعلامية – تجارية حول القاعدة والجهاد. وتشكل السحاب جزءًا من القسم الإعلامي الذي أنشأه ابن لادن حين كانت القاعدة بصدد التأسيس سنة 1988. وكانت أول رسالة تصدر عنها تُصوّر القاعدة في هيئة الضحية الجريئة التي تتحدى الاتحاد السوفييتي العظيم، وسريعا ستقف في وجه بقية أعداء الإسلام المحتملين. وفي سنوات التسعينات من القرن الماضي، حين كان ابن لادن يقيم في السودان، كانت رسالة القاعدة الإعلامية تدعو إلى إصلاح حكومة المملكة العربية "القذرة". وفي عام 1996 أصدر ابن لادن "إعلان الحرب على الولايات المتحدة" مستخدما آلة القاعدة الإعلامية لنشر دعوته إلى الجهاد. وفي النهاية، أصبحت منتجات السحاب تقدم بديلا عن الأخبار التلفزيونية التقليدية.[27]

بالنسبة إلى بعض منتجات السحاب، يسجّل مصورو القاعدة فيديو لبن لادن أو الظواهري أو بعض القيادات الأخرى في مخابئهم النائية. ثم تنقل المادة الخام إلى مكان آخر حيث يتم تحميلها على الانترنت وإرسالها رقميا إلى مرافق ما بعد الإنتاج التابعة للسحاب. لدى السحاب القدرة على الإنتاج بمستوى جودة المادة التلفزيونية، مع تضمين الشعارات، وإدراج الخلفيات رقميا، وإضافة نصوص الدبلجة التي غالبا ما تكون باللغة الإنجليزية. وعادة ما تُصمم أشرطة الفيديو بطريقة تعطي الانطباع بأن التسجيل تم في أماكن خارجية مع الحرص على إبراز الأسلحة. ولكن في بعض الإصدارات الجديدة وقع تغيير تلك الخلفية بصورة لمكتب فيه كتب كثيرة، حتى تكتسي الأشرطة طابع الرسالة السياسية التقليدية وتجعل من الصعب على محللي الاستخبارات أن يحددوا مواقع التصوير.

بـــين عامـــي 2005 و2006 تمكنت القاعدة من مضاعفة إنتاجها من أشرطة الفيديو أربعة أضعاف. ففي عام 2006 أصدرت السحاب ثمان وخمسين رسالة بين مـــادة صوتية ومصورة، وفي عام 2007 أصدرت أكثر من تسعين. وقد أمكن نشر تلك الرسائل عبر ما لا يقل عن 4500 موقع جهادي.[28].

في ما يتعلق بالتوزيع، كان الإجراء الاعتيادي يتمثل في تسليم أشرطة الفيديو يـــدويا إلى الجزيـــرة أو بعض المؤسسات الإخبارية الأخرى التي تتولى تحريرها قبل بـــثها على الهواء. أما الطريقة الجديدة فتتمثل في تحميل الأشرطة الجاهزة على عدد مـــن مواقـــع الانترنت ثم نشر عناوين تلك المواقع في المنتديات الالكترونية. وبعد ذلك يتولى المتعاطفون مع القاعدة نسخ ملفات الفيديو وتوزيعها، ما يعني أن المنتج يـــصل إلى جمهـــور عريض دون أن يقع تحريره. ومع التزايد الكبير في عدد المواقع الجهاديـــة علـــى الانتـــرنت، فقد أصبحت القاعدة تعتمد على شبكة واسعة من المـــوزّعين الـــذين ينـــشرون موادها الدعائية أكثر من اعتمادها على المؤسسات الإخـــبارية. وقـــد صرّح أحد الجهاديين الذين يساعدون في توزيع أشرطة فيديو القاعدة لأحد الصحفيين "لقد أصبحنا مثل الصحفيين نحن أيضا" فنحن نعمل على "تبليغ الرسالة."[29]

وفي العراق، تمتلك دولة العراق الإسلامية شركتها الإعلامية الخاصة. ومن بين منتجاتها شريط فيديو مدته تسعون دقيقة صدر سنة 2007 تحت عنوان "لماذا نعلن الجهاد؟" لقد تم استنساخ طريقة عمل السحاب في عمليات مرتبطة بالقاعدة خارج مركـــز الشرق الأوسط، ويمكن أن نلاحظ ذلك في إنتاج الفيديو الذي استخدمه تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي.[30]

هـــذا النمط من العمل الإعلامي نقله الزرقاوي في العراق إلى مستوى جديد. فقـــد أظهـــر الـــزرقاوي رغبته الجامحة في استخدام الإعلام عندما اختُطف رجل الأعمال الأمريكي نيكولاس بيرغ (Nocholas Berg) وذُبح في العراق سنة 2004، ويبدو أن الزرقاوي كان هو المنفّذ.

تم تـــسجيل عمليـــة الـــذبح على شريط فيديو ثم عرضت على أحد مواقع الانترنت حيث نسختها مواقعُ أخرى وحمّلتها 500,000 مرة خلال أربع وعشرين ســـاعة.[31] يمكن أن يعطينا ذلك فكرة عن الجمهور وعن الظواهري بنفس القدر،

ولكـــن المـــؤكد أن قائد المتمردين المولود في الأردن كانت له غريزة قوية لترويج طريقته الخاصة في الجهاد.

في السنة الموالية، أطلق الظواهري مجلة الكترونية بعنوان "ذروة السنام" تتكون مـــن ثلاث وأربعين صفحة من النصوص بما في ذلك مقالات عن المجاهدين الذين يـــسقطون في المعارك، وصور لأسامة بن لادن وجورج بوش.[32] بعد عدة أشهر أصـــدر "الجناح الإعلامي" للزرقاوي شريط فيديو مدته 46 دقيقة بعنوان "سيكون الـــدين كلـــه لله"، يعـــرض مشاهد من بينها صور لكتيبة من الانتحاريين بصدد التدريب. وكما ذكرت الواشنطن بوست، فقد عُرض الفيديو على موقع للانترنت صُـــمِّم بطريقة خاصة تسمح بتنـــزيله بأساليبَ مختلفة: نسخة (وندوز ميديا وريل بلايـــر) لمـــن يملكون خدمة الانترنت فائقة السرعة، ونسخة أخرى لمن يرتبطون بالانتـــرنت عـــبر خط الهاتف العادي، وأخرى لتنـــزيلها ومشاهدتها على أجهزة الهاتف المحمول.[33] هناك طائفة واسعة من المنتجات الالكترونية يمكن الوصول إليها بسهولة عبر صفحات الانترنت، بما في ذلك الرسوم الكرتونية التي تصور أطفالا في هيئة انتحاريين.[34]

وبيـــنما كـــان يتابع تنفيذ برنامجه الإعلامي، تعرض الزرقاوي إلى توبيخ من الظواهـــري بـــسبب "ذبح" الرهائن أمام الملأ، وبسبب استهدافه الشيعة قبل هزيمة الأمـــريكيين في العـــراق. و لم تكن استقلالية الظواهري دون حدود، فقد ورد في رســـالة الظواهـــري تـــذكير مبطن بأن كثيرا من تمويل الزرقاوي يأتي من مصادر يـــتحكم فـــيها ابـــن لادن. وهذا هو أحد الأساليب التي تمارسها الدولة الإرهابية الافتراضية لضبط مواطنيها.[35]

وكجـــزءٍ مـــن استراتيجيته الإعلامية، اتخذ الزرقاوي لنفسه سكرتيرا إعلاميا لمـــساعدته في إدارة نشاطه الالكتروني. وفي سنة 2005 تضاعف عدد الإصدارات الالكتـــرونية للقاعـــدة في العراق ليصل إلى تسع مواد يوميا. وغالبا ما كانت تلك الإصدارات تعلن المسؤولية عن تنفيذ هجمات خاصة ضد القوات الأمريكية. وقد استخدم العمل الإعلامي أيضا لتصحيح كثير من الروايات الإخبارية، مثلما حدث ســـنة 2005 حـــين نفـــى المتحدث باسم الزرقاوي مسؤولية مقاتليه عن العملية الانتحارية التي فُجرت فيها سيارة في منطقة الحلّة في العراق والتي أودت بحياة نساء

وأطفال وقادت إلى خروج الأهالي في مظاهرات غاضبة احتاجا على العنف. وجاء في البيان الالكتروني للناطق باسم الزرقاوي أن مجموعتهم أعلنت مسؤوليتها عن هجوم "آخر" موجّه ضد الجنود الأمريكان ولا علاقة لها بتفجيرات الحلّة. وأضاف البيان مهددا "لا أحد يمكنه أن يقوّلنا ما لم نقله."[36]

ورغم أن الزرقاوي قد رحل، فقد أصبح النشاط الإعلامي للقاعدة في العراق وفي غيره أكثر تطورا وانتشارا. فقناة الزوراء، التي تبث مقاطع فيديو لعمليات قنص تستهدف جنودا أمريكيين في العراق، كانت تبث على مدار الساعة مع بداية عام 2007. وتدعي القناة التي يديرها المتمردون السنة أنها تمثل "كل فصائل المقاومة ضد الاحتلال الإيراني والأمريكي."[37] ورغم محاولات الولايات المتحدة إيقاف بث برامج الزوراء إلا أنّها ظلت متاحة على القمر الصناعي عربسات مع أن الحكومة السعودية تعد أكبر مساهم في الشركة المالكة. يبدو أن السعوديين يعتبرون أن مصلحتهم في مساعدة إخوانهم السنة أهم من مصلحتهم في مساعدة الولايات المتحدة.[38]

يتسع برنامج القاعدة لأكثر من تنفيذ هجمات إرهابية. فالخطة السياسية الأوسع تشمل تعبئة الرأي العام وضمّ مزيد من المجموعات الإضافية ومن الأفراد إلى دولة القاعدة. لقد كان ابن لادن يدرك أهمية الحضور الواسع للقاعدة وما تملكه من قوة محتملة، باعتبارها جزءًا من أمة واحدة. فقد جاء على لسانه "نحن أبناء أمة واحدة تمتد من الشرق الأوسط إلى الفلبين وإندونيسيا وماليزيا والهند وباكستان، وحتى أقاصي موريتانيا."[39]

يدرك ابن لادن أهمية أن تصل صور العنف إلى هذا الجمهور الواسع باعتبارها جزءًا من عملية بناء القاعدة. وكما لاحظ فيصل دوجي "فالشهادة تصنع أمة عالمية، لأن الجميع يتابعونها على وسائل الإعلام الجماهيرية." ولكن دوجي يشير من ناحية أخرى إلى أن إرهاب القاعدة ينبغي أن ينظر إليه في سياق أوسع، "على المدى البعيد" كما يقول، "ربما يكون العنف الأثر الأكثر سطحية والأقصر أجلا من بين الأدوات التي تستخدمها القاعدة، رغم أنه يكتسي بالتأكيد أهمية كبرى في اللحظة الراهنة." الأثر الأعمق والذي لا يمكن التنبّؤ بحدوده هو ما يحدثه الجهاد من دمقرطة للإسلام، عبْر تفكيك الأشكال التقليدية للسلطة الدينية

وتناثـــر عناصرها ضمن عدد لا يُحصى من عمليات إعادة التركيب – بعضها تمثله القاعدة ذاتها."[40]

وإذا نظرنا إلى جانبها الدلالي فـــ "الدمقرطة" كما يستخدمها دوجي في هذا المـــثال، قابلة للنقاش، وليس الجهاد إلا عاملا واحدا وراء الضغوط التي تحاول دفع الإســـلام نحـــو التغير. فقد غيرت وسائل الإعلام الجديد ديناميات التأثير. والهيمنة علـــى المعلومات تراجعت، ولم يعد بمقدور الدول التقليدية والمؤسسات الإعلامية والفـــاعلين الـــسياسيين أن يحددوا الأجندات أو يضعوا حدودا أمام الخطاب كما كانـــوا يفعلون في السابق. في المثال الذي ضربه دوجي، أصبح بإمكان الأصوات الإســـلامية الكثيرة التي تنقلها الانترنت أو قنوات التلفزيون الفضائية، سواء كأفراد أو كمجمـــوعات، أن تغير الخطوط التقليدية للسلطة داخل الإسلام. فرجال الدين لهـــم موقع في الدولة الافتراضية، ولكنهم لا يتحكمون فيها. وعندما يشارك أسامة بن لادن أو جهاديون آخرون في مجريات هذا العالم الافتراضي، فإنهم يلعبون دورا قـــياديا ويتركون أثرا يتجاوز ذلك الذي يتركه ارتكاب أعمال عنف. وفي الأخير، ربمـــا يلقى ابن لادن نهاية شبيهة بتلك التي لقيها ممثله الزرقاوي. وستعلن العناوين الرئيسة عبر العالم أن موته يعني نهاية القاعدة، تماما مثل ما فعلت العديد من وسائل الإعـــلام الغربية حين بالغت في تقدير أهمية موت الزرقاوي. لاشك أن موت ابن لادن ســـيمثل ضربة قوية لتنظيم القاعدة ولكنها لن تكون بالتأكيد ضربة قاضية. لقـــد أصـــبحت القاعـــدة دولة افتراضية لها أجندة شريرة وطموحة ولها مواطنون ملتـــزمون. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فمن المستبعد أن تزول برحيل شخص واحد، إذ هي على درجة من التعقيد تستدعي النظر إليها باعتبارها نمطا جديدا من الدول.

ما بعد القاعدة

تمـــنح وسائل الإعلام الجديدة للمنظمات الإرهابية عددا متزايدا من الفرص للوصول إلى جمهور عالمي. وبدل استخدام البريد العادي لإرسال أشرطة الفيديو – وهـــي عملـــية تَمكن القانون من تعطيلها – أصبحت هذه المجموعات تعتمد على برمجيات مقرصنة للمساعدة في تحرير محتوى الفيديو، وعلى مواقع الكترونية تسمح

بتحميل تلك المواد ليتمكن أتباعها من الوصول إليها. تعرض تلك المواقع مواد على غـــرار "الموســـوعة الأمنية الشاملة" التي تقع في 118 صفحة، والتي أرسلت في عام 2007 وفـــيها تعلـــيمات مفصلة عن تطوير الجوانب الأمنية في استخدام الانترنت والهاتـــف، واقتـــناء الأســـلحة، وحمل المتفجرات، وتحويل الأموال إلى المجموعات الجهادية، إلى جانب تلميحات أخرى مفيدة.[41]

من بين الخبراء في هذا الميدان، يوسف تسولي وهو شاب مغربـــي كان اسمه في "الحـــرب الالكترونية" إرهابـــي 007 (Irhabi007). قدّم تسولي مهاراته التقنية التي احتاجت إليها القاعدة بعد أن أجبرت على مغادرة أفغانستان واتخاذ مقرٍ جديد في الفـــضاء الالكتروني، واحتاج إليها الزرقاوي عندما استخدم الانترنت جزءًا من خطته الحربية في العراق. كان تسولي بارعا في مسائلَ كثيرة مثل قرصنة الملقمات ثم اســـتخدامها لتوزيع ملفات فيديو ذات حجم كبير. (كان من بين ضحايا تسولي نظـــام الحاســـوب الذي يشغل الطريق السريع وإدارة النقل في أركنساس.) أوقف تـــسولي في لندن سنة 2005 ثم أمرت المحكمة بإيداعه السجن في 2007، وقد أدرك فاعلـــية الانتـــرنت في الوصول إلى مجندين محتملين لخدمة قضية القاعدة. وقد جاء الاعتـــراف بأهمية ذلك في تقييم الاستخبارات الوطنية الأمريكية عام 2007 حيث ورد أن "عملـــية التحول نحو الراديكالية جارية بسرعة أكبر، وعلى نطاق أوسع، وبهـــويات مجهـــولة في عـــصر الانترنت، وهو ما يزيد من احتمالات التعرض إلى هجـــومات مباغـــتة على يد مجموعات مجهولة يصعب التعرف على عناصرها أو المتعاطفين معها."[42]

في أواسط عام 2007 أخذت المواقع الإسلامية توسع من دائرة اهتماماتها. فقد أدرج "الجهاد الإعلامي" من بين خدماته المشاركة في المنتديات الالكترونية مـــن قبل الجمهور الأمريكي الواسع بهدف التأثير في "آراء الأمريكي البسيط، الأحمـــق، الذي لا يعرف أين يقع العراق." كان "البسطاء" يُستهدفون بأشرطة فيديو تصور القوات الأمريكية وهي تتعرض للقصف، وبرسائل زائفة يزعمون أنهـــا لجنود أمريكيين وعائلاتهم التي تتبرم من توريطهم في حرب العراق. كما كانت المنتديات الإسلامية تعرض معلومات مستقاة من تقارير إخبارية غربية، مـــثل نتائج استطلاعات الرأي التي تبين غياب التأييد الشعبـــي للحرب، وفي

بعـــض الأحيان معلومات عن أنظمة التسلح التي تجد طريقها إلى تلك التقارير الإخبارية."[43]

وإلى جانـــب المواد التي تتناول الحرب بشكل مباشر، تكرس مواقع الانترنت الإســـلامية جانـــبا كبيرا من محتواها للقضايا الفكرية والثقافية التي تقع في صلب الجهـــود المـــبذولة لكـــسب تأييد الشباب المسلم. وبما أنهم يرون أن هذه الحرب ســـتكون طويلة المدى، فإن تهيئة الأجيال القادمة يعد بالنسبة إلى الجهاديين شرطا أساســـيا لنجاحهم في النهاية. ربما يكمن الخطر الأكبر في تلك الرسائل في ضعف الاستجابة لها. فحتى الحجج الواهية بإمكانها أن تجد من يصدّقها إذا عرضت وسط فراغ فكري. إن إدراك هذا الأمر والتعاطي معه بأسلوب متطور وشامل هو المهمة التي ينبغي أن يتصدى لها المعتدلون من المسلمين ومن غير المسلمين الذين لا يؤمنون بأن الصراع الطويل لا مفرَّ منه. وسيكون استخدام الإعلام الجديد ضروريا للنجاح في هذه المهمة.

- 6 -

الصراع الالكتروني من أجل الديمقراطية

أفـــرز البحث عن الديمقراطية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعـــشرين لحظات مذهلة: الرجل الوحيد الذي يقف في مواجهة دبابة في ميدان تـــيان آن مـــان؛ الاحتفالات بسقوط جدار برلين؛ مئات الآلاف من المتظاهرين يخرجون إلى شوارع بلغراد وكييف احتجاجا على تزوير الانتخابات؛ النساء يرتدن مراكـــز التـــصويت في الكويت. لقد شهدت الديمقراطية نموا بطريقة هادئة أيضا: حكـــومات توافق على أن تصبح شفافة أكثر وأن تكون أوسع تمثيلا؛ الانتخابات تحـــل محـــل المراســـيم؛ النقاش بدأ يحدث في العلن بدلا من الزوايا المخفية. هذه الانتصارات، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، تركت آثارا متموجة وصلت إلى العالم عبر الكلمات والصور التي اجتاحت مختلف أنحاء المعمورة. من جهة أخرى، وجد أولئك الذين يسعون لتحقيق أهدافهم الديمقراطية تشجيعا في ما يجمعونه من أخبار علـــى شاشـــات التلفزيون والحاسوب وما يستخدمونه من أدوات مختلفة – البريد الالكتروني، مواقع الانترنت، الرسائل النصية – لتنظيم جهودهم.

يقع في القلب من كل ذلك الاتصالات بما بلغته من سرعة وشيوعٍ يسمحان بنـــشر المعلـــومات وتقريب الناس من بعضهم البعض. وباعتباره جزءاً من آليات الديمقراطية، يساعد الإعلام الجديد في إعادة التوازن للعلاقة بين الحكام والمحكومين. وقد لاحظ جون ألترمان أن "الحكومات فقدت ما كانت تتمتع به من احتكار شبه كامـــل لـــبعض أنواع المعلومات، ونتيجة لذلك تقلصت قدرتها على إدارة شؤون الـــسياسة الداخلية. فالأدوات التقليدية التي كانت تستخدمها وزارات الإعلام في الحكـــومات مـــثل الـــرقابة والدعايـــة تلاشى دورها وعلى الحكومات أن تضع استراتيجيات جديدة لمواكبة هذه البيئة الجديدة."[1]

لقد توقع كل من شانذي كالاذيل (Shanthi Kalathil) وتيلور بوس (Taylor Boas) أن الانترنت في بعض الدول العربية "ستكمّل جهود الكثير من القوى التحررية الأخرى التي تنشط منذ وقت طويل: قدرة أكبر على التواصل مع العالم الخارجي عبر السياحة والسفر، اندماج أكبر في الاقتصاد العالمي، هيمنة متزايدة للمنظور العصري الذي تتميز به الشرائح الشبابية." كما لاحظا أيضا أنه، مع ذلك، "لا يبدو أن الدولة التسلطية قد فقدت دورها في عصر الانترنت. وفي الواقع، فإن الدولة تلعب دورا محوريا في رسم معالم تطور الانترنت في الأنظمة التسلطية، وفي تكييف طرق استخدام الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين لها. ومن خلال اتباع سياسات استباقية مثل تأسيس حكومات الكترونية، والتحكم الالكتروني بأهم الصناعات والمصالح، تتمكن الأنظمة التسلطية من توجيه مسار تطور الانترنت حتى تجعلها في خدمة الأهداف والأولويات التي تحددها الدولة." ففي كوبا مثلا، "خططت السلطات بعناية لانتشار الانترنت في بلادها، وذلك بالتحكم في وتيرة تطور هذا الوسيط وفي القطاعات التي يتاح لها الارتباط بالشبكة. ولا تسعى السلطات الكوبية للتحكم في الانترنت عبر وضع آلية رقابة مركزية وشاملة، وإنما عبر منع الوصول إليها في الحالات التي يُخشى أن تتحول إلى أداة تخريبية."[2]

من الأهمية بمكان أن نقيّم بشكل واقعي كيف تدار الاتصالات في الأنظمة التسلطية لأن ذلك يؤكد الحاجة إلى أن نكون حذرين عندما نفكر في جاذبية الوصفة التي تقول إن التكنولوجيا تصنع الديمقراطية، وهي وصفة تفتقر أحيانا إلى الواقعية. فإقامة الديمقراطية دائما عبارة عن صراع، وحتى حكومات البلدان التي تعتبر حرة نسبيا يمكن أن تقف في وجه ترسيخ المسار الديمقراطي. ويمكن ابتكار العراقيل لوضع حد لتأثير أيّ نوع من أنواع التجديد التكنولوجي تقريبا. فمنظمة "مراسلون بلا حدود" تصدر تقريرا سنويا حول أساليب تدخل الحكومات في حرية استخدام الانترنت، وقد أدرج تقرير سنة 2006 أربعة وعشرين بلدا (من بينها الولايات المتحدة) إضافة إلى الاتحاد الأوروبي باعتبارها بلدانا مخطئة. وتتراوح انتهاكات هذه البلدان بين توفير ضمانات قليلة بشأن خصوصية مستخدمي النت في الولايات المتحدة، إلى منع التراسل الالكتروني والتجسس على

متـــصفحي الـــنت داخل مقاهي الانترنت في بورما. بعض العراقيل الأخرى التي ذكـــرها التقريـــر تتضمن القوانين التي تفرض تسجيل كل المنشورات الالكترونية، وتـــرهيب المدوّنين – وأكثر التكتيكات شيوعا – منع الدخول إلى المحتويات التي تعتبرها الحكومة غير مقبولة سياسيا أو ثقافيا.[3]

التكنولوجـــيات الجديدة – لا سيما تلك التي تقوم على استخدام الانترنت – يـــصعب الوقوف في وجهها إلى درجة أن كثيرا من الحكومات، بما في ذلك تلك الـــتي تـــضع قيودا على التواصل الالكتروني، لا ترغب في إغلاقها كلّيا. في تلك البلدان، تلاحظ شانذي كالاذيل، "رغم وجود برامج أخرى تمارس الرقابة وتنشر الدعاية، فإن مبادرات إنشاء الحكومات الالكترونية التي تعيد تشكيل البيروقراطية، وتنشر المعلومات التربوية والصحية، وتزيد من فرص التواصل المباشر بين المسؤولين وعمـــوم الناس، تساهم في الواقع في تحسين نوعية حياة المواطنين وتعزز الشفافية. ولاشك أن الإحاطة بمثل هذه التأثيرات المتميزة للتكنولوجيا تعتبر ضرورية لأولئك الذين يستخدمون الانترنت بشكل فعال لتعزيز التحرر السياسي وتطوير نمط الحكم في المجـــتمعات المغلقة. وتضيف كالاذيل "إذا كانت الدول التسلطية التي تعاني من ضـــائقة مالية ترغب في الاستفادة من الاقتصاد العالمي، فستواجه ضغوطا متزايدة للسماح بالاستثمار الخاص والتنمية وفق قوانين السوق في قطاعات الانترنت."[4]

ذكـــرت مـــنظمة مراسلون بلا حدود سنغافورة مثالا على الدول التي تمارس ضـــغوطا على المدونين الذين ينتقدون الحكومة، مع أن سنغافورة تملك أيضا أكثر الـــبرامج الحكومية الالكترونية تطورا على مستوى العالم. وتقدم الحكومة بوابتها الالكترونية باعتبارها "بوابة العملاء الموحدة التي تربطهم بالمعلومات الحكومية وفق أربعة أقسام مختلفة:

- القسم الحكومي الذي يتولّى تحيين المعلومات حول سنغافورة وحول الحكومة
- قـــسم المـــواطن الالكتـــروني الـــذي يوفر المعلومات والخدمات للمواطنين السنغافوريين وللمقيمين إقامة دائمة
- قسم الأعمال الذي يتيح الدخول إلى الخدمات المتعلقة برجال الأعمال
- القسم الخاص بغير المقيمين الذي يوفر للزوار الأجانب معلومات حول الزيارة والانتقال والعمل والدراسة في سنغافورة."

تتميـــز مواقع سنغافورة بكونها شاملة إلى درجة أنها باتت تمثل جزءًا لا يتجزأ مـــن الحياة اليومية. فموقع المواطن الالكتروني يوفر معلومات حول كيفية الحصول علـــى الـــسكن، والـــرعاية الصحية، وتبني الأطفال، والإبلاغ عن الجرائم، وحتى الـــزواج: "هـــذا القسم يساعدك، حسب ما يعِد به، على الانتقال نحو "أنا أفعل" وغير ذلك بسهولة تامة".[5]

بالنظـــر إلى هـــذه الأدلة على الفوائد التي يجنيها المواطنون، ترى كلاذيل أنه "بـــدلا مـــن الـــتعامل مع الانترنت أداة تحررية بطبيعتها – إذا أطلق لها العنان في المجـــتمعات المغلقة – يمكنها أن تصنع تيارا من المشاعر المعارضة، فإن على صانعي الـــسياسات أن يـــتخذوا ما يلزم من الإجراءات والسياسات التي يُرجّح أن تعزز الانفـــتاح في الـــبلدان التسلطية."[6] يستحق هذا المقترح أن يدرج ضمن سياسة التخطيط، مع الانتباه حتى لا يقوّض ذلك الجهود المبذولة لاستخدام وسائل الإعلام الجديد في المساعدة على إدخال إصلاحات ديمقراطية حقيقية.

بيـــنما تجتهد الحكومات في تصميم بيئات الكترونية متطورة لتشديد قبضتها علـــى مقاليد السلطة، يظل بإمكان الناس في الشارع أن يستخدموا خدمة الرسائل القصيرة (SMS) مثل إرسال الرسائل النصية عبر الهواتف الخليوية لتبادل المعلومات أو تنظـــيم التحـــركات الاحتجاجـــية. ففـــي كـــوريا الجنوبية يحتمل أن تكون الـــ 800,000 رســـالة الالكترونية والنصية التي أرسلت للناخبين سنة 2002 قد أثّـــرت في نتائج الانتخابات الرئاسية التي فاز بها "روه مو هيون". وفي سنة 2004 اســـتخدم اثـــنا عشر ألف عامل في الصين خدمة –الأس أم أس– في سياق التعبئة لتنظـــيم إضراب ضدّ أحد المصنّعين. وعلى عكس الانترنت التي يمكن أن تتعرض للرصـــد، فـــإن اســـتخدام الهواتف الخليوية يتخطى محاولات الرقابة. فهي تتيح لمـــستخدميها إرســـال الرسائل بحرّية، وهو ما يضفي عليها قيمة خاصة باعتبارها أدوات سياسية مناهضة للسلطة.[7]

الطريق نحو التغيير الديمقراطي ليس مستقيما ولا ممهدا، ولا يمكن للإعلام أن يفعل أكثر من جعل السفر عبر ذلك الطريق أيسر. ورغم أن تكنولوجيا المعلومات والاتصال ليست ترياقا لكل شيء إلا أنه بإمكانها أن توفر قوة دفع متزايدة الأهمية للإصـــلاحات المحلية والإقليمية والدولية. فالانترنت – إذا أخذنا وجها واحدا من

وجـــوه الإعـــلام الجديـــد -تغيّر المجتمع بأشكال يمكن أن تعتبر محسومة لدى من أصـــبحوا يعـــتمدون علـــيها اعتمادا كاملا. فأثرها في التغيير أكبر بكثير من أثر التلفـــزيون حـــين كان في أفضل أيامه في خمسينات القرن الماضي وستيناته، وتعدد وظائفـــه وقدراته التفاعلية تجعل من الحكم على حقيقة تأثيره أمرا في غاية التعقيد. وإذا أضـــفنا إلى الانترنت الهاتف الخليوي وقنوات التلفزيون الفضائية وغيرها من تكنولوجـــيات المعلـــومات والاتـــصال، إلى جانب التأثيرات السياسية للشبكات الاجتماعـــية الـــراهنة والمستقبلية، فإن ذلك كله من شأنه أن يلهب خيال النشطاء طيلة سنوات قادمة.

الصين: المختبر العملاق

مـــثلما هـــو الشأن مع الإحصائيات المتعلقة بنسق التحديث في الصين، فإن الأرقـــام الخاصـــة بالاتصالات تعتبر مذهلة. فمن سنة 2002 إلى غاية 2006 ازداد عـــدد أجهزة الحاسوب المرتبطة بالانترنت ليتجاوز الضعف ويصل إلى 46 مليون جهـــاز. وازداد عدد مستخدمي الانترنت ليبلغ 173 مليون مستخدم مع نهاية عام 2006، ومـــع نهاية 2007 وصل العدد إلى 210 مليونا، وهو ما جعل الصين تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في هذه الفئة. في أواخر عام 2007 أصبح 75% مـــن مستخدمي الانترنت الصينيين يستخدمون الارتباط فائق السرعة بزيادة 7% مقارنة بعام 2002. وكانت محركات البحث تستقبل 360 مليون طلب يوميا، بينما اســـتخدم 87 ملـــيون شـــخص الرسائل المرسلة بين جهازي حاسوب، أما عدد المـــدونات فقـــد ارتفـــع من لا شيء تقريبا إلى ما بين 15 إلى 30 مليونا، حسب التقديـــرات، وذلـــك خـــلال ثـــلاث سنوات. وفي الفترة نفسها تضاعف عدد اشتراكات الهاتف النقال متجاوزا الـــ 400 مليون، وهو رقم لا نظير له في أي بلد آخر.[8]

هـــذه الـــتطورات أدت إلى نمو قطاع اقتصادي جديد يضم مزودي الخدمة والمحـــتوى لكـــل عمـــلاء التكنولوجـــيا العالية. فقد وفرت ساينا (Sina) البوابة الالكتـــرونية الأكثر شعبية، لزوارها المسجلين البالغ عددهم 95 مليون سنة 2004، روابـــط للشركات الكورية التي تدير عمليات القمار الالكتروني، ولمواقع المزادات

علـــى شبكة ياهو (Yahoo). وقد سجلت هذه البوابة أرباحا تقدر بـــ 31 مليون دولار أمريكـــي مـــن أصل 114 مليون دولار هي مجموع مداخيلها. من جهتها، ســـجلت ســـوهو (Sohu)، الـــبوابة الأخرى، أرباحا طائلة عبر إرسال محتويات الكتـــرونية إلى الهواتف النقالة لعملائها. وتعد شاندا (Shanda) من بين المبادرات الأخـــرى التي أفرزها تطور القطاع الالكتروني في الصين. فهي تركز نشاطها على ألعـــاب القمار وقد ذكرت أن عدد حسابات مشتركيها الذين يدفعون رسوما بلغ نحـــو 19 ملـــيون ســـنة 2005، وكذلك لينكتون (Linktone) التي توفر الألعاب والرسوم الكرتونية والأبراج على الهواتف الخليوية لعملائها.(9)

يتناسب هذا التقدم التكنولوجي تماما مع النمو الذي تشهده الصين باعتبارها إحـــدى القوى الاقتصادية والسياسية العظمى في العالم. أما البلدان المتخلفة في هذه المجـــالات، مـــثل كثير من بلدان الشرق الأوسط، فقد وضعت نفسها في الدرجة الأدنى على مستوى التأثير العالمي. ففي الحالات المثالية، عندما يكون عدد كبير من الـــناس قـــادرين علـــى التواصل فيما بينهم وجمع المعلومات بطرق متعددة، فإن الديمقـــراطية ستجد لها موطئ قدم. ومع ذلك، يظل بإمكان الحكومات أن تعطل هـــذا المـــسار، وبحـــسب درجة تطور الجهود التي تبذلها والتصميم الذي تبديه، فـــبمقدورها أن تحـــرّف مسيرة التحول الديمقراطي القائم على التكنولوجيا، على الأقـــل مؤقـــتا. ومـــن بين البلدان التي تمارس تكتيكات مناهضة للديمقراطية، تبرز الصين، وللأسف بشكل ملحوظ، بسبب صرامتها في استخدام الرقابة الشاملة.

يمكـــن أن تكون ممارسات الحكومة الصينية قد أثارتها جزئيا التوقعات المتفائلة مـــن كـــل أنحاء العالم بأن الإعلام الجديد سيفتح الطريق أمام المعارضة ويؤدي إلى تـــسارع اتساع الممارسة الديمقراطية في الصين. هذه التقديرات فشلت في تكوين صـــورة دقـــيقة عـــن الواقع السياسي الصيني – فأغلب من في السلطة لا يريدون الديمقراطية، إلا بالشكل الذي يحددونه ويتمكنون من التحكم فيه.

وقد أسفرت التكتيكات الحكومية عن نتائج متضاربة. ففي سنة 2000 صرح الرئيس بل كلينتون أن الجهود التي تبذلها الصين للحد من استخدام الانترنت "تشبه محاولـــة شـــد مادة هلامية بالمسامير على الجدار" كناية عن صعوبة تلك المهمة أو اســـتحالتها. ومـــع ذلـــك فقد خلص تقرير أصدرته مؤسسة راند سنة 2002 أن

"الحكـــومة الـــصينية نجحـــت في الحـــد من انتشار المعارضة الناشطة على شبكة الانترنت، وذلك أساسا باستخدام "تقنيات لينينية" قديمة تتضمن إجراءات حكومية صارمة مثل ممارسة الرقابة، والإيقاف، ومصادرة الأجهزة، واستخدام المخبرين... كمـــا توجد أدلة على استخدام الحكومة للانترنت لأهدافها السياسية الخاصة من خـــلال إشاعة الانتقادات للمعارضين الكترونيا وإغراق بريدهم الالكتروني بآلاف الرسائل المزيفة."[10]

ومـــن بـــين الـــذين تـــستهدفهم أجهزة الرقابة مجموعات النقاش الإخبارية الالكتـــرونية، الـــتي تفـــتح منتدياتها لخبراء مشهورين لمناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية، وتشجع تعليقات الجمهور حول المسائل التي لا تتناولها وسائل الإعلام الحكومية بما يكفي من الجرأة، هذا إن تعرضت لها أصلا. فمناقشة الأخبار بلا قيود مظهـــر من مظاهر حرية التعبير وإحدى الممارسات الديمقراطية الأساسية، التي تعني مـــن وجهة نظر الحكومة الصينية أنها خطرة وينبغي وقفها، خصوصا إذا نجحت في تشكيل متابعة واسعة على غرار الكثير من المواقع الأخرى. ففي شهر فبراير/شباط 2004 وضعت الحكومة قواعد منعت بموجبها التغطية المستقلة التي لا تحظى بموافقة الحكـــومة، كما منعت مناقشة القضايا الحساسة مثل المشاكل الاقتصادية، وإرسال الرســـائل الالكترونية التي تحتوي على نقد للحزب الشيوعي. وأصبحت عمليات الـــبحث عن بعض المواقع التي تنشر آراء سياسية تواجه بظهور صفحة تحمل عبارة "هـــذه الصفحة لا يمكن العثور عليها"، كما يظهر للمستخدمين عند محاولة إرسال تعلـــيقاتهم تنبـــيه يقول "هذا الموقع يستخدم الآن نظام الفحص القبلي. سيفحص رسائلك موظفو إدارتنا قبل أن يراها المتصفحون الآخرون."[11]

مـــن بـــين الإجـــراءات الأخـــرى التي تهدف إلى التأثير في مجرى النقاش الالكتـــروني زرع قـــضايا يحـــددها أشخاص يرصدون النقاشات بتوجيه من الحكـــومة. ففي جامعة شانغهاي في سنة 2006 كان خمسمائة طالب يشتغلون على مشروع باسم "اتركوا رياح الانترنت المتحضرة تهب" وهو جزء من حملة أوســـع تـــروج لـــــ "لأخلاقيات الاشتراكية." وجّه هؤلاء الأشخاص، دون الكـــشف عن وظيفتهم الحقيقية، النقاشات الالكترونية نحو قضايا وآراء تحظى بموافقة الحكومة.[12]

لم تكن جهود المسؤولين الصينيين في مراقبة الانترنت متسقة دائما، إذ عليهم أن يتعاملوا مع أوليات متعارضة. وقد كانت رغبتهم الأولى تتجه نحو منع الوصول إلى مصادر الأخبار مثل النيويورك تايمز والبي بي سي. ولم تكن هذه الممارسات تمثل إزعاجا كبيرا إذ يمكن لمستخدمي الانترنت الصينيين أن يصلوا إلى نفس المعلومات بالدخول إلى مواقع أخرى. إلا أن الحكومة بدأت بعد ذلك بمنع الدخول إلى محركات البحث، مثل غوغل، التي تعتبر أدوات أساسية للعثور على المعلومات الالكترونية. لقد بدا أن هذه الطريقة ناجعة جدا لإبعاد الناس عن أخبار المجموعة الدينية فالون غونغ، والدالاي لاما، وبقية المواضيع التي لا تريد الحكومة للناس أن يناقشوها أو حتى يفكروا فيها مجرد التفكير. يُذكر أن الرئيس هو جنتاو (Hu Jintao) قال في إحدى الجلسات الدراسية للمكتب السياسي في بداية عام 2007، "نجاحنا في التعاطي مع الانترنت من شأنه أن يؤثر في تنمية الثقافة الاشتراكية، وفي أمن المعلومات، وفي استقرار الدولة." وأضاف أنه لا ينبغي أن نمنع تطور استخدام الويب وإنما علينا تطويره بكيفية تضمن "تنمية ثقافة الكترونية صحية."[13]

نحو ثلاثة أرباع حركة النت الصينية تمر عبر "تشاينا نت" التي تملكها شركة الهاتف الحكومية "تشاينا تيليكوم" وكل حركة النت في الصين ينبغي أن تمر عبر بوابات – بنوك تابعة لأجهزة الحاسوب الحكومية – حيث يمكن مراقبة الرسائل الالكترونية وعمليات البحث. ومن شأن ذلك أن يسهل على الحكومة التحكم في العلاقة بين "تشاينا نت" وشبكة الانترنت الدولية؛ فأجهزة التوجيه مثلها مثل بدالات السكك الحديدية، يمكن برمجتها لرفض البيانات القادمة من مواقع معينة. وأجهزة الترشيح بإمكانها التقاط عبارات محددة تستخدم في البحث مثل "معارض"، "تايوان المستقلة" وغيرها – وإعادة توجيه البحث باتجاه مواقع توافق عليها الحكومة. إلى جانب هذه الرقابة التي تعتمد على أجهزة الحاسوب، توظف السلطات الصينية أكثر من ثلاثين ألف شخص لمراقبة مواقع الانترنت والبحث عن المحتوى "المرفوض" سياسيا.[14]

ونظرا لاتساع دائرة البيروقراطية الصينية فليس من الصعب نشر آليات المنع، على الأقل قبل أن تبتكر برمجيات الحاسوب حلولا تمكنها من الالتفاف على العراقيل التي تضعها الحكومة. ولكن المشكل الذي سرعان ما واجهته الحكومة

الـــصينية كـــان رد فعـــل أصحاب الأعمال من مختلف أنحاء العالم، حين يصطدم مـــندوبو الشركات العالمية في الصين، أثناء محاولتهم العمل الكترونيا، بالقيود التي تفرضـــها الحكـــومة الصينية. كثير من هؤلاء الرجال والنساء يعتبرون أن استخدام الانتـــرنت جـــزء مـــن حقوقهم، ويتوقعون أن يتمكنوا هم وموظفوهم من القيام بعملـــيات البحث واستخدام أجهزتهم بحرية لإنجاز أعمال الكترونية أخرى. وهذه مسألة ضرورية لممارسة نشاطهم، وهو ما جعل الحكومة تعي سريعا أن دور الصين في السوق العالمية سيتقلص إذا لم ترفع هذه الحواجز.

فالـــصين تـــريد أن تصبح لاعبا دوليا، وليس مجرد معقل محاط بالأسوار مثل كوريا الشمالية، حيث تستطيع الحكومة العمل دون خشية من تخويف المستثمرين أو معـــاداة مجتمع الأعمال في مختلف أنحاء العالم. لذلك، ورغم أن صناعة القرار في الـــصين لا تخضع لترتيبات النموذج الديمقراطي إلا أنها محكومة إلى حد ما بحقائق الاقتصاد العالمي التي تجعل من التشدد في منع الدخول إلى الانترنت غير عملي. وقد لاحظ فؤاد زكرياء "أن نخب الحزب الشيوعي الصيني – مثلهم مثل كل المستبدين التحديثـــيين – يؤمـــنون أن بإمكانهم التحكم في هذا التوازن، المزج بين الليبرالية الاقتـــصادية والـــسيطرة السياسية." ويرى زكرياء أن نموذجهم هو رئيس وزراء سنغافورة السابق لي كوان يو (Lee Kuan Yew) الذي "تمكن من تحقيق حلم كل رجـــل قوي: تحديث اقتصاد بلاده، وحتى مجتمعه، ولكن ليس السياسة."[15] فقد كـــان لي اســـتثناء، إذ استطاع تحقيق الحداثة مع تأجيل بعض مظاهر الديمقراطية. للصين طموحات أكبر وهي تخضع للاختبار أثناء محاولتها الوقوف في وجه القوى الكبرى الداعية للتغيير على الصعيد العالمي.

وحـــسب مـــا جاء في تقرير لمركز بيركمان للانترنت والمجتمع التابع لجامعة هارفـــارد، يعتـــبر نظام فلترة الانترنت في الصين "أكثر الجهود تقدما على مستوى العـــالم." فإذا كنت من مستخدمي الانترنت الصينيين وبعثت برسالة تحمل عبارة "ديمقراطية" أو أية كلمة أو جملة في السطر المخصص للعنوان من شأنها أن تغضب المسؤولين، فمن المحتمل أن يصلك تحذير: "هذه الرسالة تحمل تعبيرا ممنوعا، يرجى إلغاؤهـــا." ولا تمارس السلطات الصينية رقابتها على تدفق المعلومات بهذه الطريقة بمفـــردها، فقـــد جنّدت شركاء أقوياء بعضهم من الولايات المتحدة. وقد غيّرت

مايكروسوفت من أدوات التدوين – أم أس أن سبايس – لمساعدة الحكومة الصينية. كما حددت ياهو من نطاق محركات بحثها لمنع النتائج الحساسة سياسيا. ومن ناحيتها، باعت أنظمة سيسكو أجهزة إلى الصين لمنع الدخول إلى مواقع معينة وصفحات محددة في بعض مواقع الانترنت.[16]

تقول الشركات غير الصينية المنخرطة في مثل تلك الممارسات إنّها تحاول التوفيق بين القيم من جهة ومصلحة العمل من جهة أخرى. فقد ردت ياهو على الانتقادات بشأن عملها في الصين مدعيةً أنها تسعى لـ "موازنة المتطلبات القانونية مع إيماننا الراسخ بأن انخراطنا الفاعل داخل الصين يساهم في تحديث البلاد بشكل مستمر." أما غوغل فقد كيّفت قدرات محركها البحثية لتستجيب لطلبات الحكومة الصينية، وقد دافع أحد مسؤوليها عن ذلك بقوله "كلنا واعون بأن الدخول إلى الصين يتطلب منا إحداث توازن بين حاجتين محددتين: حاجات مستخدمينا وحاجة العمل ضمن مناخ سياسي ووفق عدد من اللوائح الحكومية، كما نفعل في بقية بلدان العالم." (ليس هناك جديد بشأن أسبقية القانون الوطني في ما يتعلق بقطاع الأعمال الالكتروني العالمي. فمنذ عام 2000 بدأ ياهو وإي باي (e-Bay) يتكيفان مع القوانين في ألمانيا وفي غيرها من البلدان التي تمنع بيع المواد التذكارية النازية وغيرها من المواد التي تدعو للكراهية.)[17]

مع ذلك يمكن التدليل على أن بعض المؤسسات الإعلامية أخلّت بهذا التوازن وتخلت عن قيمها لحساب توسيع نطاق معاملاتها التجارية في الصين. فقد حذفت ستار تي في (Star TV) التابعة للمؤسسة الإخبارية التي يملكها ريوبرت ميردوخ قناة بي بي سي من باقاتها الموجهة لمنطقة شمال آسيا، كما رفضت هاربر كولينز (HarperCollins)، وهي أيضا جزء من المؤسسة الإخبارية، نشر كتاب كريس باتن (Chris Pattern)، آخر حاكم بريطاني لهونغ كونغ وأحد أشد منتقدي القيادة الشيوعية في الصين. كان ذلك بمثابة تراجع ملحوظ لميردوخ الذي أعلن بفخر سنة 1993 أن التلفزيون الفضائي يمثل "تهديدا لا لبس فيه للأنظمة الشمولية في كل مكان." وفي سنة 2005 بدأ ميردوخ يتحدث ويعمل بطريقة مختلفة، فأصبح يتعاون مع التلفزيون الرسمي الصيني سي سي تي في (CCTV) وهذا جزء من جهود المؤسسة الإخبارية لتأمين الأرباح الطائلة التي تنتظره داخل السوق الإعلامية الصينية.[18]

إن التعاون مع الحكومة الصينية يضع التكنولوجيا وشركات الإعلام على جرف هار. ففي عام 2005 حُكم على الصحفي الصيني شي تاو (Shi Tao) بعشر سنوات سجنا بتهمة "إفشاء أسرار الدولة للخارج". وتتمثل "جريمة" شي في إرسال رسالة الكترونية تحمل ملاحظاته بشأن تحذير وجّهه أحد المحرّرين للصّحفيين يمنع نشر أية تغطية لفعاليات إحياء الذكرى الخامسة عشر لمجزرة ميدان تيان أن من سنة 1989. وقد اعتمد الادعاء جزئيا على معلومات ربطت بين عنوان بريد شي الالكتروني ورقم هاتفه، وهي بيانات وفّرها أحد وكلاء ياهو للحكومة. وبعد محاكمة شي ببضعة أشهر، أنفقت ياهو مليار دولار لشراء 40% من قيمة أسهم علي بابا (Alibaba.com)، وهي أكبر شركة تجارة الكترونية صينية. وكان ذلك أضخم استثمار أجنبي منفرد في قطاع الانترنت الصيني، وبالتأكيد لم يكن ذلك ليحظى بالموافقة لو لم يكن للحكومة الصينية استعداد كامل للتعامل مع ياهو.[19]

أيا كانت التبريرات التي يمكن أن تقدمها الشركات المنخرطة في هذه الأعمال، فإن هذا التواطؤ مع العراقيل التي تفرضها الحكومة الصينية على حرية التعبير تفوح منه رائحة كريهة. وبناء على هذه الأمثلة فإن الفكرة القائلة بأن تكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة من شأنها أن تسرّع في مسيرة الديمقراطية، تبدو أكثر بقليل من مجرد خيال. وعلى صعيد الخدمات الأساسية من نوع مد الجمهور بأخبار أكثر دقة وشمولا – وهي طريقة أخرى لتعزيز التحول الديمقراطي – فقد برزت مشكلات إضافية.

لقد لوحظ إبّان انتشار أعراض مرض السارس (SARS) سنة 2002 أن الحكومة الصينية أحاطت نفسها بسلسلة من العُقد أثناء محاولتها التحكم في المعلومات الخاصة بالفيروس. ورغم أنه مع بداية شهر فبراير/شباط 2003 كان تسع مائة شخص قد أصيبوا بالسارس في إقليم غوانجو (45% منهم يعملون في مجال الرعاية الصحية)، فقد واصل المسؤولون الإقليميون للحزب الشيوعي منعهم التغطية الإخبارية لهذا المرض. ولم يعلم به الناس إلا عبر رسالة نصية مقتضبة أرسلت بتاريخ 8 فبراير/شباط إلى الهواتف النقالة: "هناك انفلونزا قاتلة في غوانجو." وفي الأيام الثلاثة التالية، أعيد إرسال تلك الرسالة 126 مليون مرة، كما تولت غرف الدردشة والرسائل الالكترونية بدورها نشر الخبر. وفي الحادي عشر من فبراير/شباط

تلقـــت يومـــية "غوانجـــو اليومي" الإذن من حاكم المحافظة لنشر تقرير عن مرض السارس والإعلان عن إصابة 305 شخص ووفاة خمسة أشخاص.

ولكـــن ذلك لا يعني أن المؤسسات الإخبارية أصبح بإمكانها تغطية الموضوع تغطـــية شاملة. فحين أصدرت منظمة الصحة العالمية تحذيرها الأول بشأن الفيروس في الخـــامس عشر من مارس، أمرت وزارة الدعاية الصينية وسائل الإعلام الصينية بعـــدم تغطية الموضوع. ومع ذلك فقد انتشر الخبر بين الجمهور عن طريق الرسائل النـــصية بدرجة أولى، وهي وسيلة ذات شعبية واسعة لدى الصينيين لأنها نسبيا غير مراقبة. (خلال الربع الأول من عام 2003، تداول الصينيون فيما بينهم 26,5 مليار رسالة نصية. وفي عام 2007 بلغ عدد الصينيين الذين يستخدمون التراسل الفوري 170 مليونا.)

وعـــندما أعلـــن وزيـــر الـــصحة الصيني في مؤتمر صحفي، ردا على تحذير للمسافرين أصدرته منظمة الصحة العالمية بشأن السارس، أن "السارس أصبح تحت الـــسيطرة"، أرسل جرّاح غاضب في بيكين رسائل الكترونية إلى قناتيْن تلفزيونيتين صينيتين يقول فيها إنه يعلم عن وجود أكثر من مائة حالة إصابة بالسارس وأن ستة أشـــخاص قد توفوا في بيكين وحدها. ورغم أن القناتين لم تتابعا الموضوع إلا أن الخـــبر تم تسريبه إلى مجلة "تايم"، التي نشرت تقريرها على موقعها الالكتروني. على إثـــر ذلك ترجم بعض القراء الصينيين تقرير التايم وبعض المقالات الغربية الأخرى حـــول السارس ونشروها عبر الرسائل الالكترونية في كامل أنحاء الصين. وجاء في تـــصريح لمـــسؤول صـــيني للواشنطن بوست قوله "لقد حصلنا على معلوماتنا من الانترنت، وقالت الانترنت إن معلومات الحكومة كانت زائفة. كان أول ما فعلناه جميعنا عند وصولنا إلى مكاتبنا هو الدخول على الانترنت وقراءة ما تقوله الحكومة ثم مـــا يقوله الإعلام الأجنبـــي. لقد خلقوا وضعا على هذه الشاكلة: إذا لم تقل الحقـــيقة، ســـيبدأ الـــناس في تصديق الأجانب، لذلك فقد كان على الحكومة أن تتغير."[20]

لقـــد حـــدث ذلك التغيير، ولكن ببطء. فقد دفع الرئيس الصيني هو جنتاو ورئيس الوزراء وان جيباو المسؤولين لأن يقدموا مزيدا من المعلومات. وفي الأخير طلـــب القائـــدان مـــن المسؤولين خلال اجتماع للمكتب السياسي أن يكفّوا عن

الكـــذب بخصوص مدى انتشار وباء السارس وأمروا بالقيام بعمل شعبـــي واسع لوقـــف انتـــشار هذا المرض. وعلى الفور طُبعت تلك الأوامر وبُثّت عبر وسائل الإعلام الصينية. وبعد بضعة أيام، أقيل وزير الداخلية ورئيس بلدية بيجين لدورهما في التغطية على ذلك المرض.

ربمـــا يكون قادة الصين قد تعلموا من هذه الواقعة أنه لم يعد بإمكانهم أن يعكسوا وجهة تيار المعلومات. ولم يعد بمقدورهم أن يتحكموا تماما في محتوى الأخبار من خلال إملائهم على عدد محدود من المسؤولين التنفيذيين في قطاعي الصحافة المطبوعة والتلفزيونية ما يستطيعون وما لا يستطيعون قوله للجمهور. فالمـــزج بـــين استخدام الرسائل النصية داخل الصين، والوصول (ولو بشكل محدود) إلى مصادر الأخبار العالمية يعني أن تدفق المعلومات لم يعد ممكنا وقفه. ومـــع ذلـــك، مـــا زال المسؤولون الصينيون أبعد ما يكونون عن تبني سياسة الانفتاح. فبعد شهر واحد من إصدار الرئيس هو جنتاو تعليماته للإعلام بقول الحقـــيقة بـــشأن السارس، عملت السلطات على إيقاف أكثر من مائة شخص بـــتهمة بـــث "شائعات" عبر الرسائل النصية. ويبدو أنه لم يكن مهما إن كان الكثير من تلك الشائعات صحيحا.[21]

وبعـــد نهاية أزمة السارس تواصل تضييق الخناق على وسائل الإعلام الجديد. ففـــي شـــهر ديـــسمبر/كانون الأول اتهمت امرأة من إقليم هايلونغجيانغ مزارعا وزوجـــته بخـــدش ســـيارتها البـــي أم دبليو بعربتهما. وصرخت في وجه المزارع وزوجته ومجموعة من الفلاحين، ثم قادت سيارتها باتجاههم ودهست زوجة المزارع فقتلـــتها وجرحت اثني عشر شخصا آخرين. وعندما صدر ضدها حكم مع وقف التنفـــيذ بـــتهمة "إزعاج مروري غير متعمد" من إحدى المحاكم المعروفة بإصدار أحكام قاسية، انتشرت الشائعات بأن لها علاقات سياسية قوية. وتحوّلت القصة إلى موضـــوع ساخن في مواقع النقاشات الإخبارية على شبكة الانترنت. وقد ذكرت تشاينا دوت كوم أن 200,000 رسالة الكترونية تم تبادلها بشأن الموضوع، وأن 90 % مـــن تلـــك الرسائل قالت إن الحكم في القضية كان مخفَّفا جدا، وهو ما اضطر حاكم الإقليم لينفي علنا علاقته بالسائقة، كما وعد مسؤولون آخرون بأن يعيدوا فـــتح القـــضية من جديد. ولكن الحكومة طلبت من المؤسسات الإخبارية أن لا

تتـــناول الموضـــوع ثم عمدت إلى إغلاق بعض غرف الدردشة الالكترونية حيث كانت القضية موضوعا ساخنا. وبعد نهاية التحقيق، تم تأييد الحكم الابتدائي.[22]

وعلـــى عكس قصة السارس التي كانت لها تداعيات اقتصادية عالمية، لم يكن لهـــذه القـــصة انعكاسات مباشرة على الحكومة الوطنية. في السابق، حين لم يكن الإعـــلام الجديد يحظى بمثل هذا الحضور الطاغي، كان يمكن للحكومة أن تتحرك وراء الأبـــواب المغلقة للتصرف مع سائقة البـــي أم دبليو بطريقة أو بأخرى. ولم يكـــن الجمهـــور ليعلم أي شيء أكثر مما تريد الحكومة أن تبلغه به. أما الآن، فقد أصبح ممكنا فتح تلك الأبواب المغلقة قسريا، أو على الأقل، صار بإمكان المتصنتين في أحيان كثيرة أن يجدوا طريقهم لسماع ما يجري وراءها.

مـــن جهـــة أخرى، فإن قلق الحكومات يمكن تبريره من بعض النواحي، لأن "العدالـــة الالكتـــرونية" يمكن أن تتحول بسرعة إلى "ظلم الكتروني." فالعديد من الرســـائل الـــتي هاجمت الطريقة التي تعاملت بها المحكمة مع قضية البـــي أم دبليو اعـــتمدت علـــى الإشاعات والشائعات التي تدفقت دون رقابة. وأغلب قطاعات الحكـــومة الصينية تفتقر إلى المرونة المطلوبة للرد على ما يثار خلال نقاش عام من هذا القبيل.

في حالـــة أخـــرى، نقاش أدبـــي دار في شهر ديسمبر/كانون الأول اجتذب آلاف الرســـائل. كـــان الموضوع مقالة بعنوان "إحياء لذكرى الآنسة ليو هزهن"، ألفهـــا ســـنة 1926 الكاتـــب الصيني الكبير لو شون بعد قتل إحدى طالباته أثناء مظاهـــرة أمـــام مبنى الحكومة في بيكين. كتب لو شون في مقالته "إن تاريخ تقدم معـــركة البشرية إلى الأمام عبر إراقة الدماء يشبه عملية تكوّن الفحم، حيث نحتاج إلى كمـــية هائلة من الحطب لإنتاج كمية ضئيلة من الفحم. فالعرائض لا تحقق أي هدف، خاصة إذا كان سلميا. أما إذا أريقت الدماء، فإن الأمر يصبح محسوسا من الجميع بشكل طبيعي."

فأن يثير عمل نُشر قبل نحو ثمانين عاما كل هذا النقاش، قد يبدو ذلك للوهلة الأولى غريبا، ولكن سرعان ما اتضح أن ذلك الحدث القديم في بيجين لم يكن إلاّ ذريعـــة لإثـــارة النقاش حول حدث أكثر راهنية. فقبل بضعة أيام، كانت الشرطة الـــصينية قد أطلقت النار على مزارعين يحتجون على مصادرة أراضيهم في دونغجو

ويذكـــر أنها قتلت ما لا يقل عن عشرين منهم. على إثر ذلك، أصدرت الحكومة تعليمات لوسائل الإعلام الرئيسة بأن لا تغطي الحدث، وطلبت من المسؤولين على مواقـــع الانترنت أن يمنعوا أية إشارة إلى ذلك، كما ألغيت عبارات مثل "دونغجو" من محركات البحث.

ورغـــم محـــاولات الحكومة خنق النقاش حول الحادثة، فقد تلقى أحد مواقع اللوحات الإعلانية أكثر من ثلاثين ألف رسالة تعكس حالة الغضب والحزن بسبب عمليـــات القتل. وبعد بضعة أيام حذف القائمون على الموقع تلك الرسائل، ونشر أحـــد محرريه ملاحظة يعتذر فيها لأؤلئك الذين بعثوا برسائلهم ويعدهم بأن يبلغ "السلطات المسؤولة" بتدفق الاحتجاجات.

وللوقـــوف في وجه هذه العراقيل، أصبح مستخدمو الانترنت مهرة في ابتداع أساليب خلاقة للتخلص من تلك القيود؛ وهو ما سمح بمناقشة مقالة لو شون. وقد جـــاء في تعلـــيق أحـــد المشاركين أن السلطات ربما تكون قد فهمت ما يجري: "الحديث عن لو شون ليس جريمة، ولكنه شكل من أشكال الاحتجاج." كما بعث ثمانـــية مـــن أشهر المعارضين برسالة مفتوحة على "بوكي" (Bokee)، أكبر مواقع التدوين الصينية يدينون فيها حادثة إطلاق النار في دونغجو. و لم تلبث تلك الرسالة أن ألغـــيت من الموقع بعد اثنتي عشرة ساعة من نشرها. بعد ذلك اكتفى أصحاب الرســـالة بنشر العنوان "بيان حول حادثة القتل في دونغجو"، إلى جانب أسمائهم، معـــتقدين أن الـــذين سيقرؤون العنوان دون محتوى إضافي سيبحثون عن الرسالة كاملـــة في مكان آخر على شبكة الانترنت. وخشية أن يظهروا بمظهر المتواطئ مع الـــرقابة الرسمية بما يدفع عملاءهم للانصراف عنهم، قرر مسؤولو بوكي أن يتركوا تلك النسخة المختصرة منشورة.

ولأن مراقبـــــي الحكومة وجّهوا جل اهتمامهم لمراقبة المواقع الأكثر شعبية، فقـــد أصـــبحت أغلب رسائل الاحتجاج بخصوص دونغجو تنشر على مواقع أقل أهمـــية. وظلت تلك الرسائل متاحة فترة من الزمن إلى أن تفطنت لها أجهزة الرقابة بفعل كثافة الحركة عليها، فأغلقتها هي الأخرى.[23]

تعكـــس هـــذه الأمثلة تصميم الحكومة على التحكم في الأخبار، وفي المقابل تؤكد تصميم الكثير من الصينيين على الوصول إلى المعلومات. ورغم توظيفها لعدد

هائل من المراقبين والأجهزة الرقابية، إلا أن الحكومة لم تتمكن من منع كل التسريبات أو مواجهة كل المناورات التكنولوجية التي استخدمها مواطنون حازمون في بحثهم عن الحقيقة. وعلى هذا الأساس، فإن القول بأن أحد الأطراف قد "كسب" يعد تبسيطا ولا معنى له، وبالتالي فإن لعبة شد الحبل ستتواصل إلى ما لا نهاية.

وبينما يتواصل هذا الصراع، يستمر خبراء التكنولوجيا من الجانبين في تطوير المهارات التي سيستخدمها كل منهما ضد الآخر. فقد ابتكرت "سايف ويب" (SafeWeb)، وهي شركة أمريكية خاصة (تلقت تمويلا من وكالة الاستخبارات المركزية) برمجية ملقم بديل باسم "تراينغل بوي" الذي بدأ في عام 2001 يوفّر ملقمات بديلة لم تتمكن أجهزة الرقابة الصينية من تعقبها في حينها. وكان مستخدمو الانترنت الصينيون يتلقون يوميا رسائل الكترونية تحمل إليهم آخر عناوين ملقمات تراينغل بوي، التي تمكنهم من الدخول إلى المواقع التي تمنعها السلطات الصينية. فالبرمجية تتولى تشفير البيانات المرسلة بين جهاز حاسوب شخصي ومواقع الانترنت التي يزورها صاحب ذلك الجهاز، بطريقة تخدع جدران الحماية وآليات المنع الأخرى.[24]

ومؤخرا أصبح استخدام الملقمات البديلة أكثر شيوعا. فعلى سبيل المثال، أطلق موقع صوت أمريكا (voanews.com)، وهو من المواقع الممنوعة في الصين، موقعا بديلا على عنوان لم تصنفه الحكومة الصينية ضمن قائمة العناوين الممنوعة. وبعد ذلك تدفقت الرسائل الالكترونية على مستخدمي الانترنت الصينيين تنبههم إلى العناوين التي أفلتت من قبضة الرقابة. فأصبح المستخدمون الصينيون يستطيعون الوصول إلى تلك المواقع ثم الدخول بعدها إلى شبكة الانترنت. وعندما كان المسؤولون الصينيون يتفطنون إلى تلك المواقع الجديدة – غالبا في غضون أيام – كانت تُطلق مواقع أخرى بديلة، وتستمر العملية.[25]

وبينما تتواصل لعبة القط والفأر هذه، ويظل الدخول إلى كثير من المواقع عسيرا، تنطلق منافسة أخرى أكثر حدة، يتقابل فيها دهاء المدونين من جهة والأجهزة التنظيمية من جهة أخرى. يقول لي جيندي، وهو مدون متخصص ينشر تقارير استقصائية حول الفساد الرسمي، إنه يعتمد على "ما أسماه القائد ماو بتكتيك

العـــصفور فأنـــت تظل صغيرا ومستقلا، وتتحرك كثيرا، وتختار متى تضرب ومتى تهـــرب." تضمنت القصص الإخبارية التي نشرها تقارير عن نائب رئيس بلدية في جينيـــنغ كان قد اتهم بسرقة 400,000$، واختطاف فتاة صغيرة على يد مسؤولين في التخطيط العائلي، إلى جانب الموت المشبوه لرجل أعمال كان على خلاف مالي مع أحد مسؤولي الشرطة. يعتمد لي على دخل متواضع يتكون من مساهمات تأتيه من "فاعلي الخير" ومن صحفيين يستخدمون مدونته مصدرا للأخبار التي يعتمدونها في تقاريرهم الخاصة.[26]

في شهر مارس 2006 أمرت السلطات بغلق مدونة الصحفي المقيم في بيجين وانـــغ جياوفنغ ويوان لاي من غوانغجو. فقد اجتذبت تعليقاتهما الساخرة أعدادا كبيرة من القراء. فعلى سبيل المثال، تمت زيارة موقع وانغ أكثر من 10 ملايين مرة، وعندما أغلق ظهرت رسالة على الموقع تقول "لأسباب لا مفر منها يعلمها الجميع، أغلق هذا الموقع مؤقتا."[27]

لم يكن ذلك انتصارا حقيقيا للدولة. فالمدونات الشخصية يمكن غلقها، ولكن إذا لم تـــبدأ السلطات في سجن آلاف المدونين، فإن المدونات التي تهاجم الحكومة ستظل تظهر باستمرار بأسماء جديدة أو باستخدام أقنعة خفيفة. ومع ظهور آلاف المـــدونات كـــل يوم، تقف البيروقراطية التنظيمية الصينية، على اتساعها، عاجزة فـــتعمد الحكومة إلى تزويد الشركات المضيفة للمدونات بلوائح الكلمات الممنوعة لتقوم تلك الشركات بتطبيق القواعد.

وأحـــيانا، يقود غياب التعليمات الواضحة تلك الشركات إلى ممارسة رقابة أشد حتى من رقابة الحكومة ذاتها، خاصة إذا كانت للجهات المضيفة مصالح تجارية ضـــخمة تخـــشى أن تعرضها للخطر. ففي ديسمبر/كانون الأول 2005 أغلق منبر الـــتدوين الخـــاص بمايكروسوفت "أم أس أن سبايسز" مدونة الصحفي زهاو بينغ الـــذي كان يستخدم الاسم الالكتروني "مايكل آنتي" ويكتب عن قضايا مثل طرد الحكـــومة لمحررين صحفيين في إحدى الصحف التقدمية في بيجين.[28] وكان زهاو قد ذكر لمدونين آخرين أن مايكروسوفت لن تخاطر بإغلاق كامل خدمتها الخاصة بالمـــدونات – والتي تستضيف 3,3 مليون مدونة في الصين – وأنها "ستبيعني" من خـــلال إغلاق موقعه إذا تعرضت للضغوط من الحكومة. ويقول عن مدونته التي

أطلقهـــا في أواخر عام 2004 "كانت أغلب المدونات عبارة عن يوميات ترفيهية، فـــأردت أن أفعـــل شيئا مختلفا. أردت أن أنتج مدونة عالية الجودة تهتم بالسياسة، على شاكلة عمود، بحيث تكون كل المواد صالحة للنشر في الجرائد والمجلات." كان يـــستخدم عناوين بارزة، وصورا قوية، وإعلانات من غوغل لجلب القراء، وتناول في مقالاتـــه حـــرب العراق، والديمقراطية في تايوان، إلى جانب قضايا أخرى مثيرة للجدل.

في الـــوقت ذاته، كانت مايكروسوفت تتهيأ بحذر للدخول إلى سوق التدوين الصينية، عن طريق الدخول في شراكة مع شركة استثمار تملكها الدولة يديرها ابن الـــرئيس الـــسابق جيانغ زيمين. ورغم أن "أم أس أن سبايسز" منعت المدونين من استخدام عبارات معينة، مثل "حرية" و"ديمقراطية" في عناوين مدوناتهم، فقد كان مايكروســـوفت مغريا لكثير من المدونين. وبعد انتقال زهاو إلى هذه الخدمة، زاد عدد قرائه إلى أكثر من الضعف ليرتفع إلى خمسة عشر ألفا كل يوم.

وعـــندما أصـــبحت تعلـــيقات زهـــاو حادة جدا، اشتكت الحكومة لدى مايكروســـوفت وطلـــبت من الشركة إزالة موقعه لأن المدونين كانوا ممنوعين من الكـــتابة في "الشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية." ورغم ذلك واصـــل زهـــاو، الذي عمل في السابق باحثا في مكتبـــي الواشنطن بوست والنيو يـــورك تايمـــز في الصين، الكتابة مستخدما موقعا أجنبيا حاولت الحكومة الصينية إغلاقه أيضا.[29] لقد ظل هناك يكتب لقرائه، الذين بإمكانهم العثور عليه في مكان ما في الفضاء الالكتروني.

في عـــدة مناسبات، حاول نيكولاس كريستوف، وهو من كُتاب الأعمدة في صـــحيفة نيو يورك تايمز، اختبار أجهزة الرقابة الصينية. في 2005 كتب في إحدى غـــرف الدردشة الناطقة باللغة الصينية "إذا كان الصينيون على الجانب الآخر من مـــضيق تايوان يستطيعون اختيار حكامهم، لماذا لا نستطيع اختيار حكامنا؟" ظل تعليقه منشورا مدة عشر دقائق، قبل أن ينتبه إليه أحد المراقبين ويمحوه. بعد ذلك، أرسل كريستوف تعليقا أكثر ليونة يقول "تحت القيادة العظيمة للحزب الشيوعي، تغـــيرت الـــصين بـــشكل جوهري. أتساءل إن كان الحزب، بعد عشرين عاما، سيسمح بوجود أحزاب منافسة، لأن ذلك سيعود علينا بفائدة كبرى." لا شك أن

في ذلك دفاعا واضاحا عن نظام التعددية الحزبية، ومع ذلك لم تعمد أجهزة الرقابة إلى محـــوه؛ فمـــن يجرؤ على تحدي عبارة "القيادة العظيمة للحزب الشيوعي"؟ بعد سنة أطلق كريستوف مدونة، باللغة الصينية، على موقعيْ استضافة صينييْن. ثم نشر عليها سلسلة من الرسائل الاستفزازية: أدان سجن زميله من نيو يورك تايمز، زهاو يينغ، الذي اتهم بإفشاء أسرار الدولة (وهو اتهام مغلف بألوان من التشويش الرسمي أكثـــر مـــن العادة)؛ ودعا الرئيس هو جنتاو علنا إلى الكشف عن أرصدته المالية؛ وســـأل "لمـــاذا لا نستطيع مناقشة الفالون غونغ"؟؛ ووصف كيف شاهد الجيش الـــصيني وهـــو يطلـــق النار على المتظاهرين في ميدان تيان آن مان في الرابع من يونـــيو/حزيـــران 1989. بقيت المواد التي نشرها كاملة باستثناء بعض الرموز التي وضعت في مكان الحروف الصينية التي رسمت بها عبارتا "فالون" و"4 يونيو."

إن بقاء المواد التي ينشرها كريستوف على النت مدة طويلة ليس مؤشرا على تـــوجه جديـــد للحكومة الصينية بتبني سياسة الانفتاح. وكما لاحظ كريستوف، "الانتـــرنت مجال واسع جدا وفي غاية التعقيد يصعب على أجهزة الدولة الرقابية أن تتحكم فيه. لقد بدأت الويب تلعب دور الرقيب الذي يمارسه الإعلام الإخباري في الـــبلدان الأكثر حرية." وقد ذكر الصحفي المثابر لي جيندي "بإمكانهم أن يواصلوا إغـــلاق المواقع ولكنهم لن يلحقوا أبدا. لا يمكنك وقف تدفق النهر الأصفر، ولا يمكنك أيضا منع المدونين."[30]

ولا يعـــني ذلـــك أن الحكـــومة الـــصينية ستتوقف عن المحاولة. ففي شهر يناير/كانون الثاني، حين قدم غوغل نسخة صينية من محرك بحثه – Google.cn – كـــان قـــد وافـــق على القبول بتوجيهات المسؤولين الصينيين بمنع المحتوى الذي تعترض عليه الحكومة. فقد كان غوغل يرغب في الحصول على حصة كبيرة من الـــسوق التي تشهد نموا سريعا والتي من المتوقع أن يدخل إليها مئات الملايين من العمـــلاء المحتملين. وصف مسؤولو غوغل ذلك الاتفاق "الرقابـــي" بأنه مؤلم، ولكـــنهم قدمـــوا تبريـــرا أصبح مألوفا بين أصحاب الأعمال الذين يرغبون في الدخول إلى السوق الصينية: "نعتقد جازمين أن غوغل، وبفضل ثقافة التجديد التي نحملـــها، ســـتكون له مساهمات إيجابية وهادفة في سياق هذا النمو السريع والمثير للإعجاب في الصين."[31]

قـــد يكون الأمر كذلك، لكن التنازلات التي قدمها غوغل كانت متسقة مع إجـــراءات الـــصين التنظيمية الشاملة والمتطورة باستمرار، والتي يُرمز إليها بأحكام إدارة خـــدمات المعلـــومات وأخـــبار الانترنت، والتي كانت قد صدرت في شهر سبتمبر 2005. وحسب "مبادرة الشبكة المفتوحة"، وهي مشروع تعاوني بين أربع جامعات في بريطانيا وكندا والولايات المتحدة، كانت التغييرات الثلاثة الأكثر أهمية والتي نفذت من بين القواعد التي أقرت سنة 2005 هي:

"إضافة أصناف أخرى من المحتوى الإخباري الالكتروني الممنوع (إقامة تجمعات غير قانونـــية أو ممارســـة أنشطة باسم منظمات مدنية غير قانونية)، منع الآراء والمقالات التحليلـــية غير الحكومية، وتشديد شروط السماح للأشخاص والمجموعات الصغيرة بنشر الأخبار. ويهدف وضع الصنفين الجديدين ضمن المواد الممنوعة إلى تثبيط عزيمة أولئك الذين يرغبون في استخدام الانترنت لأغراض التنظيم والتعبئة السياسية التي تنظر إليها الدولة الصينية باعتبارها أعمالا تخريبية. وعلى هذا الأساس فإن الاستخدام المتزايد لرسائل الهواتف النقالة لتنظيم المظاهرات لا يعد انتهاكا لهذه التراتيب الجديدة فحسب، وإنما يندرج أيضا ضمن عدد قائم من أصناف المحتويات الممنوعة: الإضرار بمـــصالح الأمة، تمزيق وحدة الشعب، وتعطيل السياسات الوطنية، على أقل تقدير. وبدل تغيير الصفة القانونية لاستخدام الانترنت لتنظيم أعمال "تخريبية"، جاءت هذه التراتيب الجديدة لتعزيز رقابة الدولة على حرية التعبير على شبكة الانترنت، ولتكون بمثابة تذكير وتحذير ضد استخدام الانترنت لأهداف ترى فيها الدولة تهديدا لها."[32]

لم يكن إنفاذ تلك التراتيب سياسة ثابتة، فالسلطات الصينية، ونظرا لاهتمامها البـــسيط بالـــرأي العام العالمي (على الأقل من جهة تأثيره في اقتصاد الصين)، فقد ظلـــت تحاول بسط سيطرتها وفي الوقت نفسه تسعى لتقديم صورة تُظهرها بمظهر الاستبدادية الناعمة واللطيفة. إلا أن ذلك الاهتمام لم يمنع من إغلاق مواقع مزودي الأخـــبار في عـــدد من المناسبات. ففي شهر يناير/كانون الثاني سنة 2006، منعت الـــسلطات نـــشر "نقطـــة التجمد"، الزاوية الأسبوعية الشهيرة في "يومية الشباب الـــصيني" التي تديرها الدولة. فقد كانت المقالات التي تنشر في زاوية نقطة التجمد كـــثيرا ما تتحدى الخط السياسي للحزب الحاكم، وتقرر إغلاقها على إثر نشرها مقـــالا ينـــتقد كـــتب التاريخ المستخدمة في المدارس المتوسطة. ثم منعت الحكومة وسائل الإعلام الصينية من نقل خبر الإغلاق وأمرت مواقع الانترنت بأن تمتنع عن

مناقـــشة الموضوع. وعندما أكد محرر نقطة التجمد خبر إلغاء الزاوية على مدونته الخاصة، عمدت أجهزة الرقابة إلى محو صفحة المدونة.

ولكـــن القـــصة لم تـــتوقف عند هذا الحد. فقد احتج أكثر من عشرين من مسؤولي الحزب الليبرالي، والشخصيات الأكاديمية، والكتاب، على عملية الإغلاق بعـــدما اكتسح خبر هذا الموقف الحكومي المواقع الإخبارية الالكترونية. وبعد شهر من إغلاق نقطة التجمد، سمحت الحكومة بإعادة نشرها مجددا، ولكن دون محرريْها الرئيسيْن، وبشرط أن تنشر مقالة تنتقد كاتب المقالة السابقة حول كتب التاريخ.[33]

وربما تستمر حرب الاستنـــزاف هذه إلى ما لا نهاية، بما أن أجهزة الرقابة لا تفتأ تسن إجراءات جديدة في محاولة للتحكم في تدفق المعلومات المتزايد باستمرار، ومن جهة أخرى يستمر المزودون في ابتكار أساليب جديدة لنشر تلك المعلومات. ولا شـــك أن هذه الجدلية ستنعكس على قضايا أخرى كبيرة تتعلق بمستقبل الصين السياسي. فحرية التعبير تقود حتما إلى حرية العمل السياسي، وهو ما تخشاه فعلا الحكومة الصينية.

وكـــان ذلك يطفو على السطح بشكل دوري. فقد أضحت الانترنت لأكثر مـــن عقد من الزمن فضاء ترعرعت فيه قومية الكترونية صينية. وحسب غزو وو، "يـــستخدم القومـــيون الالكتـــرونيون الصينيون الانترنت مركزا تواصليا، ومنبرا تنظيمـــيا، وقناة تنفيذية يروجون عبرها قضاياهم القومية." انطلقت هذه الحركة في عام 2003، وركزت عملها على الأنشطة المناهضة لليابان. وفي العام نفسه، نظمت حملة الكترونية ضد سعي اليابان للحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، وتمكنت من جمع أكثر من 40 مليون توقيع. وفي سنة 2005، كانت الاحتجاجات الواســـعة المناهضة لليابان في كبرى المدن الصينية، قد تم تنظيمها بدرجة أولى عبر الهواتف النقالة والشبكات الالكترونية. وكانت السبل المؤدية إلى أماكن التظاهر قد نـــشرت علـــى الانتـــرنت وتم تداولها عبر الرسائل الالكترونية والرسائل النصية القصيرة. أما لقطات الفيديو التي تصور أحداث العنف التي تخللت الاحتجاجات في شـــانغهاي فقد منعت من البث في وسائل الإعلام العادية ولكن يمكن العثور عليها في الانترنت. من جهتها، انخرطت الحكومة في هذا المسار إذ بادرت الشرطة المحلية في شانغهاي إلى إرسال رسالة نصية واسعة النطاق إلى مستخدمي الهاتف الخليوي

عشية يوم الاحتجاجات تقول فيها "نطلب منكم أن تعبّروا عن مشاعركم الوطنية بالأساليب الصحيحة، وبالتزام القوانين والحفاظ على النظام." ولا ندري إن كان ذلك بمثابة تحذير أو تشجيع. وفي النهاية أمرت الحكومة المركزية مواقع الانترنت بفلترة المحتوى المناهض لليابان.[34]

من الأهمية بمكان، عندما نفكر في آفاق الديمقراطية في الصين، ألاّ نعتمد على التصريحات الفضفاضة مثل كون "الحكومة الصينية غير ديمقراطية وقمعية بإطلاق"، وأن "الشعب الصيني تقدمي ويريد أن يكون مثل الغرب الديمقراطي." يمكن أن تكون النزعات الديمقراطية للشعب الصيني قد ضخّمها من يعيشون خارج الصين. يرى فريد زكرياء في هذا السياق أنه "عندما نتحدث عن المعارضة في الصين، فإنه من السهل الاعتقاد بأن المزيد من الديمقراطية يعني المزيد من الحرية. وفي الواقع، فإن العكس هو الصحيح على المدى القريب، فالحكومة الصينية أكثر ليبرالية من شعبها في كثير من القضايا الهامة... وبشأن عدد كبير من القضايا، من القانون والنظام إلى المواقف حيال تايوان واليابان والولايات المتحدة، نجد أن نظام بيكين أقل شعبوية وقومية وعدوانية وتعصبا من شعبه."[35]

وانطلاقا من ذلك، فإن الصين الجديدة تستمر في التشكل حيث يمتزج تراث آلاف السنين مع التكنولوجيا التي تتطور من يوم إلى آخر. فـ "حرية التعبير" بالقدر المسموح به اليوم أمر غير مسبوق في الثقافة السياسية الصينية، وهو ما دعا قيادة البلاد إلى أن تظل حذرة جدا وهي تقيم انعكاسات الإعلام الجديد. وعلى خطى النمو الاقتصادي، يتواصل التغيير السياسي في الصين، مدفوعا إلى حد ما بهذا الإعلام الجديد. وستستمر الحكومة في السماح بحصول تقدم حقيقي ولكن فقط بوتيرة مضبوطة بدقة.

التغيير، وغياب التغيير في أماكن أخرى

هناك حكومات قمعية أكثر من حكومة الصين تبذل جهودا كبيرة لمنع تدفق المعلومات إلى بلدانها من مختلف الاتجاهات.

فـ "صوت بورما الديمقراطي" (DVB)، وهي قناة تلفزيونية فضائية تنطلق من النرويج، تدعم آونغ سان سوو كيي، التي حازت جائزة نوبل للسلام باعتبارها

زعـــيمة للمعارضة ضد قادة بلادها العسكريين، وتنقل أخبارها بينما تظل هي قيد الإقامـــة الجبرية في منـــزلها في رانغون. ويلاحظ أن كثيرا من التغطيات الإخبارية لبورما [36]، تعتمد فيها المحطة على مراسلين سريين يسجّلون اللقطات ويهرّبونها إلى بلد مجاور حيث ترسل من هناك إلى الإدارة التحريرية في أوسلو. وفي سنة 1992، وعلـــى إثر إلغاء قيادة الجيش لنتائج الانتخابات التي فازت بها المعارضة، أطلق طلبة بورمـــيون يقيمون في أوروبا النسخة الإذاعية من دي في بـــي. وفي الفترة الأولى، حاولـــت الحكـــومة البورمية التشويش على بث المحطة الإذاعية ولكنها في النهاية رضـــخت لأنها، وكما يقول أحد محرري المحطة، "أرادت الحصول على معلومات حقيقية، حتى فيما يتعلق ببلادهم. فهم لا يمكنهم الاعتماد على التقارير التي تأتيهم من أتباعهم، لذلك عليهم الاستماع إلى إذاعتنا ليحصلوا على معلومات حقيقية، أو ليتمكنوا من فهم شعور الناس العاديين."[37]

لا يعد استخدام الأطباق الهوائية قانونيا إلا إذا حصل أصحابها على تراخيص، كما أن مشاهدة دي في بـــي ممنوعة رسميا. ولكن الناس مع ذلك يشاهدونها. وإلى جانـــب اســـتقبال البث الفضائي للمحطة سرا، بإمكان من كانت له القدرة على الدخـــول إلى الانترنت من البورميين (لا يتجاوز عددهم الـــ 64,000 من مجموع الـــسكان الـــبالغ عـــددهم 47 مليون نسمة)، أن يحصل على أخبار دي في بـــي الكتـــرونيا (www.dvb.no) وكـــذلك بـــورما نت (burmanet.org)، رغم أن الحكومة تمكنت من إعاقة الدخول إلى هذين الموقعين. ومن بين القصص التي نقلتها بورما نت في شهر أغسطس 2006 التقرير الذي نشرته عن قرار الحكومة العسكرية بمنع خدمة غوغل في مجالي الرسائل الالكترونية والمسنجر.

لـــيس هناك مفاجأة بشأن الجهود المبذولة للتحكم في الإعلام. وكما تلاحظ مراسلون بلا حدود، فإن بورما تعد:

"جـــنة لأجهـــزة الرقابة. فالمقص في اليد، ومندوبو قسم مراقبة الصحافة وتسجيلها يفحـــصون كل مقال، وافتتاحية، ورسم كرتوني، وإعلان، وصورة، قبل النشر. بل إنهم في سنة 2005 بدؤوا يفحصون حتى إعلانات الوفيات في الصحافة البورمية. فهم يـــشطبون كـــل ما يشير إلى الأمم المتحدة، التي يتهمونها بالسعي لإسقاط الحكومة. والأكثـــر خطورة من ذلك، هو منع السلطات لجميع المواد الإخبارية المستقلة حول وبـــاء انفلونـــزا الطيور... ففي بورما، يمكن أن ينال الصحفي حكما بالسجن مدة

سبع سنوات بكل بساطة إذا كان في حوزته جهاز فاكس، أو كاميرا فيديو أو مودم غير مرخص، أو نسخة من نشرية ممنوعة."[38]

تصنف بورما، مثلها مثل كوبا وليبيا وتركمنستان وكوريا الشمالية، من بين بلدان العالم الأسوأ في مجال حرية الصحافة. ومع ذلك تظل المعلومات القادمة من الفضاء والفضاء الالكتروني – عبر الأقمار الاصطناعية والانترنت – تدخل إلى البلاد. أما إن كان سيكون لذلك تأثير، قابل للقياس، على الوضع السياسي البورمي المتصلب، فتلك مسألة أخرى. عندما تسيطر الحكومة بإحكام، وتحد من الحرية بصرامة – بما في ذلك منع الوصول إلى المعلومات – فإن الإعلام الإخباري بإمكانه أن يحدث بعض الهزات، ولكن ذلك لن يكون بأي حال كافيا لإحداث انقلاب على حكام بلد ما.

ربما يقتنع قادة بورما العسكريون أكثر بأن طريقتهم في تشديد السيطرة كانت حكيمة حين ينظرون إلى نتائج انتخابات 2002 في كوريا الجنوبية، المعروفة بكونها ليبرالية. فقد اتجه الكوريون بشكل متزايد، وبنسبة 70% من عدد السكان يستخدمون الانترنت – جلهم يستخدمون الخدمة ذات السرعة الفائقة – إلى مزودي الأخبار على الانترنت بدلا من الصحف التقليدية لمتابعة التغطية الإعلامية للحملة الانتخابية. وكان أوهماي نيوز أكثر المواقع الإخبارية الالكترونية شعبية، فقد بلغ عدد المتصفحين، حين اقترب يوم الانتخابات 20 مليون متصفح في اليوم (عدد سكان البلاد 49 مليون نسمة.)

لقد أبانت أوهماي نيوز عن رغبتها في تحدي النظام السياسي من خلال تغطيتها المكثفة لحادثة سنة 2002 حين دهست مدرعة أمريكية أثناء قيامها بدورية تلميذتين كوريتين جنوبيتين. وينظر إلى تغطية أوهماي نيوز على أنها صاحبة الفضل في دفع التيار الأساسي للصحافة إلى نقل تفاصيل الحادثة بشمول أكبر، إذ ربما كانت ستكتفي بتغطية خفيفة في غياب أوهماي نيوز. وكانت تلك التغطية قد أعقبتها مظاهرات واسعة ضد الوجود العسكري الأمريكي في البلاد.[39] المستفيد من كل ذلك كان روه مو هيون (Roh Moo Hyun)، مرشح الإصلاح للرئاسة، الذي حقق فوزا مفاجئا في ديسمبر 2002. لقد عملت أوهماي نيوز على تسريع وتيرة الاستياء إزاء الوضع القائم، وقد ساعد ذلك روه، إلى جانب بعض العوامل التي سهامت بها الحملة التقليدية، في تحقيق انتصار محدود على خصمه المحافظ.

مـــن خـــلال تركيزها على مواضيع لا تغطى عادة جيدا في وسائل الإعلام الأخـــرى، وبفـــضل تجنيدها "صحفيين مواطنين"، تمكنت أوهماي نيوز من تغيير المشهد الإعلامي وأعطت دفعا لأولئك الذين تبنوا، على شاكلتها، سياسة مناهضة للـــنظام القـــائم. وذلـــك لا يحدث في أي مكان، ففي غياب الحريات الإعلامية الأساسية، سرعان ما يتم قمع تلك التغطية المتمردة. ولا شك أن هناك تباينا كاملا بين كوريا الجنوبية وبورما.

بـــل إنـــه حتى عندما لا تكون حرية الصحافة راسخة بالقدر الذي عليه في كـــوريا الجنوبـــية، يمكن للإعلام الجديد أن يدفع بالمسار السياسي نحو مزيد من الانفـــتاح والنـــــزاهة. يمكـــن أن نـــرى ذلك في جورجيا حيث جلبت "الثورة البرتقالية" السلمية إلى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة ديمقراطية ناشئة. ففـــي ليلة الانتخابات في نوفمبر 2003، بثت قناة روستافي – 2 الجورجية شريطا متحـــركا يـــبرز النتائج الرسمية للانتخابات، التي كانت تظهر فوز الحزب الحاكم بقيادة الرئيس إدوارد شيفرنادزه (Eduard Shevardnadze). إلى جانب هذه الأرقام، نـــشرت تقاريـــر حول استطلاع آراء الناخبين إثر إدلائهم بأصواتهم، وأظهر فرز النـــتائج، الـــذي قـــام به مراقبون مستقلون ممولون من الغرب، انتصارا واضحا للمعارضـــة. عـــلاوة علـــى الأرقام، نقلت روستافي صورا حية للمتظاهرين وهم يتدفقون على تبيليسي لإدانة تلك الانتخابات المزورة. وفي نهاية المطاف، توجه قادة المعارضـــة، وهم يلوحون بالزهور، إلى مبنى البرلمان، وأُجبِر شيفرنادزه على التخلي عن السلطة.[40]

يكـــشف هذا المسار عن خصائص "السلطة الناعمة". فتكملة لجهود الإعلام الجورجـــي، ســـاعدت الـــولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبـــي، والمنظمات غير الحكومـــية، الإصلاحيين بالتشجيع والمال، وليس بقوة العضلات. وجاء في تصريح للرئيس الجورجي ميخائيل ساكاشفيلي (Mikheil Saakashvili)، سنة 2005 أن "مـــوارد دعـــم التغيير تتجاوز بكثير مجرد إرسال قوات عسكرية. هناك الانترنت، والتلفـــزيون، والمنظمات غير الحكومية. وقد ساعدنا الأمريكيون أساسا من خلال تقديم الدعم للإعلام الإخباري الحر في جورجيا. وكان لذلك أثر أقوى من 5000 من المارينـــز."[41]

وأحـــد المكونات الأساسية للثورة اللاعنفية هو وجود مجتمع مدني فاعل وله القـــدرة الكافية لدعم الإعلام المستقل الذي يمكنه أن يتولّى إعلام الجمهور وتعبئة الناس الذين يرغبون في التغيير. فالتدخل في شكل تقديم مساعدة مالية للمؤسسات الإعلامـــية يمكـــن أن يعتبر إنفاقا في محله. حصل ذلك في صربيا سنة 1999 حين أنفقـــت الـــولايات المتحدة ما يوازي دولارا واحدا لكل صربـــي (عدد السكان يتجاوزالتـــسعة ملايين بقليل)، ومن جهتها قدمت المصادر الأوروبية دعما سخيا. أما العمل الحقيقي داخل صربيا فقد قام به أناس أمثال فيران ماتيك (Veran Matic)، مدير إذاعة ب-92 المثابرة، ولكن الشراكة مع مقدمي المساعدات الغربيين عززت دور الإعلام الصربـــي المستقل في الإطاحة بنظام سلوبودان ميلوزوفيتش.

وفي حالـــة تحمل تقاطعات مع الانتخابات الجورجية في 2004، لقيت الثورة الـــبرتقالية في أوكـــرانيا دعمـــا قـــويا من خلال العمل الذي قامت به الصحيفة الالكتـــرونية "بـــرافدا أوكـــرانيا" وقـــناة الكيبل الخامسة.[42] وكما نقل أدريان كاراتنيكـــي (Adrian Karatnycky)، فقد نجحت المواقع الإخبارية الالكترونية في أوكرانيا بقدر كبير في أن تكشف للجمهور إلى أي حد بلغ فساد الحكومة القائمة، وذلـــك جـــزئيا عبر بث تسجيلات صوتية تؤكد تورط مسؤولين كبار في تزوير الانـــتخابات. ومع حلول يوم الانتخابات في شهر نوفمبر 2004، كان قد أصبح بإمكان 6 ملايين أوكرانيّا من مجموع عدد المواطنين البالغ 48 مليونا، الدخول إلى شـــبكة الانترنت. ويعيش عدد كبير من هذا المجتمع الالكتروني في العاصمة كييف وفي عدد من المدن الرئيسة التي شهدت التحركات الاحتجاجية الأوسع.[43]

تُوضّح هذه الأمثلة دور وسائل الإعلام الجديد في التغيير السياسي حيث يظل تأثيرها رهينا بظروف كل بلد، ويختلف باختلاف عدد من العوامل مثل رغبة الناس في التحرك. ومع ذلك فإن هذه النماذج التاريخية من شأنها أن تشجع أولئك الذين يـــتوقعون مـــزيدا مـــن الـــتأثير الإعلامي، خاصة وأن تلك الوسائل - لا سيما الالكترونية منها - أصبحت أكثر انتشارا.

لا نـــرى في الوقت الراهن أن موجات الإصلاح بدأت تجرف الحكومات عبر مختلف أنحاء العالم؛ فالسياسة الواقعية لا تشتغل بهذه الطريقة. والذين بيدهم السلطة يستمرون في محاولاتهم الحد من التأثير السياسي للإعلام الجديد. فعلى سبيل المثال،

ظلـــت الحكـــومة الفيتنامـــية مصممة على منع الدخول إلى المواقع التي لها علاقة بالديمقـــراطية وبالمعارضـــين السياسيين. وقد ذكرت مبادرة النت المفتوحة في عام 2006 أن "فيتنام تحاول دعم الانترنت من أجل تحقيق النمو والفائدة الاقتصادية، في حـــين تواصل، وبالتوازي، سعيها المحموم لمنع الوصول إلى المحتوى الذي يمكن أن يزعـــزع اســـتقرار الدولة الشيوعية... ومن بين الطرق المستخدمة، مراقبة الدولة لاســـتخدام مقاهـــي الانتـــرنت، وفلترة المحتوى للتحكم في المعلومات التي يمكن لمواطنيها أن يحصلوا عليها."[44] فالذين يستخدمون الانترنت لجمع المعلومات حول التغيير الديمقراطي ونشرها يتم حبسهم، كما أن الحكومة زادت من تشديد قبضتها باطراد.

هذا التبني لما يمكن تسميته بالنموذج الصيني أصبح شائعا بين الدول التسلطية، والإجـــراءات الرقابية وقع اعتمادها أيضا في الديمقراطيات المفترضة والحقيقية على حد سواء. فبعد تفجيرات مومباي الإرهابية التي أودت بحياة أكثر من مائتي شخص في شهر يوليو/تموز 2006، أمرت مصلحة الاتصالات الهندية بغلق 17 مدونة اتهمت بنـــشر محتوى ديني وسياسي متطرف. وفي غياب المهارات العملية لممارسة الرقابة علـــى الانتـــرنت مثل تلك التي يمكن أن تتوفر في الصين وبعض البلدان الأخرى، أســـفرت التوجـــيهات الهندية عن غلق، ليس فقط المدونات المستهدفة، وإنما أيضا بعـــض المواقـــع ذات الانتـــشار الواسع مثل جيوسيتيز (Geocities) وتايب باد (Typepad)، رغم الاحتجاجات الغاضبة التي صدرت عن متصفحيها.[45]

في الـــوقت ذاته تستمر الهند في تهيئة بنيتها الأساسية على الصعيد الالكتروني، لتـــصل إلى الـــسكان الـــريفيين – 700 مليون مزارع. فالقرى تبدأ تقريبا بجهاز حاســـوب شخـــصي واحد ومصدر للطاقة يتكون من لوحات شمسية مثبتة على بطاريـــات السيارات لتشغيله عند انقطاع التيار الكهربائي المتكرر. ومع الصعوبة البالغة في الارتباط بالانترنت وارتفاع كلفتها، يبقى الخيار الأفضل بالنسبة إلى تلك القـــرى هـــو تزويدها بتكنولوجيا وايماكس (Wimax) للارتباط اللاسلكي فائق السرعة.[46]

يبرز المثال الهندي اختلاف المقاربات بشأن الإعلام الجديد بين الحكومات التي تعتـــبر نسبيا تقدمية. فهي تسعى لتوسيع نطاق بنيتها التحتية في مجال التقنية العالية

حتى يتمكن المزيد من مواطنيها من الاستفادة من الوصول بيسر إلى عالم المعلومات والاتـــصالات، ولكـــنها تبقى حذرة من الانعكاسات السياسية المصاحبة للإعلام الجديد. ومع مرور الزمن، يبدو أن الجهود التي تبذلها الحكومات للتحكم في محتوى الإعـــلام الجديـــد سيثبت بالتدريج أنها غير مجدية، إذ أن التقدم التكنولوجي الذي يساعد على الانفتاح سيتجاوز تقنيات المنع.

وإلى أن يحـــدث ذلك، ستظل الحكومات تسعى لفرض رقابتها على الإعلام، قديمـــه وجديـــده، ولكـــنها ستصطدم بمحاولات صارمة لإيصال المعلومات إلى الجمهـــور، وأحيانا بطرق تقليدية. ففي سنة 2005، عندما حاولت حكومة النيبال مـــنع نشرات الأخبار على الإذاعات الوطنية المستقلة، حمل أحد الصحفيين مكبرا للـــصوت إلى ســـطح بـــناية ذات ثلاثة طوابق وأخذ يقرأ الأخبار كل مساء على جمهور يتكون من نحو ثلاث مائة شخص يتجمعون في الشوارع أسفل البناية. ففي بلـــد لا يتوفرإلا على عدد قليل من أجهزة الحاسوب ومقاهي الانترنت، يعتبر ذلك ردا عملـــيا ورمزيا في الوقت ذاته على تضييقات الحكومة. (لم تتدخل الشرطة لأن تلـــك الحـــصص اعتبرت تجمعات عامة، وبالتالي فهي قانونية، بدلا من النشرات الإخبارية الممنوعة.)[47]

تـــراقب الحكـــومة الصينية وبعض الحكومات الأخرى بحذر ما يحدث في ســـنغافورة وماليـــزيا لأن هذين البلدين تمكنا من إحراز تطور هائل على صعيد تكنولوجـــيات المعلـــومات والاتصال، وفي الوقت نفسه لم يسجل فيهما تقليص يذكر على مستوى السيطرة السياسية المركزية، التي تمكنا من بسطها عبر إرساء نظـــام الترخيص لتحديد من يحق له أن يتكلم. لقد سعت هاتان الحكومتان إلى تحقـــيق التوازن في مصالحهما. وكما لاحظ الصحفي السنغافوري شريان جورج (Cherian George)، "فقد هيمن منظور القيمة الاقتصادية للانترنت على جهود السلطات في رسم سياساتها، مستتبعا بذلك هدف السيطرة السياسية الذي كان تاريخـــيا يشكل السياسة الإعلامية... وبدلا من التخلي عن أحلامهما الاقتصادية مـــن أجـــل الانترنت، قررت الحكومتان الاكتفاء بممارسة حد أدنى من السيطرة السياسية خلافا لما جرت عليه العادة، واستمر ذلك بشكل واضح في تعاملهما مع بقية وسائل الإعلام."

أمـــا عـــندما يـــصبح محتوى الانترنت – الذي لا يخضع لشروط التراخيص التقلـــيدية – أكثـــر إزعاجـــا، فإن الحكومات لا تستمر في نهج سياسة الانفتاح والسماح بحرية التعبير. وكما جاء على لسان جورج

"تقليديا، كان النظامان يبسطان سيطرتهما جزئيا عبر الإكراه، ولكن بدرجة أولى عبر هيمنة فكرة الإجماع. فطريقتهما لا تتمثل في قمع الرأي المخالف بشكل دائم، وإنما عـــبر هيمنة إيديولوجية تجعل من الإذعان للنظام يبدو وكأنه المنطق السليم. إن الحد من نطاق الآراء التي تعبر عن نفسها في العلن – من خلال التحكم المسبق في وسائل الإعـــلام عبر نظام الترخيص – يعد جزءًا أساسيا في هذه الاستراتيجية. فإذا فشلت الحكـــومة في تطبيق هذا النمط من السيطرة على محتوى الانترنت، واحتاجت نتيجة لـــذلك إلى مزيد من أساليب الإكراه، فإن ذلك ينبغي أن ينظر إليه باعتباره حدا من قدرتهم على الهيمنة."[48]

في أعقـــاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، شنت الحكومـــتان الماليزية والسنغافورية حملة على خصومهما السياسيين، بدعوى إحباط مؤامـــرات لمناضـــلين إســـلاميين. ولم تعر وسائل الإعلام الرئيسة – مثل الإعلام الحكومي – أهمية كبرى لحقوق أولئك الموقوفين. ولكن، كما ذكر جورج، "نجح الإعلام البديل، الذي ينشط أساسا على الانترنت، في البلدين في إبقاء تلك القضايا حـــية منذ اللحظة التي نشر فيها خبر الإيقافات. ورغم أنها لم تغفل عن التهديدات الإرهابـــية، إلا أن تلـــك الوسائل الإعلامية أدرجت في تغطيتها منظور جماعات حقوق الإنسان والمعارضة السياسية، أو كتبت افتتاحيات خاصة بها دعت فيها إلى عـــدم التضحية بقيم الحرية والعدالة في سياق الصراع من أجل الحفاظ على النظام."

مـــن بـــين مؤســـسات الإعلام الجديد في سنغافورة نجد مؤسسة ثينك سنتر (ThinkCentre.org). وحـــسب جورج، "أطلق موقع ثينك سنتر لدعم الأنشطة الـــسياسية التقلـــيدية الميدانية. وكان مؤسسوه منخرطين في طباعة مناشير سياسية وتنظيم اجتماعات عامة – وهما شكلان قديمان للمشاركة الديمقراطية." لقد أطلقوا الموقـــع لمـــزيد تعبئة الرأي العام. يعد ثينك سنتر في الأساس مشروعا سياسيا، فهو كمـــا يقـــول جورج، يمارس "صحافة حركية يمقتها أولئك الذين يؤمنون بوجود تغطية موضوعية وغير مهتمة."[49] وبالنظر إلى خصائص الإعلام الجديد، التي تجعله

مقبولا لدى مؤسسات مثل ثينك سنتر، فإن الحدود التقليدية بين الصحافة والعمل السياسي سيتم اختراقها بشكل متكرر.

وعلى المستوى الصحفي، تبين الحالة السنغافورية أن المنتجات الإخبارية الالكترونية، التي يمكن أن تستعصي على تحكم المنظمين، بإمكانها أن تستفيد من الحرية النسبية التي تتمتع بها فتصبح أكثر هجومية في حصولها على الأخبار ونشرها. ليس الأمر كذلك دائما، ولكن الأمثلة التي حصلت تشجع أولئك الذين يأملون أن يروْا في الإعلام الجديد محفزا على خلق صحافة تنبض بالحياة وتحمل معنى وليست مجرد أداة أخرى لتسويغ المنطق السائد للنظام القائم.

الصحافة شيء، والدعاية المتنكرة في ثوب الصحافة شيء آخر. وحتى الحكومات التي تسمح عموما بدخول الأخبار من مختلف أنحاء العالم دون عراقيل، كان عليها أن تفكر مليا في تأثير الانترنت والرسائل التي تبث عبر القنوات الفضائية والمصممة بوضوح لإثارة الكراهية. ففي سنة 2004 منحت هيئة تنظيم البث العام الفرنسية ترخيصا لتلفزيون المنار المرتبط بحزب الله. وللحصول على الترخيص كان على المنار أن توافق على "ألا تثير الكراهية، والعنف، أو التمييز بسبب العرق والجنس والدين، أو الجنسية." ورغم ذلك، وفي غضون أسبوع، بثت القناة تقريرا يدعي أن إسرائيل تقف وراء نشر فيروس الإيدز في البلدان العربية، إلى جانب تقرير آخر يدعو إلى الحرب ضد اليهود وتدمير إسرائيل.

وتماشيا مع قواعد منح التراخيص في البلاد، لم تتمكن الجهات المعنية من إيقاف بث القناة الفضائية بشكل فوري. إذ كان عليها أن تنتظر حتى تصدر إحدى المحاكم الفرنسية حكما يخوّل لإدارة القمر الصناعي الفرنسي يوتلسات، صلاحية إيقاف المنار بسبب إخلالها بتعهداتها المتعلقة بالترخيص، وخرقها قانون مكافحة الكراهية. وبعد صدور الحكم الفرنسي ضد القناة، قرر الاتحاد الأوروبي في شهر مارس 2005 منع كل الأقمار الصناعية الأوروبية من بث قناة المنار.[50]

غير أن منع الوصول إلى المنار أو أي مزود معلومات آخر بشكل كامل غير ممكن تقريبا دون منع الوصول إلى الانترنت – وهو ما لا ترغب فرنسا والديمقراطيات الأخرى في فعله – أو إغلاق المصدر ذاته. فالمنار واصلت حضورها على الويب واستمرت في البث على مدى أغلب فترات حرب 2006 بين إسرائيل

وحـــزب الله، رغـــم استهدافها بالقصف الجوي الإسرائيلي. ونظرا لعدد سكانها المـــسلمين الـــبالغ ستة ملايين إلى جانب 600,000 يهودي، فإننا نفهم حساسية فرنـــسا تجـــاه المشاكل التي يمكن للمنار أن تثيرها. ولكن، وبالنظر إلى طبيعة هذه التكنولوجـــيا، فـــإن الحكومة في فرنسا لا يمكن أن تنجح إلا جزئيا في ترك المحطة بعـــيدة عـــن الجمهـــور الفرنسي، وبالتالي فإن على صانعي السياسات أن يكونوا مستعدين للتعامل مع الآثار التي تنجم عن توفر رسالة حزب الله.

إلى جانـــب القضايا السياسية الضاغطة مثل تلك المتعلقة بمحتوى المنار، يحتل الإعـــلام الجديد موقع الصدارة ضمن مجالات سياسية جديدة في البلدان التي تحاول اللحاق بالدول الأكثر تطورا على الصعيد التكنولوجي في العالم. فقد أكد الرئيس فلاديمـــير بـــوتين دعمه لإي روسيا (E-Russia)، وهو مشروع يهدف إلى تعميم الانتـــرنت فائـــق السرعة من أجل تطوير البحث، والرفع من الإنتاجية، والارتقاء بمـــستوى المحاسبة الحكومية. إنه برنامج ضخم في روسيا حيث تبين سنة 2001 أن 12% فقـــط من مدارسها مرتبطة بالانترنت دون أن يكون هناك منتجون محليون لقطع الغيار الخاصة بتكنولوجيا المعلومات. ونظرا لما تتميز به الحكومة الروسية من حـــذر تقليدي إزاء التدفق الحر للمعلومات، لقد واكب تنفيذ مشروع إي روسيا جهـــودا جديدة لمراقبة حركة الاتصالات الالكترونية. فالتقاليد القديمة لا تتلاشى بـــسهولة؛ وقـــد لاحظ مسؤول روسي في قطاع تكنولوجيا المعلومات أن موظفي الحكومة يرون في التكنولوجيات الجديدة أدوات للحصول على مزيد من المعلومات "حول" المواطنين بدلا من أن توصل "إليهم" مزيدا من المعلومات.[51]

هـــناك فجوة رقمية أكبر تنتظر التضييق في أجزاء من أفريقيا. فتعذّرُ الدخول إلى الانتـــرنت بـــسهولة في زمـــبابوي، على سبيل المثال، يربك جهود الصحفيين المنفـــيين الرامية إلى نشر الأخبار ومواجهة العراقيل التي تفرضها الحكومة. وبما أن عدد الذين يستطيعون الدخول إلى الانترنت من منازلهم قليل جدا، فإن على الذين يـــرغبون في الحصول على المعلومات الالكترونية أن يلجؤوا إلى مقاهي الانترنت. ولم تكن حكومة زمبابوي، إلى حدود منتصف العام 2006، تغلق مواقع الانترنت، ولكـــنها منذ ذلك التاريخ بدأت تفكر في فرض الرقابة على الرسائل الالكترونية، وشرعت في التشويش على ستوديو 7، الذي يبث من استوديوهات صوت أمريكا

في الـــولايات المـــتحدة. أمـــا على الأرض، فإن على الصحفيين أن يحصلوا على تـــرخيص مـــن الحكومة، ومن لا يؤيد منهم إدارة موغابـــي يتعرض للمضايقات والاعتقال المتكرر.[52]

وعلى الوجه الإيجابـــي، استخدمت بعض المشاريع في بورندي وبوركينافاسو الانترنت في برامج لمعالجة الإيدز سواء في مجال حفظ البيانات، أو في تعليم تقنيات الـــوقاية والعلاج. وفي جنوب أفريقيا، نجح مشروع آخر في تعليم النساء الريفيات الري بالتنقيط طريقة لزيادة محصول بساتين الخضروات في القرية. وفي حالة أخرى في جنوب أفريقيا، أنقذ شخص جاره من لدغة أفعى سامة بعد أن تعلم أساسيات الإســـعافات الأولية من الانترنت.[53] مثل هذه النوادر، قد تدل وقد لا تدل على وجـــود تأثير حقيقي وواسع للإعلام الجديد. وستمر سنوات عديدة قبل أن يصبح بالإمكـــان ردم الهوة الرقمية بثقة كاملة. وأحد الأهداف يتمثل في ربط الوزارات الحكومية، والمستشفيات، والمدارس بشبكة الانترنت مع حلول سنة 2012.

وفي الأثناء، ستستمر التكهنات حول التأثيرات الممكنة للتكنولوجيات الجديدة في عمليـــة الـــتحول الديمقراطي. فهل سيفرز انتشار أجهزة الحاسوب المحمول غير المكلفة، واستخدام الهواتف الخليوية للدخول إلى الانترنت تحررا فكريا يقود بدوره إلى نـــشاط ذي أثر سياسي بناء؟ أم سيظل أولئك الذين يمسكون بالسلطة متقدمين أشـــواطا، وقـــادرين علـــى ابتكار طرق جديدة للتحكم في الخطاب القائم على التكنولوجيا وإعاقة جهود الإصلاح؟ وفي كل الأحوال، سيكون من الصعب التنبؤ بالطـــريق المؤدي إلى الديمقراطية، إذ سيكون فيه الكثير من المنعطفات والالتواءات وسيكون حافلا بالمطبات، إلى جانب بعض الامتدادات الممهدة بين الحين والآخر. وفي بلدان مثل روسيا ونيجيريا، ربما يكون هناك موجات من حرية التعبير والنقاش يعقبها تجديد في أساليب السيطرة الحكومية.

وســـيلعب الاقتصاد أيضا دورا كبيرا، إذ أن رواد الإعلام يحاولون المزج بين نـــبل الغايات ومادية الواقع. فتوفير الأخبار هو بالأساس عمل تجاري، ويقتضي أن يجلب إيرادات. وفي العراق ما بعد صدام، ولدت المئات من الصحف، ولكن الكثير مـــنها ماتت، ببساطة لأنها لم تتمكن من توفير وسائل الدعم اللازمة لاستمرارها. وتمـــثل الجزيرة منارة لأولئك الذين يعتقدون أن البث العابر للقومية سيدفع بالحرية

إلى الأمـــام، ولكن ليس كل القنوات وراءها أمير ثري مستعد لتغطية ديونها. وحتى شـــركات مثل غوغل وسيسكو سيستمز ستستمر في مواجهة قرارات صعبة بشأن تحقـــيق الـــتوازن بـــين الموقـــف السياسي السليم والوضع المالي الجيد. ولمعارضة الحكومات، سيدخل إلى الساحة عدد متنوع من المنظمات غير الحكومية، لممارسة الضغط ومحاولة فرض أجنداتها.

***

في عـــام 1960، عـــندما بـــدأ حـــضور التلفـــزيون يصبح شائعا في منازل الأمـــريكيين، كانـــت الـــسياسة الأمريكية قد تغيرت. فمن أجل أن يفوز مرشح بالانـــتخابات الرئاسية، عليه أن "يبدو على هيئة جيدة أمام الكاميرا" لأن الناخبين بدؤوا يعتمدون على معايير جديدة للحكم على سياسييهم. فقد تطورت السياسة لتواكب متطلبات التكنولوجيا الجديدة وتستفيد مما توفره من إمكانات.

وقد بدأ المرشحون في الحملة الانتخابية الرئاسية عام 2008 مبكرا لاستقطاب المـــدونين وخاضـــوا حملاتهم على شبكة الانترنت، إدراكا منهم أنها تمثل منتدى افتراضـــيا يمكن عبره جمع الأموال وتعبئة الأنصار. وهكذا تكيف السياسيون مرة أخـــرى مع المتطلبات المتغيرة للإعلام الجديد. وبصرف النظر عن طبيعة كل نظام سياســـي علـــى حدة، فإن تلك التغيرات ستحدث على صعيد المجال العام العالمي بوتيرة أسرع بكثير. وسيواصل الإعلام الجديد بوسائله الحالية والقادمة، وبأشكال مـــتعددة، وعلى مستويات مختلفة، إعادة تشكيل النظم السياسية الوطنية والدولية وحـــياة الأفـــراد عبر مختلف أنحاء العالم. وتلك هي بعض أوجه تأثير الجزيرة ذات الانتـــشار الواســـع، ومع المزيد من تمكّن تكنولوجيات المعلومات والاتصال، فإن بعض أهم تجارب التقدم المرتبط بالإعلام، ستحدث في منطقة الشرق الأوسط.

- 7 -

إعادة تشكيل الشرق الأوسط

لا تمثل تأثيرات الإعلام إلا أجزاء من عالم سياسي أوسع، ينبغي على العناصر التي تشكله أن تكون منسجمة إذا ما أريد للتحول الديمقراطي أن يحصل. فالإعلام لا يمكـــنه أن يفرض التغيير؛ ولكن بإمكانه أن يكون ملهما ومساعدا على تحقيقه. بعبارة أخرى، ثمة حدود لقوة الإعلام.

ومـــع ذلك، لا ينبغي الاستخفاف بدور الإعلام. وكما جاء على لسان محمد جاسم العلي، المدير السابق لقناة الجزيرة "إن الديمقراطية قادمة إلى الشرق الأوسط بفـــضل الـــثورة الاتصالية. لم يعد ممكنا إخفاء المعلومات، وعليك الآن أن تقول الحقـــيقة للـــناس. وإن لم تفعـــل ذلـــك، فلن يتبعك الناس، ولن يدعموك، ولن يطـــيعوك."[1] ومـــع وجود عدد كبير من المحاذير بشأن الحاجة إلى تغيير سياسي هيكلي، فإن تلك المقدمة تعتبر سليمة حيث أن الهزات التي يمكن أن ترافق التحول الديمقراطـــي، سواء أكانت قوية أم ضعيفة، قد بدأ الشعور بها ينتشر في أجزاء من الشرق الأوسط لم تكن قد وصلتها تلك الحركة من قبل. ولا شك أن زيادة حجم المعلـــومات المـــتاحة يعتبر عاملا أساسيا في ذلك. وقد لعبت عوامل كثيرة أدوارا متفاوتة في مسيرة التغيير، ولكن لا أحد منها كان دوره أبرز من الجزيرة.

الجزيرة تحدد وتيرة التغيير

جـــاء علـــى لسان وضاح خنفر، المدير العام للجزيرة في عام 2005 "الجميع يـــتحدثون عـــن التغـــيير، والإصلاح، والتحول السياسي، والديمقراطية في العالم العربـــي. إن الحقائق على الأرض تتغير، وبالتالي فإن ما يهيمن على الأخبار أيضا بـــصدد التغير... فكل النقاشات التي تجري في المنطقة تنعكس على شاشتنا." ولا

شـــك أن ذلك سيكون له أثر. وحسب ما جاء في تقرير صادر عن معهد السلام الأمريكـــي، فإن الجزيرة وبعض القنوات الفضائية الأخرى "توفر للشارع العربـــي فـــضاء للتنفـــيس والتعبير ومناقشة الشؤون العامة. فهي تقرب العرب من بعضهم الـــبعض، وتكـــسر المحـــرمات وتتنافس فيما بينها ومع الحكومات لتحديد أجندة الأخبار."[2]

بإمكـــان الإعلام الإخباري أن يساعد على تنشيط الحراك السياسي وبناء إطار فكري يحقق الانسجام لجهود الإصلاح. ولكن الطريق نحو التغيير السياسي ســـيكون طويلا وشاهقا. وقد لاحظ هيو مايلز (Hugh Miles) في كتابه عن الجزيرة أن "المتفائلين يرون أن القنوات الفضائية ستزيح العراقيل العربية التقليدية التي تحول دون التقدم، وستقدم حلولا للمشاكل المستعصية عن الحل، وسينتج عـــن ذلك 'غلاسنوست إسلامي'... ولكن، إذا صدقنا أن التلفزيون الفضائي ســـيجعل المجـــتمعات العـــربية ديمقراطية بشكل آلي، فإن ذلك يعني أن الوضع العربـــــي الراهن ناتج عن نقص في المعلومات، وذلك غير صحيح. فباستثناء الـــبلدان العربية الأشد تسلطية، كانت الأخبار زمنا طويلا متاحة للراغبين فيها عبر الإذاعة، ولكن ذلك لم يجلب أبدا تحولا ديمقراطيا." ويضيف مايلز قائلا إنه حـــتى إذا وجد المشاهدون في الفضائيات العربية ما يدفعهم لتغيير آرائهم حول قـــضية معينة، "فليس ثمة في الواقع آليات سياسية تسمح لهم بفعل شيء حيال ذلك."[3]

إن الحجـــة التي يسوقها مايلز معقولة، وينبغي أن تكون تواقعاتنا واقعية عند تقديـــرنا لآفاق الإصلاح. وما لم تترسخ في المنطقة مسارات ديمقراطية حقيقية – مـــثل وجود انتخابات نـــزيهة وعمل حكومي شفاف – فإن تأثير الجزيرة سيظل محـــدودا. ولكـــن، علينا أيضا الانتباه إلى أن حجم الجمهور هام في حد ذاته، ولا ينبغـــي الـــتهوين من قيمة الأعداد الكبيرة من الناس إذا تمكنت من الوصول بيسر وبـــشكل متكـــرر إلى مصادر متنوعة للمعلومات. فعندما تجد كتلة بشرية هائلة طـــريقها إلى المـــزيد مـــن المعلومات، من المرجّح أن تتغير المسارات السياسية، إذ ســـتزداد الضغوط على أولئك الذين يمارسون الحكم، ومع مرور الزمن، لن يستمر في تجاهل رغبة الجماهير بالكامل إلا القادة الأكثر رجعية.

ولـــدت الجزيرة سنة 1996 عندما انتدب أمير قطر، حمد بن خليفة عددا من موظفي قناة بـــي بـــي سي العربية التي لم تعمر طويلا (والتي أعيد إطلاقها مجددا في عام 2008) واستثمر 140 مليون دولارا لإطلاق قناته. وفي غضون سنوات قليلة تمكـــنت الجزيـــرة من احتلال موقعها باعتبارها الصوت التلفزيوني الرئيس لوجهة النظـــر العربية حول الأحداث الكبرى، ونجحت تغطيتها في شد انتباه المؤسسات الإخـــبارية في مـــناطق أخـــرى من العالم. وفي عام 1998 حين قصفت الولايات المتحدة وبريطانيا العراق بسبب عرقلة صدام حسين عمل مفتشي الأسلحة، كانت الجزيرة حاضرة هناك. وفي عام 2000، خلال الانتفاضة الفلسطينية، جذبت تغطية الجزيـــرة القوية جمهورا عريضا على امتداد العالم العربـــي. وفي سنة 2001، حين هاجمـــت الولايات المتحدة أفغانستان، سمحت طالبان للجزيرة بالبقاء بعد ما طُلب من الصحفيين الغربيين أن يغادروا. وفي سنة 2003 ومع بداية حرب العراق، شجع النجاح الذي أحرزته الجزيرة منافساتها مثل العربية وتلفزيون أبو ظبـــي على إعطاء الأولوية للتغطية الحية والشاملة. وللمرة الأولى لم يضطر الكثير من العرب للاعتماد على بـــي بـــي سي أو سي أن أن أو أي مصادر إخبارية أجنبية عندما يتعلق الأمر بأحداث كبرى. فقد أصبح بإمكانهم متابعة الأخبار المنتجة وفق منظور عربـــي.

مـــن بـــين نقاط القوة التي تميز الجزيرة، أنها أدخلت نوعا من النقاش الحيوي وأحـــيانا المثير للجدل إلى ساحة الإعلام العربـــي المعروف في السابق بكونه باهتا ورتيـــبا. فالقيمة الإنتاجية الرفيعة لنشراتها الإخبارية، وما تتميز به برامجها الحوارية مـــن تبادل نشط للأفكار، وسّع من دائرة جمهور الأخبار وغيّر من طبيعة الخطاب الـــسياسي داخل الفضاء العربـــي العام. فازدياد عدد الناس الذين يتابعون الأخبار ويـــتحدثون عنها، يعد في حد ذاته أحد الأوجه الهامة لقضايا أكبر متعلقة بالتغيير الديمقراطـــي. وفي نهاية المطاف، وكما قال برنارد لويس، إن التلفزيون "يجلب إلى شـــعوب الشرق الأوسط مشهدا غير مألوف لديهم في السابق – إنه مشهد الحوار والاختلاف العام النشط والمفعم بالحيوية."[4]

إن أســـلوب الجزيـــرة وما تقدمه من محتوى في برامجها جعل جمهورها يصبح أكثـــر انخراطا في القضايا التي تتناولها في تغطيتها. ويعود ذلك بدرجة أولى إلى أن القـــناة موثوق بها أكثر من عدد هام من منافساتها. ومع أن منتقدي الجزيرة خاصة

في الغـــرب، يـــشككون في موضوعية القناة، إلا أن تلك الانتقادات لا تركز على الجوهـــر، لأنهـــا لا تدرك مصدر قوة القناة. فبدلا من تقييم المنتج الإخباري الذي يـــتلقونه وفقـــا لمعايير تحددها جهات خارجية، يعتبر أغلب مشاهدي الجزيرة أن المـــصداقية هي أهم ميزة تميز مزود الأخبار. وهؤلاء المشاهدون يريدون أخبارا يتم جمعها بشكل مستقل من العرب لفائدة العرب، وترى الأحداث بأعينهم هم. وفي هذا العصر الجديد حيث تتكاثر قنوات التلفزيون الفضائي، تجد القنوات الحكومية والغـــربية نفسها في منافسة قوية ليست لصالحها، لأنها تفتقر إلى مصداقية الجزيرة. والأهـــم مـــن ذلك أن تقديم الأخبار على شاشة الجزيرة يعكس نوعا من العاطفة تتلاءم مع جمهور يرتبط عاطفيا بالكثير من القضايا والأحداث التي تغطّيها القناة.

فالمزاوجة بين حيوية التقديم الإخباري وسعة تدفق المعلومات يمكن أن تؤثر في الـــشأن الـــسياسي. وكمـــا لاحـــظ مارك لينش، "لقد فتحت التغطية الإخبارية للاحتجاجات والصراعات السياسية المجال واسعا أمام الاحتمالات في مختلف أنحاء العـــالم العربـــي، فألهمت الناشطين السياسيين، وغيرت ميزان القوى الفعلي على الأرض." لقد غيرت تغطية الجزيرة للأحداث سواء عبر نشراتها الإخبارية أو برامجها الحـــوارية مـــن كيفية إدراك الجمهور للسياسة، من خلال تمكين الناس من متابعة أوسع لما يحدث، وتشجيعهم ضمنيا على الانخراط في ذلك.

إن الـــبرامج الحـــوارية، كما يقول لينش "ساهمت في نـــزع الشرعية السياسية عن الوضـــع العربـــي الراهن. فالنقد الصارم لكل مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والـــسياسية، كـــشف حجم الفشل الذي انتهى إليه النظام العربـــي أمام أنظار كل العـــرب. إن تراكم التأثيرات التي تتركها البرامج المتتالية وهي تهاجم القادة العرب بسبب فشلهم، وتنتقد الشارع العربـــي لعجزه، وتقدم العرب في صورة "أضحوكة العـــالم"، وتسخر من الانتخابات الصورية ومن عبادة الشخصية، ستولّد حاجة ملحة للتغيير ورفضا للأعذار التقليدية.

قـــد لا تتسبب البرامج الحوارية في حدوث اضطرابات سياسية محددة، كما يقـــول لينش، "ولكنها تهيّئ الأرضية لها عبر إضفاء الشرعية على المعارضة وكشف الأنظمة."[5]

فتغطية الجزيرة لانتخابات 2005 في مصر بينت قدرة القناة على اختراق طوق الهيمـــنة الذي تفرضه الحكومة على المجال السياسي. ففي يوم الانتخابات من شهر

ســـبتمبر، وعندما فاز الرئيس حسني مبارك بأول انتخابات في البلاد يتنافس فيها أكثر من مرشح، لم يعلق التلفزيون الحكومي على الاحتجاجات المناهضة لمبارك في شـــوارع القاهرة، أو على دعوة أحزاب المعارضة لمقاطعة ما اعتبروه عملية مزيفة هـــدفها إبقـــاء مبارك في السلطة. أما الجزيرة، فقد بثت مقابلة مع المعلق السياسي محمـــد حسنين هيكل، المعروف بمناوأته للرئيس. وبما أن هيكل ممنوع من الظهور علـــى شاشات القنوات المصرية، فقد شكك في مقابلته مع الجزيرة في وعود مبارك بسن إصلاحات سياسية.

وفي الانـــتخابات البرلمانية التي جرت بعد شهرين، لم تنقل القنوات الحكومية المصرية أحداث العنف التي رافقت عمليات التصويت. بينما نقلت الجزيرة مشاهد لناخبين وقد خضبت الدماء وجوههم وأحاط بهم عناصر إحدى العصابات يلوّحون بمـــناجل بينما وقف عناصر الشرطة لا يحركون ساكنا. كما نقلت الجزيرة مؤتمرا صـــحفيا لعدد من القضاة أعلنوا فيه أن الانتخابات وقع تزويرها وأن رجال الأمن عملوا على ترهيب المواطنين الذين أرادوا الإدلاء بأصواتهم. وحول هذا الموضوع، كـــتب مـــصطفى المنـــشاوي أن "تغطية الجزيرة أعاقت محاولات الجهات الرسمية اســـتخدام القنوات الحكومية لإنكار – أو تجاهل – الانتهاكات التي ارتُكبت أثناء العملـــية الانتخابـــية." وفي نفس السياق علق سلامة أحمد سلامة، وهو من كتاب الأعمدة، "لقد دشنت الجزيرة حركة تغيير داخل المجتمع المصري. ولم يكن ليتسنى لنا معرفة هذه الانتهاكات لو لم تكن الجزيرة حاضرة."(6)

عـــندما تغطي الجزيرة والقنوات المنافسة لها أحداثا كهذه، يقول لينش، "فإنها تـــشكل ســـردية عربية مشتركة وأساسية، لم تكن موجودة في السابق إلا بالمعنى المجـــرد." عـــادة ما تندرج تغطية الجزيرة للأحداث في كل بلد عربـــي على حِدَة ضـــمن سياق عربـــي عام، وهي بذلك تربط بين القضايا والأحداث بطريقة غالبا ما تتجاهلها وسائل الإعلام التي تركز في تغطيتها على بلد بعينه. يمكن لهذه المقاربة الإقليمية أن تحدد الرؤية التي ينظر عبرها جمهور الجزيرة لمنطقتهم في علاقتها بالعالم الأوســـع. وكما لاحظ لينش، "بالإمكان تفسير تنامي الشعور المعادي لأمريكا في المـــنطقة منذ عام 2002 ليس فقط ببث الصور المثيرة والدموية القادمة من فلسطين والعـــراق، وإنما أيضا بالسردية المشتركة التي تقدم أمريكا عاملا مشتركا يربط بين

هـــذه القضايا، التي هي في الأصل منفصلة."[7] هذه التغطية يمكن كذلك أن تعطي لبقـــية العـــالم صـــورة عن المواقف الغالبة في الشرق الأوسط. وقد لاحظ يوسف إبـــراهيم أن الإعلام الفضائي العربـــي تحول إلى "منبر وإلى وسيلة ناجعة للرد على الإعـــلام الغربـــي، وبناء على ذلك فقد أصبح المواطن العربـــي يمتلك قناة تصله بالقيادة العليا في الولايات المتحدة."[8]

وســـتكون الحكومات خارج العالم العربـــي على درجة من الغباء إن هي تجاهلـــت مـــا يُقـــال على شاشات القنوات العربية. فاللهجة والمحتوى الخاص للأخـــبار والبرامج الحوارية في الإعلام العربـــي الجديد يقدمان لقطات يومية، ومـــع مـــرور الـــزمن، سيكون ذلك بمثابة صورة شاملة عن الرأي السياسي العربـــي.

وفي ســـياق أوسع، يرى برنارد لويس أن الإعلام الجماهيري جعل "مسلمي الشرق الأوسط أكثر وعيا، إلى درجة الألم، بما صار إليه سوء حالهم. ففي الماضي، لم يكونـــوا واعين بدرجة كافية بالفروق بين عالمهم وبقية أنحاء العالم. ولم يدركوا إلى أي حد أصبحوا متخلفين، ليس فقط عن الغرب المتقدم، وإنما أيضا عن الشرق الذي يخطو خطوات إلى الأمام – كانت اليابان أولا، وتبعتها الصين والهند وكوريا الجنوبـــية، ثم لحقت بهم منطقة جنوب شرق آسيا – وعمليا في كل مكان آخر من حـــيث مستوى العيش، وحجم الإنجازات، وبشكل عام في مجالي التنمية الإنسانية والثقافية."[9]

وحـــين تجـــتمع تـــأثيرات الإعلام في منطقة واحدة، لا سيما إذا كانت غير مـــستقرة، فـــإن مفعولها يكون أكثر وضوحا. وبدلا من معالجة الأسباب العميقة للسخط والعنف، يلقي المسؤولون السياسيون من القاهرة إلى واشنطن باللائمة على الجزيرة وبقية الإعلام الإخباري المستقل بشأن مشاكلهم السياسية. ورغم أن توجيه إصـــبع الاتهام بهذه الطريقة لم يجد نفعا كما كان متوقعا، إلا أن صانعي السياسات يستمرون في تحاشي التحليل الموضوعي لدور القنوات التلفزيونية الفضائية. وعوض الـــبحث عن سبل للتعاون مع الجزيرة، تفضّل بعض الحكومات الصراع معها. وقد بيـــنت التجربة أن الاستجابات الضعيفة – على غرار إطلاق قناة تلفزيونية برعاية الحكومة الأمريكية (الحرة) – لا تأتي إلا بنتائج ضعيفة.

إن الأثر الذي ستتركه الجزيرة على المدى البعيد، سيتم الحكم عليه وفقا لمدى تناســـب تغطيتها مع السياق الأوسع للتغيير على المستويين الاجتماعي والسياسي. وفي هذا الإطار كتب محمد زياني:

"ينبغـــي على المرء أن ينظر بعين الشك إلى الادعاءات المتفائلة جدا بالدور التغييري للإعلام الجديد، وبقوته الديمقراطية وقدرته ليس فقط على زيادة دائرة المشاركة في أوســـاط مخـــتلف الفئات الاجتماعية في العالم العربـــي وتوسيعها، وإنما أيضا بتغيير النظام الاجتماعي والسياسي. فلا يمكن أن نتوقع حدوث تغيير حقيقي بالاعتماد كليا أو بشكل أساسي على قطاع الإعلام. والديمقراطية لا يمكن أن تأتي فقط من الإعلام؛ إذ على النظم والمؤسّسات السياسية ذاتها أن تتغير، وتتطور، وتتكيف... لا ينبغي أن نـــتوهم أن القـــنوات الفضائية يمكن أن تغيّر المجتمع أو تجعل مؤسساته تثور بشكل كبير.[10]

وفي نفس السّياق كتب مارك لينش، "ما دعاه أحد المتحمسين بـــ "جمهورية الجزيـــرة الديمقراطية"، في الواقع، لا وجود له. فالجزيرة لا يمكنها خلق الديمقراطية بمفردها، وليس بمقدورها إرغام القادة العرب على تغيير أساليبهم. ولا يمكن للبرامج الحـــوارية التلفـــزيونية أن تعـــوض العمل الشاق في سبيل التنظم السياسي وبناء المؤسسات."[11]

ينظـــر مأمـــون فندي إلى هذا الموضوع من زاوية أخرى، ويلاحظ أن تكاثر القـــنوات الفضائية يمكن أن تصنع سياسة افتراضية، على غرار حدث داخل ملعب يـــتابعه المواطنون دون المشاركة فيه. فالحكومات في العالم العربـــي تشجع، كما يقول فندي "تشجع هذا الاتجاه حتى يصبح الإعلام بديلا عن السياسة الواقعية."[12] قد يبدو هذا المنظور متشائما على نحو غير مبرّر. وقد تكون الانتخابات في العراق وفلسطين وبقية بلدان العالم العربـــي صاخبة، ولكنها في الأخير تمارَس على أرض الواقـــع. أمـــا في أنحاء أخرى من المنطقة وفي بقية العالم، فالناس يتابعون القنوات الفـــضائية، ويـــرون مـــا يحدث، ويتفاعلون معه، بينما يتابعون شؤونهم السياسية الخاصة.

وبـــين الحـــين والآخر تظهر في المنطقة بارقة أمل. فقد اعترف تقرير التنمية البـــشرية العـــربية لسنة 2004 أن هناك "عقبات جمة تقف في طريق مجتمع يتوق للحرية والحكم الرشيد في البلدان العربية. وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها. ولكن ثمة

في نهايـــة هـــذه الرحلة الشاقة هدف نبيل، يستحق العناء الذي تحمّله أولئك الذين يسعون لتحقيقه."[13]

ديناميات التحول الديمقراطي

علـــى المدى البعيد، قد تثبت الانترنت أنها ربما تكون أكثر نجاعة، باعتبارها قـــوة إصلاح، من قنوات التلفزيون الفضائية، مع أن ذلك يقتضي مزيدا من الوقت نظرا لمحدودية الوصول إلى الانترنت في أغلب بلدان الشرق الأوسط. وبينما يتوسع اســـتخدام الانتـــرنت في المنطقة تدريجيا، يرجّح أن تغير الحيوية السياسية لشبكة العنكبوت العالمية من الطريقة التي ينظر بها الناس إلى بلدانهم وإلي بقية بلدان العالم. فالمعلـــومات الـــتي يتلقونها من المؤسسات الإخبارية وبقية المصادر التي كان يتعذر الوصول إليها في السابق سيستغلونها، ويمكن لطبيعة الانترنت التفاعلية عندئذ أن تخلق بيئة فكرية تفتح المجال أمام التغيير السياسي.

تتمتع الانترنت بحضور متزايد الأهمية في السياسة الدولية، ولكن أثرها الدائم لا يمكـــن التنـــبؤ بـــه. فقد لاحظ كل من "شانذي كالاذيل" و"تايلور بواس" أن الانتـــرنت "أداة لا غـــير، وينبغي التدقيق والنظر بحذر إلى استخدامها من الفاعلين الـــسياسيين والاقتاصـــاديين والاجتماعيين،"[14] ومن جهته يرى تشارلز كوبتشان (Charles Kupchan) أن "التأثيرات العالمية للثورة المعلوماتية، مثلها مثل تأثيرات التـــرابط الاقتصادي، تتحدد ضمن السياق السياسي الأوسع الذي تطبق فيه تلك التكنولوجيات."[15] وبعبارة أخرى، لا ينبغي على المدافعين عن الديمقراطية أن يروْا في الانتـــرنت علاجـــا لكل داء. إنها أداة قيّمة وتحمل قدرة كامنة على الإصلاح، ولكـــن ينبغـــي أن يكون هناك أناس يرغبون في استخدام تلك الأداة لإنجاز التغيير الـــشامل. وعلـــى غرار أي مشروع سياسي، فإن قدرات المشاركين وتصميمهم، والموارد المتاحة، وبقية التطورات السياسية القريبة والبعيدة، وأحيانا الحظ السعيد أو العاثر، تؤثر في طبيعة الجهد المبذول من أجل التغيير الديمقراطي.

يمكن للانترنت أن تولّد ضغطا سياسيا لأنها هي نفسها ذات طبيعة ديمقراطية وبإمكانهـــا تحقـــيق مشاركة شعبية. ورغم أن ذلك ليس مفهوما بالكامل، إلا أننا يمكـــن نقف على حقيقته من خلال الحماس الذي تدار به النقاشات السياسية التي

تجري على نطاق غير مسبوق وبجرأة غير معتادة في تناول الشأن السياسي في أغلب أنحاء العالم. فأنصار التغيير ليس عليهم أن يخاطروا بالمشاركة العملية في التظاهرات العامة التي تحدث في الأنظمة البوليسية. وليسوا مضطرين للاعتماد على التوزيع البطيء والمحدود للمعلومات كما كان يحدث مع توزيع نشرية "ساميزدات" أيام الاتحاد السوفياتي. بدلا من ذلك، يمكن أن يحصل ضغط سياسي افتراضي كما حدث في سوريا في أواخر عام 2005 عندما "انتشرت مقاهي الانترنت في دمشق وأتاحت للناس تبادل الأخبار والشائعات بشكل متواصل. ورغم أن الشرطة بادرت بإيقاف المعارضين السياسيين إلا أن الناس لم يتوقفوا عن الكلام،" حسب ما جاءعلى لسان دافيد إغناسيوس (David Ignatius)[16]، علما وأن ذلك الكلام، لم يكن مقتصرا على طاولات مقاهي الانترنت، وإنما كان يجري أيضا على شبكة الانترنت.

ومع ذلك، يظل من العسير التكهن بدقة بالمدى الذي يمكن أن يبلغه تأثير الانترنت في العالم العربي، وتحديدا لأن الدول العربية لا تزال متخلفة جدا عن أغلب دول العالم الأخرى في الاستفادة من هذه التكنولوجيا. فإلى حدود سنة 2003، وحسب ما أوردته الأمم المتحدة، لم يكن هناك إلا 18 جهاز حاسوب لكل 1000 شخص في البلدان العربية، مقارنة بالمتوسط العالمي وهو 78 جهاز لكل ألف شخص. وفي أواخر عام 2007 أصبح 21% من سكان الشرق الأوسط يستطيعون الوصول إلى الانترنت (وأحيانا عن طريق المشاركة)، وفي ذلك تسارع لافت، إلا أنهم لا يزالون متخلفين عن الغالبية العظمى من بقية سكان العالم. وعلى سبيل المقارنة، تبلغ نسبة مستخدمي الانترنت في أوروبا 48% وفي أمريكا الشمالية 71%.[17]

ومتى أتيح الوصول إلى الانترنت، فإن الحصول على المعلومات ونشرها دون وساطة يمكن أن يعتبر بمثابة ديمقراطية معلوماتية. وبما أن هذه الحرية متاحة للجميع، بصرف النظر عن نواياهم، فإن انتهاكها يظل واردا، كما رأينا في أمثلة الإرهابيين في المحور الخامس. وأحيانا تصبح بعض المؤسسات الإخبارية متواطئة عن غير قصد حين تصل تغطيتها لما يقوله الإرهابيون إلى جمهور أوسع بكثير مما يمكن تحقيقه عبر النشر الأصلي على شبكة الانترنت، أو عن طريق أشرطة الفيديو، أو أية رسائل

أخـــرى. وهذا يطرح عددا من الأسئلة حول دور حراس التيار الرئيس في الإعلام، وقـــد طلب الاتحاد الأوروبـــي من المؤسسات الإعلامية أن تصوغ مدونة للسلوك حتى لا تتحول بالفعل إلى أدوات دعائية لفائدة الإرهابيين.[18]

ثمة استخدام آخر للانترنت ينطوي على ممكنات سياسية هامة، وهو التدوين. فالمـــدونات تعمـــل على تضخيم الأصوات التي يمكن أن تكون غير مسموعة في السابق. وبذلك فهي تخلق نوعا من التكافؤ الديمقراطي، على الأقل من حيث إتاحة الفرصـــة لجمهور أوسع للوصول إلى أولئك الذين يعتقدون أن لديهم شيئا يستحق أن يقـــال. لقـــد أصـــبح فضاء التدوين مزدحما ولا يزال في طريقه إلى مزيد من الازدحـــام، وقـــد سجل محرك البحث الخاص بالمدونات تكنوراتي (Technorati) أكثـــر مـــن 113 مليون مدونة في ربيع عام 2008. وذكر تكنوراتي أن 175,000 مدونـــة كانـــت تطلق يوميا، وأن المدونين يحيّنون مدوناتهم بواقع 1,6 مليون مادة تنشر كل يوم، وبمعدل 18 مادة كل ثانية.[19]

ورغـــم هـــذا الازدحام فإن المدونين يعرفون كيف يعثرون على بعضهم البعض وكيف يصلون إلى الجماهير. وعلى وجه التحديد، في البلدان التي تسعى فيها الحكومات لقمع محاولات التنظم السياسي، يمكن للتدوين أن يكتسي أهمية خاصـــة في حـــشد الضغط من أجل الإصلاح. ففي سنة 2005 أثار المدنون في لبـــنان وفي غـــيره نقاشا واسعا بشأن مرتكبـــي حادثة اغتيال رفيق الحريري والـــتفاعلات الـــتي أعقبـــتها – وهـــو نقـــاش مفتوح لكل من كان بإمكانه الوصـــول إلى الانترنت، بصرف النظر عن رغبة بعض الحكومات في منع تلك النقاشات.

مـــثال آخر على التدوين السياسي نجده في البحرين عام 2002 عندما أصبح بإمكـــان البحـــرينيين الذين استاؤوا من تغطية الإعلام التقليدي للفضيحة المتعلقة بالصندوق الوطني للمعاشات، أن يقرؤوا تحليلات أقل تقييدا للحرية على مدونات مثل "مدونة البحرين" أو محمود دان."[20]

تمتلك الكثير من القرى البحرينية مواقع خاصة على الانترنت، وغرف دردشة حيث النقاشات المتعلقة بعائلة خليفة الحاكمة أقل رقابة من تلك التي تدور في زوايا الشوارع. وفي أواخر سنة 2005 أصبح موقع بحرين أون لاين (BahrainOnline.org)

مقـــصد كـــل من يهتم بالأخبار السياسية. وقد ظهر نجاح هذا الموقع وتميزه حين أقدمت الحكومة الغاضبة على حبس عدد من المشرفين عليه بضعة أسابيع.[21]

لقـــد امـــتد الحـــديث في الـــسياسة من مقاهي الأحياء إلى فضاءات عالمية. فالانتـــرنت تشجع التعبير الالكتروني والتفكير الذي يكمن خلفه. ويعد هذا ضربا من التشبيك من حيث أن النشطاء من ذوي الاهتمامات المشتركة يصبح بإمكانهم العـــثور على بعضهم البعض وتكوين شراكات متنوعة. فالمعلومات – سواء كانت موثـــوقا بها أو غير ذلك – يمكن نشرها بسرعة وعلى نطاق واسع. وسيمر بعض الـــوقت قبل أن تتحدد طبيعة الآثار السياسية بعيدة المدى لهذه الظاهرة، أما إذا ما نجحـــت كتابات المدونين في توسيع دائرة النشاط لدى قرائهم فإن ذلك قد يكون طريقا آخر يجعل من وسائل الإعلام الجماهيري قوة دفع نحو التغيير الديمقراطي.

***

في الوقت الذي تشهد الانترنت استخداما متزايدا، هناك وسيلة اتصال أخرى واســـعة الانتشار أثبتت جدواها بشكل خاص أخرى في حشد النشطاء. فالرسائل النـــصية عبر الهواتف الخليوية تسهل تنظيم المظاهرات وتبادل المعلومات السياسية. وبشكل خاص، حين تكون حركة الأحزاب السياسية مقيدة، يمكن للرسائل النصية أن ترســـل إلى قـــوائم عضوية غير رسمية. ففي الكويت، استطاعت النساء اللواتي نظّمـــن احتجاجات حول حق التصويت سنة 2005، أن يحشدن طالبات المدارس عبر إرسال رسائل نصية. (في 2005 مُنحت المرأة الكويتية حق التصويت والترشح في الانـــتخابات البرلمانية وانتخابات المجالس المحلية.) وفي لبنان، استخدمت الرسائل النـــصية في مـــارس 2005 (إلى جانـــب الرســـائل الالكترونية) لحشد المتظاهرين المناهضين للوجود السوري.

وقـــد لاحـــظ فـــوزي غوليد، من المعهد الوطني الديمقراطي في البحرين أن الرســـائل النصية توسع من مجال حرية التعبير لأنها "تسمح للناس بإرسال رسائل لا يمكـــنهم التعـــبير عن فحواها أمام العموم." ومع ذلك، ينبغي ملاحظة أن الرسائل النصية تساهم في نشر الإشاعات وشن الهجومات من قبل أشخاص مجهولي الهوية. فقـــد كانـــت روضة دشتي، إحدى منظمات تظاهرات حقوق المرأة في الكويت، عرضـــة لحملة واسعة من الرسائل النصية تتنقد أصولها اللبنانية والإيرانية، وتتهمها

بتلقي أموال من السفارة الأمريكية. فكان جوابها "هذا يعني أنني جعلتهم يتصرفون بعصبية... ويجدر بـــي أن أتعوّد على ذلك."[23]

تعطيـــنا هذه الأمثله فكرة عمّا يمكن أن تحمله وسائل الإعلام الجديد من قيمة علـــى المـــدى البعيد. فهي قادرة على التأثير في عملية التحول الديمقراطي في حده الأدنى، مـــن خلال تمكين عدد أوسع من الناس من الانخراط في الممارسة السياسة. وكما هو الحال دائما، تظل هناك هوّة بين الممكن والواقع.

فهـــناك الكثير من التشدد في أوساط من يمسكون بزمام السلطة السياسية في المـــنطقة. وعلى غرار ما يحدث في بقية أنحاء العالم، لا يأتي التغيير إلا عبر تراكمات جـــزئية، وعلى دعاة الإصلاح أن يستعدّوا لتحمل الكثير من الإحباطات. وليست رولا دشتي إلا نموذجا لأولئك النشطاء السياسيين الذين أدركوا أنهم، رغم قدرتهم على استخدام وسائل الإعلام الجديد لخدمة مسيرتهم وقضيتهم، إلا أن عليهم أيضا أن يـــتعلموا كيف يحمون أنفسهم من الأضرار السياسية التي يمكن أن تجلبها عليهم تلـــك الوســـائل ذاتها. وسواء أكانت الحملة السياسية في الكويت أم في الولايات المـــتحدة، فـــإن استخدام الإعلام الجديد يقتضي إتقان المهارات الدفاعية من أجل التصدي للآثار الخبيثة التي يحدثها ذلك النمط الجديد من السياسة الهجومية.[24]

يقـــدم لنا جون ألترمان تقديرا أكثر تفاؤلا لتأثير الإعلام، فهو يرى أنه "مع الـــتقدم الهائـــل في مجالي محو الأمية واستخدام الانترنت فائق السرعة، أصبح متاحا للجمهـــور أن يتعاطى مع طيف واسع، وأحيانا غير منظم من وجهات النظر التي تتراوح بين العلمانية والدينية، بين القومية والعالمية، وبين المادية والروحية. وبمقتضى هـــذا الـــنموذج الجديد أصبحت المعلومات محكومة بقانون الطلب وليس العرض، وأصـــبح عـــالم الآراء المتوفرة أوسع بكثير من أي وقت مضى." وأحد انعكاسات هذه الوفرة في المعلومات التي يتم تداولها على نطاق أوسع، كما يعتقد ألترمان، هو "التلقائية السياسية، إذ بينما تقدم السياسة العربية غالبا في صورة التظاهرات المعدة ســـلفا ســـواء للتعبير عن التأييد أو الغضب أو الحزن أو الفرح، فإن قدرة الأنظمة الحاكمة على تنظيم مثل تلك التظاهرات باتت محدودة جدا."[25]

ينبغـــي أن ننظر إلى التأثيرات الراهنة والمستقبلية للإعلام الجديد بعين الاعتبار خاصـــة ضـــمن الـــسياقات السياسية الشمولية. ففي الوقت الذي نظل نتأمل فيه

الـــتطلعات بعـــيدة المدى، تستمر سياسة الشرق الأوسط في التغير جزئيا، وأحيانا بطـــريقة مؤلمة، وفي كل الحالات يبرز الإعلام الجماهيري بأشكاله المختلفة باعتباره عـــاملا متزايد الأهمية. لقد استخدمت وسائل الإعلام في التحركات الاحتجاجية السياسية في كل من لبنان ومصر والكويت وغيرها. ويعتبر التلفزيون الفضائي من بـــين تلـــك الوسائل لأن بإمكانه أن يتجاوز، إلى حد ما، أشكال الرقابة المفروضة على التغطية الإعلامية في بلد بعينه.

لقـــد أظهرت "ثورة الأرز" في لبنان سنة 2005 كيف يمكن لذلك أن ينجح علـــى صعيدين. فالتغطية الإقليمية/العالمية – على غرار ما تقوم به الجزيرة والعربية يمكـــن أن تـــزود الجماهير اللبنانية بالمعلومات دون خشية كبيرة من الانعكاسات الـــسياسية الـــتي قـــد تقـــيد وســـائل الإعلام اللبنانية. فمن خلال إظهار حجم الاحـــتجاجات والطاقـــة التي تحركها، ساعدت تلك التغطية في إشعال المظاهرات وشكلت بذاتها ضغطا أوسع نطاقا على سوريا من أجل الانسحاب. وأحيانا تحظى وسائل الإعلام التي تبث من خارج البلاد بحرية أكثر من تلك التي تبث من الداخل والتي يرجح أن ترضخ للضغوط السياسية المحلية.

إن الحـــدود بـــين الوطني والعالمي ليست دائما مرسومة بوضوح. والإعلام العالمـــي ليس بالضرورة إعلاما خارجيا. فقنوات التلفزيون اللبنانية، وبعضها يبث علـــى الأقمـــار الاصطناعية، غطت أيضا، وبشكل مكثف الأحداث التي أعقبت اغتيال الحريري، مثلها في ذلك مثل محطات الإذاعة والصحافة المطبوعة التي كانت تـــصل إلى الجمهور الإقليمي والعالمي عبر شبكة الانترنت. وفي لبنان، كما في أي بلد آخر، غالبا ما يتأثر المحتوى الإخباري المحلي بالمصالح السياسية والطائفية والمالية لأولئك الذين يملكون المؤسسات الإعلامية ويديرونها. وعلى مستهلكي الأخبار أن يأخـــذوا هذا بعين الاعتبار عند تقييمهم للمعلومات التي يتلقونها، واختيارهم أي مزيج من المصادر الإخبارية ينبغي الاعتماد عليه.

ويستمر نطاق التدفق الإخباري في التوسع، فبالإضافة إلى التغطية التلفزيونية، كان موقع "تدوين بيروت (bloggingbeirut.org)، يوفر لمتصفحيه لقطات فيديو حـــيّة عن مظاهرات ثورة الأرز التي شارك فيها مئات الآلاف من المواطنين وسط العاصـــمة بـــيروت. ويـــؤكد ذلك مرة أخرى القيمة التي تنطوي عليها الانترنت

باعتـــبارها أداة تعبـــئة؛ فهي بإمكانها توفير المعلومات التي قد لا تكون متاحة لدى مزودي الأخبار التقليديين، ويمكنها أن تجعل الناس يواكبون الأحداث وينخرطون في تحركات الشارع.

لقـــد ســـاهمت التقارير الإخبارية في لبنان في خلق ديناميات سياسية طويلة المـــدى، حيث وصلت التغطية الإعلامية إلى جمهور واسع في مختلف أنحاء المنطقة، ومكنته من متابعة النشاط السياسي الذي يمكن أن يقرر تقليده. وفي غضون الأشهر التالية شهدت المظاهرات التي انتشرت في أماكن أخرى نفس التكتيكات الصديقة للإعـــلام التي رأيناها في تغطية أحداث بيروت. ففي الأردن، كما في لبنان، كانت الأعـــلام الوطنية ترفع باستمرار أمام عدسات وسائل الإعلام، وهو ما ساعد على عدم اعتبار تلك الاحتجاجات مجرد خلافات طائفية.[26]

إن الـــتعامل مع عدسات الكاميرا بهذه الطريقة سيصبح أكثر تطورا مع تراكم الخـــبرة الإعلامية لدى النشطاء. (فالتأثيرات التموجية ليست أمرا غير مسبوق، إذ تـــرددت أصـــداء التغطية الإعلامية لأحداث ميدان تيان آن مان في يونيو/حزيران 1989 في كـــل أنحاء العالم، لا سيما في أوروبا الشرقية حيث جرت أحداث برلين الثورية خلال الأشهر الخمسة الموالية.)

بينت الأحداث في لبنان سنة 2005 أيضا كيف يؤثر الإعلام في المنافسة من أجل المصداقية السياسية. فعندما اندلعت المظاهرات التي أعقبت اغتيال الحريري في بيروت، قـــال الـــرئيس السوري بشار الأسد لبرلمان سوريا إن عدد المحتجّين مبالغ فيه – فعدد المتظاهـــرين كان في الواقع محدودا ولكن حجم الحشود بدا أكبر لأن كاميرات وسائل الإعلام كانت تضخمهم وتجعل الصغير يبدو أكبر. نقلت تعليقات الأسد على شاشات التلفـــزيون وفي مظاهرة اليوم التالي شوهد المشاركون وهم يرفعون لافتات كبيرة كتب عليها باللغتين الإنجليزية والعربية، "ابعد الكاميرا"، و"ابعد الكاميرا ثم احسب!" وعندما تـــراجعت الكـــاميرا إلى الخلف والتقطت مشهدا عن بعد، بدت الحشود أكبر حتى مما كانـــت عليه. وتقول التقديرات إن نحو مليون لبناني (من أصل عدد السكان البالغ 3,7 مليون نسمة) نـــزلوا إلى ساحة الشهداء وتمكن العالم من مشاهدتهم.[27]

وداخـــل لبنان، كانت هناك تغطية تلفزيونية مكثفة لذلك الحراك السياسي. فقـــد رد تلفـــزيون المستقبل الجميل للحريري، الذي كان يملكه، وتبنى موقفا قويا

مـــؤيدا للديمقراطية، مثلما فعل عدد آخر من القنوات. أما شبكة البث الوطنية التي تصنف ضمن الخط المؤيد لسوريا، وتلفزيون المنار التابع لحزب الله، فقد غطيا تلك الأحـــداث بطريقة أقل كثافة حيث استخدما التقارير المنتجة داخل الاستوديو بدلا مـــن التغطية الحية لحركة الجموع الواسعة المناهضة لسوريا في بيروت. وفي المقابل، نالت المظاهرات المؤيدة لسوريا تغطية أوسع على شاشات هاتين المحطتين.

وحـــين كـــان الـــبرلمان اللبناني في حالة اشتباك إزاء الأزمة، كانت القنوات الفـــضائية المحلـــية والعالمية تغطي تلك النقاشات العقيمة وتنقل على الهواء مباشرة استقالة رئيس الوزراء.[28]

لم تغير التغطية الإخبارية والاستخدامات الأخرى للإعلام في لبنان سنة 2005 سياســـة الـــبلاد. فالطائفية لم تختف، ومازال الصحفيون يخشون على أنفسهم من الـــسيارات المفخخـــة ومن الأشكال الأخرى للعنف الموجّه ضدّهم. وتظل وجهة المستقبل السياسي للبلاد غير معروفة. ومع ذلك يمكن القول بخصوص ما حصل في لبـــنان ســـنة 2005 إن الديمقراطية قد تقدمت وإن بقدر بسيط (قابلة للعودة إلى الوراء). فقد استطاعت وسائل الإعلام الجديد، مثل المدونات والرسائل النصية، إلى جانـــب التغطية الإخبارية لوسائل الإعلام التقليدية، أن تدفع الناس إلى الانخراط في تلـــك الأحـــداث. وشاهد المجتمع الالكتروني وجمهور القنوات الفضائية في لبنان وعلـــى امتداد العالم العربـــي، ما الذي يمكن أن يفعله الناس إذا تسلحوا بالتصميم والإرادة.

ولكـــن لذة الانتصار لم تدم طويلا، ففي السنة الموالية، انجر لبنان، الذي تمزقه الصراعات، مجددا إلى حرب بين إسرائيل وحزب الله.

***

تمـــثل مـــصر نموذجا آخر لغياب "رابح" واضح حين يتحدى النشطاء الذين يستخدمون الإعلام الجديد نظاما قائما يعلم الجميع أنه في حاجة إلى إصلاح. فقد طـــرح أســـامة الغزالي حرب، الصحفي وعضو مجلس الشورى (الغرفة الثانية في الـــبرلمان المـــصري) في مقالة سنة 2005 رؤيته للتغيير قائلا: "إن السبب الحقيقي للانـــزعاج هو أن الإعلام الرسمي سواء على صعيد الصحافة المكتوبة أم الإذاعة أم التلفـــزيون، أثبت عجزه الكامل عن استيعاب التطورات الجديدة ومازال يخاطب

جمهـــوره بلغـــة مـــتجاوَزة ومتعارضة مع منطق التطور السياسي." إن استراتيجية الإعلام الحكومي، كما يقول حرب:

"قائمـــة علـــى مسلّمة إنكار أي احتجاج – سواء في شكل مظاهرة أو إضراب أو صراع طائفي – وعدم الاعتراف به والمساعدة على الحد من آثاره "السلبية". لكن ثورة المعلومات أفقدت هذه الاستراتيجية جدواها. ولم يعد ممكنا لأية دولة أن توقف مـــدّ الإعلام العالمي. كل ما يفعلونه هو دفع المواطنين دفعا نحو الصحف والإذاعات وقنوات التلفزيون التي تديرها شركات الإعلام الأجنبية بحثا عن أخبارها وتعليقاتها. وبالتالي أصبحت وسائل الإعلام الرسمية أدوات دعائية لا غير. وحين نعلم أن قنوات التلفـــزيون الفضائية تصل إلى مختلف فئات المجتمع المصري – أيا كان نوع الخداع الذي يمارسه البعض للحصول على تلك القنوات – إلى جانب الإمكانات الإعلامية الهائلـــة التي تنطوي عليها شبكة الانترنت، يتضح لنا بسرعة قصر النظر الذي يميز السياسة التي توجه الإعلام الرسمي."[29]

نجد أصداء خيبة الأمل التي عبّر عنها "حرب" تتردد لدى نجيب محفوظ، الذي نـــال جائزة نوبل للآداب سنة 1988، حين صرح في عام 2004 قائلا: "أنـــزعج عـــندما يأتـــيني الـــناس ويقولون إنهم شاهدوا كذا وكذا على قناة فضائية، وحين أســـألهم مـــاذا قالت القنوات المحلية عن الموضوع يجيبون بأنها لم تتناوله مطلقا. لا يمكـــن لهذا الأمر أن يستمر – ينبغي على قنوات مصر الأرضية أن تكون الأولى في تغطـــية الأخـــبار التي تهمنا. لقد أدرك المشاهدون المصريون سن الرشد منذ وقت طـــويل جـــدا، ولكن وسائل إعلامنا ما زالت لم تدرك ذلك بعد. وبما أن الإعلام يـــسعى إلى تجـــنب نـــشر المعلومات التي يظن أنها قد تكون غير مستساغة، فقد استُبدلت الشائعات بالأخبار."[30]

يمكـــن أن نقـــف على هذا النمط من التحرير الانتقائي عندما ألقت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس خطابا في القاهرة في شهر يونيو/حزيران 2005 دعـــت فـــيه إلى تسريع وتيرة الإصلاح. فقد أوردت صحيفة الأهرام الحكومية في صـــفحتها الأولى عـــن رايس قولها إن الرئيس مبارك "فتح الباب أمام التغيير" من خلال السماح بتنظيم انتخابات رئاسية متعددة المرشحين. ولكن الصحيفة حذفت الـــشطر اللاحق من تعليقها: "أما الآن فإن على الحكومة المصرية أن تثق بشعبها. كلـــنا منـــشغلون بمستقبل الإصلاحات في مصر حين لا يأمن من يؤيد الديمقراطية

سلميا – رجالا ونساء – على أنفسهم من التعرض للعنف." وجاء في تعليق الصحفي المصري هشام قاسم على هذه الحادثة قوله "إن ذلك يدل على درجة الإنكار التي وصل إليها هذا النظام. فقد شاهدنا ذلك على شاشات كل القنوات الفضائية."[31]

وفي الشوارع كانت وتيرة الاحتجاجات ترتفع وحجمها يزداد، مستخدمة الانترنت أداةً تنظيمية ومتجاوزة في سرعتها الأحزاب السياسية القائمة. وفي شهر مايو/أيار 2005، وبعد تعرض المتظاهرين للضرب على أيدي أشخاص قيل إنهم يعملون بتوجيه من الحزب الوطني الديمقراطي الذي يقوده الرئيس مبارك، أنشئت شبكة من المدونات لنشر المعلومات بسرعة حول التحركات القادمة، ولإتاحة الفرصة لأنصار الديمقراطية كي يعبّروا عن آرائهم ويتواصلوا مع من يتعاطفون مع قضيتهم. وقد كتب أحد المدونين أنه كان ينشر تعليقات سياسية "حتى لا تتهمنا الأجيال القادمة بأننا بقينا صامتين حين كان ينبغي أن نتكلم."[32]

ولم تكن المدونات غير أحد مظاهر حضور الإعلام الجديد في الحركة الاحتجاجية. فقد لاحظ علاء عبد الفتاح، صاحب موقع "المدونات المصرية"، الذي ينسق حركة تبادل المعلومات بين المدونات، أن "أهمية الأمر تكمن في كيفية تحول مختلف المواقع الالكترونية بما في ذلك المدونات، والمنتديات، والصفحات الإخبارية المستقلة، والمواقع الرسمية للمجموعات السياسية وغيرها، إلى منبر للمعارضة." وقد انتبهت الحكومة إلى نشاط المدونات وبقية الأنشطة القائمة على استخدام الانترنت ففي ماي 2005 اعتقلت عبد الفتاح وعددا آخر من المدونين الداعمين لكفاية، التي تقود حركة المعارضة. فنادى المدونون من مختلف أنحاء العالم وأطلقوا مدونة "أطلقوا سراح علاء" لإبقاء قضيته حية ومحاولة ممارسة الضغط (دون نجاح كبير) على السلطات المصرية."[33]

وفي عام 2007، حكم على مدون آخر، وهو عبد الكريم نبيل سليمان (المعروف الكترونيا باسم كريم عامر)، بأربع سنوات سجنا بتهمة "ثلب الأديان" و"إهانة الرئيس مبارك." وعلى الفور انتقد صحفيون في الأهرام وفي مؤسسات إعلامية أخرى قرار المحكمة، وهو ما يدل على وجود حرية صحفية نسبية ويبين توسع دائرة المعاناة في المنطقة.

مـــن الذين قضوا كذلك فترة في السجن، أيمن نور رئيس حزب الغد، الذي احـــتل المرتبة الثانية في الانتخابات الرئاسية المصرية سنة 2005. وسرعان ما اعتبر منـــتقدو نظـــام مبارك سجنه انتقاما سياسيا ودعوا إلى إطلاق سراحه. وقد حظي مـــؤيدو نور بتغطية محدودة من التيار الرئيس في الإعلام المصري، ولكنهم نظموا حملـــة علـــى شبكة الانترنت من أجل حريته، وتمكنوا من جمع توقيعات الكترونية لأعـــضاء في البرلمان الأوروبـــي والكونغرس الأمريكي. وظلت قضية نور حاضرة في بعـــض المواقـــع الإصلاحية مثل موقعيْ إيلاف (elaph.com) وشفاف الشرق الأوسط (middleeasttransparent.com)، وهو ما أزعج حكومة مبارك.

كان ذلك إزعاجا ولكنه لم يكن قويا بما فيه الكفاية ليحدث تغييرا. ورغم أن مـــا يمكـــن قياسه من أثر الأصوات التقدمية قليل جدا، إلا أنها تظل مسموعة في مـــصر. فقد دعا الصحفي سلامة سلامة إلى إلغاء وزارة الإعلام وقال "نحتاج إلى إعلام يعكس مشاغل الناس، ويشجع على حرية التعبير، ويقاوم الجهل والتطرف، ويـــروّج للديمقراطية وحقوق الإنسان. نحن جاهزون لتغيير جذري."[34] قد يكون بعض الصحفيين والنشطاء السياسيين مستعدّين، ولكن الحكومة لم تكن كذلك.

ومـــن بين وسائل الإعلام التقليدية، نجد أن المجلة الأسبوعية الناطقة بالإنجليزية "كايـــرو تايمـــز"، إلى جانـــب بعـــض الصحف مثل "المصري اليوم" و"العربـــي الناصـــري" الـــتابعة للحـــزب الناصري، تنتقد أحيانا، وبشكل حاد، المسؤولين الحكوميين وسياسات الحكومة. لاشك أن تأثير هذه الوسائل ضعيف، وقد يساهم في التهيئة لتغيير فعلي في المستقبل، ولكن في الوقت الراهن، تظل القوة الحقيقية في يد الحكومة.

***

بالتأكيد ليس نظام مبارك هو الوحيد الذي يمارس المنع في المنطقة. ففي بلدان أخرى مثل إيران، يجب على الأصوات الإعلامية أن تصارع من أجل أن تصل إلى الجمهـــور، بيـــنما يـــستمر الـــنظام في مـــنعها وسجن من يتجرّأ على استخدام التكنولوجيات الجديدة للمطالبة بالتغيير.

وحـــين كان آية روح الله الخميني يعيش في المنفى في سبعينات القرن الماضي، حـــافظ علـــى قاعدته الشعبية داخل إيران واستمر في تغذيتها عبر إرسال الأشرطة

الـــسمعية (الكاسيت) التي كانت توزَّع في كل أنحاء البلاد. وكان يدعو في تلك الأشـــرطة إلى مناهـــضة نظام الشاه العلماني ذي التوجه الغربـــي، ويبشّر بعظمة الدولة الإسلامية التي وعد بإقامتها.

وعـــندما وصـــل الجيل اللاحق إلى مرحلة النضج، كانت أشرطة الخميني قد اســـتُبدلت بهـــا، أولا أجهـــزة الفاكس والناسخات، ثم القنوات الفضائية، والآن الإعـــلام الذي يعتمد على شبكة الانترنت. ويكتسي الإعلام البديل في إيران أهمية خاصة، فقد أغلقت الحكومة، استنادا إلى بنود قانون الصحافة لسنة 1955 أكثر من مائة مطبوعة، بما في ذلك إحدى وأربعين صحيفة يومية. والآن تتفانى وسائل إعلام التيار الرئيس سواء المطبوعة أو المرئية في تجنب إثارة الحكومة. وعندما نالت المحامية شـــيرين عبادي جائزة نوبل للسلام عام 2003، تجاهل الإعلام الحكومي الموضوع عـــدة ساعات وبعدها نشر إعلانا في حدود 15 ثانية لم يشر حتى إلى نشاطها في مجال حقوق الإنسان.[35]

أمـــا المدونون، فقد نشروا رسائل تهنئة بعد دقائق من إعلان لجنة نوبل الخبر. وتعتـــبر المدونات في إيران أحد أبرز مظاهر الإعلام الجديد. ففي منتصف عام 2007، أعلـــنت بيرســـيا بلوغ (Persiablog) أنها تستضيف 780,000 مدونة، وحسب تكـــنوراتي تعـــد الفارســـية إحدى لغات التدوين العشر الأوائل. ومن بين رواد الويبلوغـــستان، وهى التسمية التي تطلق على المدونات الناطقة بالفارسية، حسين ديراخـــشان، الـــصحفي الإيـــراني الذي انتقل إلى كندا بعد أن أغلقت الحكومة الـــصحيفة الـــتي يعمل فيها. وفي سنة 2001 نشر ديراخشان توجيهات الكترونية باللغة الفارسية حول كيفية إنشاء المدونات. وانتقل الصحفيون الإيرانيون الآخرون الـــذين وجـــدوا أنفسهم دون إطار مهني، بسبب القرارات الحكومية، إلى شبكة الانتـــرنت وبدؤوا يمارسون التدوين. وكتب "بيجان سفساري"، محرر وناشر عدد من الصحف المؤيدة للديمقراطية كانت الحكومة قد أغلقتها، في مدونته "في الوقت الذي يُحْرم فيه مجتمعنا من حقوقه في وسائل التواصل الحرة، ويتواصل غلق صحفنا الـــواحدة تلـــو الأخـــرى – والكتاب والصحفيون يملؤون أقبية السجون... يظل الفـــضاء الوحـــيد الذي يحفظ ويدعم حرية التعبير هو الفضاء الالكتروني." ومن جهتها، قالت منظمة مراسلون بلا حدود "في بلد يصارع فيه الإعلام المستقل يوميا

من أجل البقاء، تبقى المنشورات الالكترونية والمدونات آخر الوسائل الإعلامية التي تسقط في براثن السلطة."[36]

وفي نهاية المطاف، بدأت الحكومات تدرك أهمية المدوّنات. ففي البداية تعترف بأنهـــا تصل إلى جمهور واسع، ثم تبدأ الاعتقالات. في سنة 2004 أمر المدّعي العامّ في طهـــران بإيقـــاف أكثر من عشرين مدونا. وتضمنت التهم "ثلب قائد البلاد"، "التعاون مع العدو"، "نشر الدعايات المغرضة ضد الجمهورية الإسلامية"، وتحريض الـــناس على الإضرار بالأمن القومي."[37] وقد نال بعض المدونين المتهمين أحكاما مطـــولة بالـــسجن، بينما اضطر البعض الآخر لترك البلاد. وحين احتج مدوّنون آخرون على الحملة، وقع سجنهم أيضا. وعندما زار ديراخشان إيران وقع اعتقاله وأُجبر على توقيع اعتذار عما كتبه في مدونته قبل أن يُسمح له بالعودة إلى كندا.

ولكـــن تلك المضايقات لم تردع كل المدوّنين. فحتى الوجوه السياسية لجأت إلى الانتـــرنت وأطلقت مواقع الكترونية، بمن فيهم نائب رئيس سابق، وأحد آيات الله الذي كان يعتبر خليفة محتملا للخميني، وابن شاه إيران السابق (الذي يعيش في الولايات المتحدة). وحتى الرئيس محمود أحمدي نجاد له مدونته الخاصة وموقعه على شبكة الانترنت. (المدونة منشورة باللغات الفارسية والعربية والإنجليزية والفرنسية.)

إلى جانـــب استهداف المدونين أفرادا، فإن الحكومة تتبع النموذج الصيني في اســـتخدام نظام الفلترة، كجزء من عملية التنظيم التي تفرض على مزودي خدمة الانترنت أن يعتمدوا آلية للفلترة، وتجبر المستخدمين على الإقرار بعدم الدخول إلى مواقـــع غـــير إسلامية. كما تطلب من المدونين أن يسجلوا مدوناتهم لدى وزارة الـــثقافة وإلا فإنهـــا تتعرض للفلترة والمنع. وفي خطوة أخرى، رعت الحكومة أيضا مسابقة لأفضل المواقع التي تتناول الثورة الإسلامية والقرآن.[38]

وبمـــا أن نسبة الإيرانيين تحت سن الثلاثين تقارب 70% كما أن 80% منهم يعـــرفون القراءة والكتابة، فإن الاهتمام بالتدوين كبير، كما أن الاهتمام بالقضايا الاجتماعـــية والثقافـــية يفوق الاهتمام بالنشاط السياسي العادي. وفي كتابها "نحن إيـــران" اســـتطلعت صاحبة الاسم المستعار نسرين علوي آراء مستخدمي الفضاء التدويني وانتهت إلى أن المساحة الغالبة منه يحتلها شباب يرزحون تحت وطأة القيود الـــتي يفرضها نظام البلاد الإسلامي. ويؤكد الصحفي مسعود بنهود، الذي يعيش

الآن في المنفـــى، أن الصحفيين اختفوا عن الأنظار ليخططوا لـــ "ثورة الانترنت" بيـــنما "تتولى مواقع الانترنت ومدونات الشباب الإيراني المعارض، بشكل مستقل، تحمـــل العبء الكامل لرسالة شبكة الإعلام العام ومقاومة رجال الدين المحافظين." وقـــد جـــاء في مدونة بنهود أيضا "كل يوم، عندما أفتح مواقع الانترنت وأتصفح مـــدونات الشباب الإيراني، تملؤني روح جديدة. فأقول لنفسي، إن ما يثلج الصدر أن يمـــتلك شـــبابنا الآن وســـيلة للتعبير عما يعتقدون... إنهم يقدّرون الحرية ولا يـــرتهنون للتعصب. فمدوناتهم تعكس الآراء الصريحة والصادقة للشباب ولأجيال المستقبل في إيران."[39]

كمـــا خلـــصت علوي أيضا إلى أن ويبلوغستان تمثل مساحة لحياة فكرية لا تـــوجد في إيران إلا في العالم الافتراضي. وذكرت أكبر غانجي، الحائز على جائزة ســـاخروف سنة 2003 التي يمنحها البرلمان الأوروبـــي، والذي يعتبره البعض بمثابة فـــاكلاف هافل العالم الإسلامي، حيث كتب، وهو في السجن، بيانا تحت عنوان "النظام الجمهوري" دعا فيه لفصل الدين عن الدولة. وبعد أن منعته السلطات من النـــشر على شبكة الانترنت حظي بنقاش بين المدنوين. من جهته، يرى ديراخشان أن علـــى الإيرانيين أن يوجدوا على مستويات مختلفة: "فمثلما يمكنهم الانتقال بين التلفـــزيون الحكومي وبرامج الفضائيات الغربية عبر الضغط على زر، فهم كذلك ينـــتقلون في حياتهم اليومية. فقد فرض عليهم هذا النمط وعليهم أن يتعاملوا معه. وفي الحقـــيقة أغلـــب الإيرانيين يعيشون حياتين، حياة خاصة وحياة عامة. ويعد الفـــضاء الـــتدويني إحـــدى المساحات التي يمكن للإيرانيين أن يكونوا فيها على حقيقتهم. إنه فضاء يعمل ضد النفاق، وهو لا يمكن إلا أن يكون أمرا جيدا بالنسبة إلى الإيرانيين."[40]

وقـــد كتب أحد المدونين الإيرانيين الناشطين الكترونيا تحت اسم "أمل"، "لا ينبغـــي أن ننـــسى أن الرعب يبدأ دائما باللغة... فالرقابة على الكلمات تقود إلى الرقابة على هويتنا، وتنتهي في الأخير إلى قمعنا."[41]

***

أما خارج إيران فقد دفع الحرص على المحافظة على حد أدنى من الانفتاح بيار عقـــل لتأسيس موقع "شفاف الشرق الأوسط" الذي أصبح في منتصف عام 2006

يستقبل أكثر من خمسين ألف زائر يوميا. ينطلق الموقع من باريس ويستخدم اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، ويوفّرللأصوات الليبرالية في الشرق الأوسط مساحة للتعليق على الأخبار. يقول عقل عن مبادرته وعن بقية مشاريع الإعلام الجديد، "في العالم العربي، أكثر من الغرب بكثير، يمكننا أن نتحدث بحق عن ثورة المدونات... فبعض أفضل الكُتّاب لدينا يدفعون الأموال لقاء طباعة نحو 3000 نسخة من كتبهم لسوق تقدَّر بـ 150 مليون، وهو أمر يدعو للسخرية. وحتى عندما يكتب الناس فإنهم يواجَهون بالرقابة في كل خطوة."[42]

إن التعارض الجوهري بين حرية التعبير والحكومات القمعية يحدث في أماكن كثيرة عبر مختلف أنحاء العالم، ولا يقتصر على الشرق الأوسط، ولكنه في هذه المنطقة يمثل القاعدة وليس الاستثناء. (توجد الصحافة الأكثر حرية في إسرائيل، ولكن "نموذج إسرائيل" لا يُتوقع أن يكون ملهما للإصلاح العربي.) وعندما يحدث التغيير فإنه غالبا ما يتقدم خطوة إلى الأمام ويتراجع خطوتين إلى الوراء. وتقدم لنا سوريا عدة أمثلة عن صعوبة إحداث التغيير.

يقول الكاتب السوري أنور القاسم إن التلفزيون الحكومي السوري يبدو وكأنه يعمل بمبدإ "لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم." فعلى إثر اغتيال رفيق الحريري في بيروت، لم يكن التلفزيون الرسمي السوري صريحا بشأن اتهام مسؤولين سوريين بالتورط في عملية القتل، وقلل من أهمية المظاهرات الصاخبة المناهضة لسوريا والتي كانت تجري على الناحية الأخرى من الحدود داخل لبنان. ولم يكن لذلك النهج تقريبا أي أثر في قدرة الجمهور السوري على الحصول على المعلومات، فقد اكتفى الكثير من السوريين بالانتقال لمشاهدة الفضائيات اللبنانية التي كانت تعامل نظام الأسد بقسوة.

وفي مقابل ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هناك وجها آخر للإعلام السوري، وهو التلفزيون الترفيهي الذي حقق نجاحا كبيرا. فقد وفرت شركات الإنتاج الحكومية مرافقها للمنتجين الخواص مقابل حصولها على حقوق البث الأول لأعمالهم. وقد بدأ التخطيط لإنشاء مدينة إعلامية سورية قرب دمشق لتستقطب القنوات التلفزيونية الفضائية السورية ومحطات الإذاعة التي يملكها الخواص. كما بدأ التغيير على مستوى المظهر التلفزيوني. وانطلاقا من الوعي بحدة المنافسة مع القنوات

الأخـــرى على غرار الجزيرة، طُلب، بشكل صريح، من مذيعي التلفزيون السوري أن يحسنوا من مظهرهم. فوزن مقدم المذيع التلفزيوني لا ينبغي أن يتجاوز الرقمين الأخيريـــن من طوله(ا): إذا كان طول مذيع(ة) الأخبار يبلغ 160 سنتمترا، فينبغي ألاّ يزن أكثر من 60 كليوغراما.[43]

قـــد لا يكـــون لوجود مقدمي أخبار ذوي قوام رشيق أثر كبير في المحتوى، ولكـــن ذلك دليل على أن هناك في المؤسسة الإعلامية السورية من يعترف بوجود منافسة في سوق الإعلام. ومع ذلك، فإن الحكومة لم تقرر بعد كيف ستتعامل مع الانتـــرنت على المدى البعيد. فأحيانا تتسامح مع المواقع الالكترونية والمدونات التي تنتقدها، وأحيانا تقرر إغلاقها، مع أن محتوى الانترنت لا يتعرض إلى رقابة شديدة كمـــا هـــي الحال في عدد من البلدان الأخرى. ففي دمشق يمكن لمرتادي مقاهي الانتـــرنت أن يطلعـــوا على تقارير هيومن رايتس ووتش حول حقوق الإنسان في سوريا، وبإمكانهم العثور على تقارير إخبارية ومدونات تنتقد النظام. ويذكر "أيمن عـــبد الـــنور" أن عدد المشتركين في موقعه "كلنا شركاء في الوطن" (All4Syria) يبلغ ستة عشر ألفا. وكان عبد النور صديقا للرئيس بشار الأسد في صباه، ولذلك فهـــو يحظـــى بمعاملة لطيفة نسبيا، مع أن موقعه يتعرض بين الحين والآخر إلى المنع، فيضطر لتوزيع كتاباته عن طريق الرسائل الالكترونية.

هـــناك مدونـــون آخرون يلقون معاملة رسمية أقل تسامحا. وبعضهم تعرضوا للـــسجن على إثر نشرهم رسائل مؤيدة للديمقراطية. أما عمار عبد الحميد فقد فر إلى الـــولايات المتحدة حيث ينشر "مدونة للمنشقّين." ويرى عبد الحميد أن أهمية المـــدونات والوسائل الأخرى للإعلام الجديد لا تكمن في تشكيل حركة جماهيرية وإنمـــا في "الربط بين النخب بطريقة أفضل، وتوثيق العلاقات بينهم، وتمكينهم من تـــبادل المـــزيد من الأفكار، والتنظم أكثر." ويضيف أن المدوّنين في نهاية المطاف، "ســـيقيمون جسرا بين النخبة وجمهور الناس" وهو مسار بدأ فعلا بنشر معلومات حول المظاهرات، وممارسة الشرطة للعنف، وقضايا أخرى مشابهة.

***

يخـــتلف وضع الإعلام في المنطقة من بلد إلى آخر حسب السياسة المنتهجة على المـــدى البعيد وما تقتضيه الضرورة على المدى القريب. فقد حقق عراق ما بعد صدام،

مـــع كـــل الاضـــطرابات العنيفة التي يشهدها، تقدما ولو ضعيفا في مجال التدفق الحر للمعلومات باعتباره أحد ركائز الجهد المبذول لإقامة نظام شبه ديمقراطي. كانت إذاعة دجلـــة أول محطة مستقلة في العراق تبث برامجها على مدار الساعة من حي سكني في بغـــداد ويـــصل بـــثها إلى مدى تسعين ميلا. تقدم الإذاعة مزيجا من البرامج السياسية والدينـــية والرياضية، إلى جانب الخدمات العامة، والبرامج الترفيهية. ومع بدايات عام 2006، أصـــبحت المحطة تتلقى نحو ألف مكالمة هاتفية يوميا، حسب ما ذكره مديرها التنفـــيذي، كما أن موقعها الالكتروني سجل أكثر من مليون زيارة في الشهر، وهو ما مكـــنها من تحقيق موارد مالية مناسبة عبر الإعلانات. وفي حديثه عن نجاح المحطة، قال مؤســـسها، أحمد الركابي: "لقد أصبحنا بسرعة جزء من حياة الناس. فهي تظهر حاجة العـــراقيين العـــاديين الملحّـــة للتعبير عن أفراحهم وأتراحهم وتبادل تلك المشاعر فيما بيـــنهم... لقـــد بتـــنا المحطة رقم واحد في بغداد."[45] وفي عام 2007، هاجمت المحطة مجموعة مسلحة، يعتقد أنها تنتمي للقاعدة في العراق، وأضرمت فيها النار.

مـــن المحطـــات العراقية الأخرى التي حققت نجاحا مبكرا، إذاعة المحبة، التي تـــناقش قـــضايا النساء و لم تتردد في لعب دور المحامي نيابة عن تلك القضايا. وقد شجعت المحطة مستمعيها على العمل على أن تكون اهتمامات المرأة ممثلة جيدا أثناء صياغة دستور العراق الجديد. وأثناء إحدى المسيرات المناصرة لحقوق المرأة، أجرت مراســـلة إذاعـــة المحبة عددا من المقابلات، ثم وضعت الميكروفون جانبا وساعدت المشاركات في المسيرة على توزيع مناشير وعرائض.[46]

بالمقايـــيس الغـــربية، يعتـــبر ذلك السلوك تخطيا للحدود بين تغطية الأخبار وصناعتها. أما في عراق اليوم، فقد يكون تدخل الصحفيين عاملا ضروريا وصحيا في ســـياق بناء الأمة. قد ينسجم البقاء بعيدا عن تلك القضايا مع معايير الموضوعية التقلـــيدية، ولكن الوقوف بعيدا لا يبدو أنه قادر على اجتذاب جمهور ظل طويلا ممـــزقا بين حدّيْ الخوف والأمل. ورغم أن مستقبله، مثل مستقبل البلاد، يبقى غير واضـــح المعـــالم، فإن المشهد الإعلامي العراقي قد شهد تغيرا هائلا مقارنة بما كان عليه الأمر حين كان يتحكم فيه عدي حسين ابن صدام، القاتل.

وكما هو الشأن في بلدان أخرى في المنطقة، أثبتت الانترنت قيمتها باعتبارها وسيلة قادرة على توسيع مجال الخطاب العراقي حول الشؤون العامة. فبعد سقوط

صـــدام حـــسين فتحت مقاهي الانترنت أبوابها في مختلف أنحاء البلاد. وأصبحت مواقـــع الانترنت ذات الطبيعة الدينية والسياسية تجتذب جمهورا واسعا وتثير نقاشا على الصعيدين العام والخاص.[47]

كـــل ذلـــك يعتبر عاملا مشجعا، ولكن في سياق الكارثة التي تسمى العراق فقـــط. فلا الإذاعة، ولا الانترنت، ولا بقية وسائل الإعلام يمكنها أن تنقذ البلاد. وليـــست الـــتطورات المبكرة باتجاه خلق مجتمع إعلامي ذي قاعدة واسعة ونابض بالحـــياة إلا خطـــوات بسيطة في طريق طويل جدا. ومع ذلك، ودون وجود تلك المشاريع الإعلامية، فإن مستقبل العراق سيكون مظلما أكثر.

***

بعـــض أكثر التطورات الإعلامية دينامية في المنطقة حدثت على امتداد الخليج العربـــي (أو الفارسي). فالجزيرة والعربية وتلفزيون أبو ظبـــي وغيرها، تنطلق من هـــناك. وقـــد بـــات عدد من الحكومات في المنطقة يدرك أن أوضاعها السياسية والاقتـــصادية تستفيد أكثر عندما ينظر إليها العالم باعتبارها مراكز تقدمية للإعلام الجديـــد. ولا يعني ذلك بالتأكيد أن تلك الحكومات قد تبنت، دون تحفظ، خيار حرية التعبير الذي تمارسه المؤسسات الإعلامية التي تعمل على أرضها.

لقـــد فـــتحت دبـــي مدينتها الإعلامية سنة 2001 بعروض تشمل إعفاءات ضريبية وعدم التدخل في الشؤون التنظيمية إلى جانب حوافز أخرى. وقد نجح هذا الترحيب بأحضان مفتوحة في اجتذاب عدد من المحطات الإعلامية الإخبارية والمالية وغيرها من القنوات التلفزيونية إلى جانب المطبوعات. غير أن وسائل الإعلام المحلية وشـــبكة الانتـــرنت تخـــضع لقواعد أخرى. فوزارة الإعلام لديها مكتب مكلف بممارســـة الرقابة على ما يفد من الصحف والمجلات الأجنبية، وفلترة الانترنت من أجـــل منع المواقع المتعلقة بالإباحية والقمار وغيرها من المواضيع الممنوعة. وأحيانا تـــصل الرقابة إلى أبعد من ذلك، فتغلق مواقع تحيل إلى الخمر وسرطان الثدي. وفي عـــام 2005، أغلقـــت موقـــع نيو يورك تايمز لما يقرب من يوم كامل لأن بعض الكلمات التي وردت في الصحيفة رفضها جهاز الفلترة.[48]

إغـــلاق المواقع الالكترونية حدث أيضا في البحرين، حيث مُنعت المواقع التي تتـــضمّن تعلـــيقات تنتقد الحكومة سنة 2002. وقالت وزارة الإعلام إنها ستتخذ

إجـــراءات بـــشأن المواقع التي "تعمل على خلق التوترات في أوساط الناس وإثارة النعـــرات الطائفـــية." وتجـــد الحكومة صعوبات كبيرة في تحديد وجهات النظر والعبارات التي تتسبب في هذه المشاكل. وبما أنها لم تعد قادرة على التحكم بفاعلية في مجـــرى الـــنقاش كمـــا كانـــت تفعل حين كان الإعلام الوحيد يقتصر على المطـــبوعات والتلفـــزيون، فقـــد وجدت الأسرة الحاكمة في البحرين أن القنوات الفضائية والانترنت مصدرا للإزعاج. وتعرض عدد من الذين أطلقوا مواقع سياسية للـــسجن. ومـــن الأسباب التي تجعل العائلة المالكة تظل على أعصابها، أن أفرادها ســـنّيّون بينما نحو 70% من سكان البلاد شيعة. ويدرك المسؤولون البحرينيون أن الـــشيعة في بلادهـــم يـــشاهدون المنار، القناة التابعة لحزب الله اللبناني، وأصبحوا يـــتابعون بوتيرة متصاعدة القنوات العراقية أو الإقليمية التي تقدم تغطية مفصّلة عن العـــنف في العـــراق. وعندما ينقل التلفزيون أخبارا عن قتل الشيعة في العراق في هجمـــات إرهابـــية، يرد بعض الشيعة البحرينيين بارتداء السواد. وبما أن الحكومة تلاحظ سخط الشيعة في البحرين، فإنها تبقى متنبهة لأيّ تأثير إيراني يمكن للانترنت أن تساعد في توسيعه.[49]

الحـــذر من الانترنت حاضر أيضا بوضوح في أوساط العائلة المالكة في العربية الـــسعودية. فمـــن التعلـــيمات التي تعمل وفقها وحدة خدمات الانترنت التابعة للحكومة أن "المواقع الالكترونية التي تتضمن محتوى يتعارض مع التقاليد الإسلامية أو يخـــرق التـــراتيب الوطنـــية ينبغي أن تغلق."[50] ومن بين المحتوى الممنوع نجد الـــصفحات المتعلقة بالعربية السعودية في موقع منظمة العفو الدولية، وكذلك مقال الموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica) حول "المرأة في التاريخ الأمريكي"، ومجلة رولينغ ستون (Rolling Stone)، وتسجيلات وانر براذرز (Waner Brothers).

وصل التدوين إلى العربية السعودية متأخرا وشهد نموا بطيئا. وفي خريف عام 2006 أصـــبح هناك نحو ألفي مدون نشط، وهو ما يمثل ثلاثة أضعاف العدد عند بدايـــة العـــام. لم تظهـــر الترجمة العربية لكلمة (blogging) "تدوين"، والتي تعني تـــسجيل اليومـــيات، إلا سنة 2006.[51] وحتى هذا العدد القليل من المدونين أثار حفـــيظة الـــنظام الـــسعودي، وهـــو ما يعني فرضا أن "المجتمع الرسمي للمدونين الـــسعوديين" نـــشأ دون دعم حكومي، وإنما بنية واضحة في تجميد المدوّنين الذين

ينـــتقدون الوضـــع القـــائم. ويخطط القائمون على هذا "المجتمع" لتوجيه أصحاب الإعلانات إلى مواقع المدونات التي لا تمثل مصدر قلق للحكومة.

وعلـــى جبهة أخرى كان على المسؤولين السعوديين أن يتعاملوا مع الرسائل التي يبـــثها الإصـــلاحيون عـــبر قنوات التلفزيون والإذاعة. فقد استخدم المركز الحقوقي الـــسعودي، الـــذي يـــتخذ مـــن لندن مقرا له، الإذاعة والتلفزيون الفضائي لتشجيع المظاهـــرات في الـــرياض. وتـــتولى إذاعة الإصلاح الترويج للإصلاح في السعودية في نـــشراتها عبر الموجات القصيرة التي تبث من موقع مجهول (يُعتقد أنه في ليتوانيا)، وعبر الأقمار الاصطناعية للاستفادة من العدد الكبير من العائلات التي تستقبل البث الفضائي في العـــربية الـــسعودية. وبما أن أغلبية الجمهور تفضل أن تشاهد مادة بصرية ولو في حـــدها الأدنى بدلا من الاستماع إلى الإذاعة فقط، فقد ولد تلفزيون الإصلاح وليس علـــى شاشـــته غير شعاره ومعلومات نصية متحركة إلى جانب البث الإذاعي باعتباره مـــادة صوتية. وتقدم المحطة برامج تستجيب أكثر لحاجة الجمهور، بما في ذلك برنامج يستقبل المكالمات الهاتفية ويظهر فيه المحرك وراء هذا المشروع، سعد الفقيه، ليجيب عن رسائل المشاهدين التي تصله عبر البريد الالكتروني أو الفاكس، كما يردّ على المكالمات الهاتفـــية مـــن المتابعين الذين يستعملون خدمة الانترنت الهاتفية. (ليتمكنوا من تفادي الـــرقابة الحكومية). وينتقد الفقيه أمراء آل سعود بشكل مستمر، وقد نعتهم في إحدى المناسبات بـــ "لصوص ينبغي قطع رؤوسهم بدلا من المجرمين الصغار."

ويـــبدو أن الحكومة السعودية اتخذت إجراءات مضادة حيث وقع التشويش علـــى الموجة القصيرة وعلى إشارات التلفزيون، ومورست الضغوط على مزودي خدمة البث التلفزيوني في أوروبا من أجل إيقاف بث القناة. وفي شهر ديسمبر من عـــام 2004 أصـــبحت المحطة تبث على قمر اصطناعي جديد ما أبعدها أكثر عن الـــضغوط الاقتـــصادية. وفي خضم هذه التطورات نجحت المحطة في تحقيق نتائج محـــدودة ولكنها ذات بال في سياق ما تبذله من جهود لتشجيع المظاهرات المؤيدة لحقوق الإنسان داخل المملكة العربية السعودية.[52]

ودون الحكـــم علـــى قيمة المحتوى الذي تقدمه المحطة، فإن كفاحها من أجل البقاء يجسّد نوع المعركة التي يمكن أن نتوقعها حين تبدأ وسائل الإعلام الجديد في مناكفة حكومات لم تتعود على أن يتحداها أحد. وسيتواصل مسار الشد والجذب

بينما يحاول كل طرف أن يتعامل مع آخر مناورات الطرف الآخر التكنولوجية والسياسية. وعلى غرار الحالة السعودية، تساهم المؤسسات الإخبارية العربية التي تنطلق من خارج المنطقة سواء في المجال التلفزيوني أو الصحافة المطبوعة في إتاحة قدر أكبر من المعلومات لجمهور الشرق الأوسط.[53]

وكما لاحظ يوسف إبراهيم، "فقد علا ضجيج الحديث عن الديمقراطية بفضل القنوات الفضائية والانترنت والهواتف النقالة، ويعد ذلك تحديا جديدا أمام الأنظمة المستبدة التي تمارس القمع في صمت."[54]

قد يكون لهذا "الحديث عن الديمقراطية" بعض التأثير. فالبرنامج الإذاعي، مباشر أف أم، الذي يبث من جدة يستقبل مكالمات من متصلين يشتكون من الفساد، والتحرش الجنسي، وغياب محاسبة المسؤولين الحكوميين، وغير ذلك من القضايا المشابهة التي لم يكن ممكنا في السابق مناقشتها في العلن. ولكن الملك عبد الله نفسه هو الذي شجع مقدم البرنامج، سلامة آل زايد، لتسليط الضوء على مظاهر الفشل الحكومي. وللمحافظة على المباركة الملكية، يتحاشي زايد انتقاد المؤسسة الدينية ويمتدح دور العائلة المالكة. وحتى مع وجود هذه الأشكال من التضييق، ما زال البرنامج يعتبر أكثر "انفتاحا" مما تقدمه بقية وسائل الإعلام السعودية.[55]

***

في بعض البلدان الشرق أوسطية يحتدم الجدل بشأن الإعلام حينا ويخمد حينا آخر، أما في أنحاء أخرى من المنطقة فإن التوتر مستمر ويظهر ذلك في اختلاف المواقف من الإعلام. ويذكر الكاتب الفلسطيني رمزي بارود كيف أن عائلته كانت تستمع دائما لإذاعة بي بي سي الإخبارية. يقول بارود:

"تربط الفلسطينيين بالإعلام علاقة حب وكره. فمجرد العلم بأن اسم مخيمنا ذكر على موجات إحدى المحطات الإذاعية على بعد آلاف الأميال يعني، بطريقة ما، اعترافا بأن هناك من يهتم بمحنتنا، ولو قليلا... ولكن، حتى في حال تمت الإشارة إلى ذلك فنادرا ما تحيد الرواية عن النغمة المعتادة التي تعتبر المحتلين الإسرائيليين المصدر النهائي للمعلومات، والسلطة الأولى عن رواية ما حدث في الواقع. وإلى حد الآن لا يزال الحال على ما هو عليه. فما يعترف به الجيش الإسرائيلي يصبح حقيقة، وروايته هي الرواية الموثوقة؛ وما ينكره، يصبح ببساطة كأنه لم يحدث مطلقا. وفي أحسن الحالات، يعتبر مجرد ادعاء فلسطيني لا دليل عليه."

ما يطرحه بارود حول هيمنة وجهة النظر الإسرائيلية قابل للنقاش، رغم أنه لم يعد سرا أن العلاقات العامة تحتل موقعا أساسيا في السياسة الخارجية الإسرائيلية، التي تستخدم طواقم صحفية مدربة في كل سفاراتها، وحتى الجنود يتم تدريبهم على كيفية التعامل مع الكاميرا. أما الفلسطينيون فقد كانت حركتهم بطيئة ودون القدرة على مواكبة هذا الجهد، رغم أن حماس حين قررت ترشيح عناصرها لخوض الانتخابات التشريعية سنة 2005، أعلنت عن ذلك باللغة الإنجليزية. ويذكر بارود زيادة استخدام الرسائل الالكترونية والمدونات لتقديم الرواية الفلسطينية للأحداث.[56]

إن شعور الفلسطينيين وغيرهم بأن ثمة حاجة إلى تقديم "رؤيتهم للأحداث" من الأسباب الرئيسة وراء الشعبية الواسعة التي تحظى بها الجزيرة وبعض وسائل الإعلام المحلية الأخرى. وقد ساهم ذلك أيضا في الانتشار الواسع لإحدى أكثر وسائل الإعلام إثارة للجدل في الشرق الأوسط، ألا وهي المنار.

فمع انطلاق إشارة البث الأولى لقناة المنار سنة 1991، أصبح لحزب الله وشيعة لبنان تواصل مع العالم الأوسع، وأصبح هناك صوت يعكس دعواهم بأنهم ضحايا، بدرجة أولى لإسرائيل. تدعي المنار بكونها "المرآة الحقيقية لما يفكر فيه ويعتقده كل عربي ومسلم." وتقول إنها "تتجنب الإثارة الرخيصة"، وهو ما يخالفها فيه منتقدوها. فقد كتب دنيس روس (Dennis Ross) أن المنار "تنشر الكراهية وروح الصراع المستمر في أوساط المجتمع، وترفض مفهوم السلام بين العرب والإسرائيليين."[57]

القناة يموّلها جزئيا ويتحكم فيها حزب الله، (وبالتالي، إيران كما يرى بعض الملاحظين). وعلى غرار الجزيرة، سجلت المنار بصمتها من خلال تغطيتها لانتفاضة عام 2000. فقد كان لها مراسلون ميدانيون، وكانت منحازة للفلسطينيين بشكل واضح، وهو انحياز ترحب به الأغلبية من جمهورها. وبعد الانتفاضة، أصبح بث المنار الفضائي يصل إلى عدد أكبر من المشاهدين، واستمرت القناة في تطوير "ثقافة المقاومة" للوجود الإسرائيلي والغربي في العالم الإسلامي. وفي عام 2004 صنفت الحكومة الأمريكية المنار على أنها منظمة إرهابية، وبعد سنتين منعت الشركات الأمريكية من التعامل التجاري معها. ومع ذلك، واصلت المنار توسيع دائرة جمهورها عبر موقعها الالكتروني، وبثها الحي عبر الانترنت، ومن خلال توزيع

برامجها على أقراص سي دي (CD) ودي في دي (DVD). وبشكل عام، فإن المنار تمجد "الشهداء" الفلسطينيين واللبنانيين في حين تهاجم "الكيان الصهيوني" في إسرائيل.[58]

وعندما اندلعت الحرب بين إسرائيل وحزب الله في يوليو/تموز 2006، كان مقر المنار في إحدى ضواحي بيروت هدفا مبكرا للقصف الإسرائيلي. فقد دُمّر المبنى ولكن بث القناة انطلق من جديد في دقائق معدودة، ليقدم مزيجا من التقارير، والتهليل لحزب الله، والدعاية التي تشهّر بإسرائيل والولايات المتحدة. وكانت المنار على الدوام جاهزة لتفتح المجال لخطب قائد حزب الله، حسن نصر الله، عن الحرب.

من السهل أن نرفض المحتوى الذي تقدمه المنار بدعوى كونه كراهية ودعاية، ولكن من الخطأ أن نستهين بتأثيرها وبإمكانية تحولها إلى نموذج لوسائل الإعلام التي تخدم مليشيات ومجموعات مسلّحة أخرى. لقد كانت المنار عاملا هاما في تحويل نصر الله إلى بطل في أعين الكثيرين من أبناء المنطقة، وقد شجع تقديمها لنصر الله بتلك الصورة الشيعة على أن يؤكدوا أكثر على حضورهم في البلدان التي يشكلون فيها أقلية. وبعد ما حقق حزب الله نجاحا نسبيا ضد إسرائيل في صيف 2006، أصبح دور المنار أكثر أهمية، خاصة في خدمة مصالح إيران وسوريا إلى جانب حزب الله ذاته.

يبين تاريخ المنار في الفترة الأخيرة كيف يمكن للإعلام أن يُستخدم سلاحا. فقد ساعدت المحطة في المجهود الحربي لحزب الله، واستهدفتها إسرائيل باعتبارها قوة شبه قتالية. ويعد هذا جزءًا من توجه أوسع للمؤسسات الإخبارية وللصحفيين باعتبارهم أفرادا، وفاعلين سياسيين، أو هكذا يُنظر إليهم على الأقل، وهو ما نتج عنه استهدافهم بأعمال سياسية وأحيانا عسكرية. وقد صُنفت الجزيرة بهذه الطريقة في مناسبات عديدة. ووقع انتقادها بدعوى أنها تخدم مصالح القاعدة، ولكن تلك الملاحظات تُعتبر تافهة لا سيما إذا قارنّا بين محتوى قناتي الجزيرة والمنار. وكما شاهدنا أثناء الحرب مع إسرائيل، فقد أصبحت البرامج العادية لمحطة حزب الله ثانوية بينما تحوّل بثها إلى وسيلة للتحريض والتحييش.

ينبغي أن يكون حماسنا لمجيء وسائل الإعلام الجديد متزنا، وأن نعترف بأنه إذا استغلت إحدى المؤسسات الإعلامية تأثيرها بشكل سلبي، فإن ذلك قد

يكـــون مصدرا لشرور كثيرة. وأحد الأمثلة الصارخة على ذلك البث التحريضي لإذاعة رواندا "ميل كولينـــز"، التي حثّت سنة 1994 الهوتو على مهاجمة التوتسي (الـــصراصير) ومـــلء أنهار البلاد بجثث قتلاهم.[59] وحين نتأمل الدور المستقبلي لوسائل الإعلام الجديد في أي مكان من العالم، علينا أن نتذكر دائما تلك الواقعة. لاشـــك أن هـــناك في الأفق إيجابيات كثيرة، ولكن لا ينبغي أن نتجاهل الأخطار المحتملة من سوء استخدام سلطة الإعلام.

ما الذي ينتظرنا في المستقبل؟

حـــتى في حال اقتربنا من تحقيق التكافؤ التكنولوجي وتقدم العرب خطوات باتجـــاه المستويات العالمية في استخدام الإعلام الجديد، ينبغي أن نكون حذرين جدا في التفاؤل بإمكانية حدوث إصلاح يلعب فيه الإعلام دورا رياديا. وكما أشار إلى ذلـــك جون ألترمان، فإن أغلب النقاش الذي نراه على شاشات الفضائيات العربية "لا يزال إلى حد كبير متركزا حول المشهد وليس حول المشاركة."

اتـــساع المـــشاركة يمكـــن أن نلاحظه بدرجة أولى في الجانب الديني وليس الـــسياسي الخـــالص، لا سيما مع ما تمثله برامج التلفزيون الإسلامية مثل تلك التي يقـــدمها الداعـــية عمـــرو خالد من قوة دفع. كتب ألترمان يقول، "عبر تنظيمه لفعاليات ضخمة بأسلوب إحيائي في مصر، ومن خلال استخدامه المتزايد للقنوات الفـــضائية التي تبث برامجها في كامل منطقة الشرق الأوسط، تمكن خالد من خلق مجـــتمع ليس من المشاهدين فقط وإنما أيضا من المشاركين. إن أتباعه يفعلون أكثر مـــن مجـــرد كتابة الرسائل إليه أو الاتصال هاتفيا ببرامجه. إن جمهوره الذي يتخذ بالتدريج بعدا عالميا يشارك في الأعمال الخيرية وينظم المجموعات الدراسية ويبحث في كيفية تطبيق دروسه الخاصة في حياته اليومية."[60]

إنـــه يفـــضل ارتداء البدلات الأوروبية والقمصان الحديثة على ثياب رجال الدين، ويعتمد المصطلحات الغربية، مثل حديثه عن الإسلام و"تمكين المرأة" ووصفه لمحمـــد بـــ "أول مدير." ولد خالد في مصر وهو يعيش الآن في إنجلترا وقد نجح في اجـــتذاب دائرة واسعة جدا من الأتباع من خلال أطروحاته حول قدرة الإسلام على الازدهـــار في العالم المعاصر. ويشكل الجيل الثاني من المسلمين الأوروبيين جزءاً معتبرا

مـــن جمهوره. وتصل برامجه على قناة "اقرأ"، المحطة الفضائية التي تملكها السعودية، إلى ملايين المشاهدين الدائمين. ويصنف موقعه الالكتروني (www.amrkhaled.net)، الذي سجل 26 مليون زيارة في سنة 2005، ثالث أكثر المواقع العربية شعبية (بعد الجزيرة وبوابة للرسائل الالكترونية) وهو مترجم إلى ثماني عشرة لغة.

يقـــول خالـــد للنساء إن عليهن أن يرتدين الحجاب، ولكن – خلافا لزميله الداعية التلفزيوني يوسف القرضاوي – لا يقدم غالبا آراء حول مسائل من قبيل ما إذا كـــان علـــى الـــناس أن ينضموا إلى المقاومة الفلسطينية أو العراقية. فمشروعه الأساسي يتمثل في إحداث إحياء عربـــي وإسلامي من خلال زيادة نسبة التمدرس والانخـــراط العملي في أوساط المجتمع. وعندما يخاطب المسلمين الأوروبيين، يركز علـــى أهمية التعايش – بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون في المملكة المتحدة، يقترح دعـــم فـــريق كـــرة قدم بريطاني بدلا من باكستاني، أما بالنسبة إلى أولئك الذين يعيـــشون في فرنـــسا فيقترح ممارسة الضغط من أجل حصول الفتيات على حقهن القانـــوني في ارتداء الحجاب في المدارس، وفي الأثناء يمكنهن الاكتفاء ببعض الزينة مع وضع قبعات خاصة.[61]

يجـــسد نموذج خالد التأثير متعدد الأبعاد والأوجه للإعلام الجديد. وإذا كان بإمكـــان وسيط ما أن يعزز جهود التغيير فينبغي أن لا يكون سياسيا بشكل سافر، وإنمـــا يُـــستخدم بطـــريقة مـــبدعة مع الانتباه إلى علاقته بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية الأخرى.

ومع ذلك، فالاعتدال له منتقدوه. فالقرضاوي يرى أن منهج خالد التصالحي أثـــناء الجـــدل الذي أثارته الرسوم الكرتونية، كان علامة ضعف، ويقول الداعية الكـــبير إن خالـــد "لا يحمـــل أية صفة تخول له ممارسة الوعظ. فهوخريج مدرسة أعمـــال، تشكلت معرفته من خلال القراءة، وانطلق في ممارسة الدعوة عن طريق التحاور مع أصدقائه حول مسائل لا علاقة لها بفكر محدد أو إصدار حكم معين." وتلاحظ لندزي وايز (Lindsay Wise)، "كلما حقق خالد انتشارا أوسع في الغرب وفي أمـــريكا كلمـــا اجتهد أكثر للتحدث بلغة ترضي الجميع، وهو ما يضعه أكثر أمـــام خطر فقدان المصداقية لدى جمهوره من العرب والمسلمين. وهذا أحد الألغاز المعـــتادة لـــدى الـــسياسيين ودعـــاة الإصلاح من ذوي التوجه الليبرالي في العالم

العربـــــي – خطـــاب الحـــوار والمصالحة يمكن أن يكون قبوله عسيرا في أوقات الغضب والصراع."[62]

لقد أثر تزايد المشاركة القائمة على الإعلام في قضايا المرأة أيضا. فمنذ وقت طـــويل كـــان العديـــد من وسائل الإعلام العربية يتعامل مع تلك القضايا بشكل مقتـــضب، هـــذا إن حـــصل ذلك أصلا، أما الآن فإن تلك القضايا تحظى بجاذبية متـــزايدة، وذلـــك نسبيا بفضل الإعلام الجديد. وتقدم لنا قناة "هي" الفضائية التي تبث من لبنان، مثالا جيدا على ذلك، فقد كان جمهورها في أوائل عام 2005 يقدر بـــنحو 1,5 مشاهد يوميا. وتقدم القناة لمشاهديها مزيجا من الأخبار، والحوارات، والبرامج الترفيهية. وتشكل النساء حوالي 70% من مجموع موظفيها ولها مراسلون ينقلون الأحداث من مختلف أنحاء العالم العربـــي. يقول مؤسس القناة، نيكولا أبو ســـامح، إن هدف القناة هو "تمكين المرأة. نريد مساءلة المحرمات، وإثارة الجدل." ومن بين ما تقدمه المحطة برنامج "المكشوف"، وهو برنامج حواري يتناول مواضيعَ مـــثل العنف الأسري والتمييز في مواقع العمل. وتقدم أيضا برنامجا إخباريا بعنوان "من يوم إلى يوم"، يتناول أخبارا ذات علاقة بالنساء من مختلف أنحاء العالم. ويشير أبـــو ســـامح إلى أن المحطة تمارس عملها بحذر لتفادي الرقابة. فالقيادات السياسية والسلط الدينية لا تتعرض للنقد في برامج "هي".[63]

إلى جانـــب العناية المتزايدة بقضايا المرأة، أصبحت السياسة الانتخابية تحظى بتغطـــية أوســـع وأكثـــر حرية. فخلال تغطيتها للانتخابات العراقية سنة 2005، كشفت محطات التلفزيون الشرق أوسطية عن طموحاتها وأبانت عن قوة تجهيزاتها الفنية. فالعربية كانت تستخدم ثماني عربات بث فضائي من مختلف مناطق العراق، كمـــا استخدمت روابط الفيديوفون والنقل الحي من البلدان المجاورة. ومن جهتها، قدمت الجزيرة كذلك تغطية مكثفة، رغم منعها من البث من داخل العراق (وهذا مثال آخر على العراقيل السياسية التي تستمر في إعاقة تدفق المعلومات).[64]

***

تتجلى من بين الأحداث المتسارعة والتحولات التي تعرفها ديناميات السياسة الدولـــية والمحلـــية، ملامح منطقة هي بالتأكيد في حالة تحول – غالبا بطريقة هادئة وبخطـــوات بطيـــئة، ولكـــنها تتجه قدما. وإذا نظرنا إليها باعتبارها المنطقة "التي

حـــصلت فيها الأمور بطريقة خاطئة جدا"، على حد تعبير برنارد لويس[65]، فإن هـــذه الـــتحولات بإمكانهـــا أن تساعد أولئك الذين يعيشون هناك عبر الحد من التوترات وتقريب العالم العربـــي من بقية مكونات المجتمع الدولي.

وستـــصبح وسائل الإعلام الإخبارية – بجمهورها الآخذ في الاتساع بفضل التكنولوجـــيات الجديـــدة – مـــن بين أهم اللاعبين الذين سيحددون مصير هذه العملـــية. ويؤكد غادي وولفسفلد (Gadi Wolfsfeld) "أن على الصحفيين واجبا أخلاقيا لتشجيع المصالحة بين الشعوب التي تشقها العداوات" وذلك بتوفير أكثر ما يمكـــن من المعلومات حول جذور المشكلات، وتشجيع الحوار العقلاني العام حول الخيارات الممكنة لحل تلك المشكلات.[66]

فالديمقراطية يمكن منعها أو إعاقتها من جهات داخل الحكم وخارجه. وكما لاحـــظ معـــدّو تقرير التنمية البشرية العربية سنة 2004، "في البلدان العربية اليوم، يبدو أن هناك تناقضا بين الحرية والديمقراطية لأن الكثير من المؤسسات الديمقراطية القائمـــة وقـــع تجـــريدها من أهدافها الأصلية المتمثلة في دعم الحرية في مفهومها الـــشامل... هناك بعض وسائل الإعلام لا تعدو كونها أبواق دعاية حكومية. فهي تـــروج لحـــرية التعـــبير ولكـــن بشرط أن لا تتحول إلى نشاط سياسي. إن تلك المؤســـسات الأســـيرة لا يمكنها أن تثير نقاشا ذكيا وموضوعيا، وتعزز اكتساب المعرفة، وترتقي بالتنمية الإنسانية بين الجمهور العريض."[67] وما لم يساهم الإعلام الجديـــد في إدارة حـــوار بناء والارتقاء بمستوى المعرفة، ستظل إمكانات التحول الديمقراطي ضعيفة. وحتى يكون لتلك الإسهامات معنى، فإن على جميع المنخرطين في العملـــية الإعلامية – من المدوّنين الأفراد إلى المؤسسات الإعلامية الكبرى – أن يحافظـــوا علـــى اســـتقلاليتهم. فالضغوط الحكومية لا مناص منها، ولكن ينبغي مقاومتها إذا كان لا بد للمسار الديمقراطي أن يجد موطئ قدم.

الجانب الاقتصادي يمثل عاملا آخر من عوامل حرية الإعلام. فكما لاحظت جنيفـــر وينـــزور (Jennifer Windsor) وبراين كاتوليس (Brian Katulis) "من مظاهـــر التـــضييق على حرية التعبير والتي غالبا ما يتم تجاهلها، غياب الاستقلال الاقتـــصادي والقدرة على الاستمرار. عمليا، لا توجد مؤسسة إعلامية واحدة في المـــنطقة تغطي تكاليفها التشغيلية بما في ذلك الكثير من المحطات الفضائية الإقليمية

الـــبارزة. وأغلـــب المؤسسات الإعلامية إما تملكها الحكومات وتتحكم فيها، وإما تعتمد بشكل أساسي على دعم مجموعات صغيرة من المالكين أو الحكومات."[68]

وبيـــنما تظـــل المشاغل اليومية، مثل بناء قاعدة مالية آمنة، تتسبب لشركات الإعـــلام الشرق أوسطية في فقدان الاستقرار، تبقى المشاكل الأكبر – مثل كيف ندافـــع عن قضية الديمقراطية – تلوح في سماء المنطقة. يرى "جيل كيبل" أن حادثة "أبو غريب" والفضائح الشبيهة بها لطخت صورة الديمقراطيات الغربية بشكل كبير إلى الحـــد الـــذي بات معه لفظ "الديمقراطية" مقترنا بصفة "الغربية" يحمل مدلولا سلبيا بالنسبة إلى شريحة واسعة من مثقفي الطبقة الوسطى من المسلمين – رغم أن تلـــك الطـــبقة هـــي التي كانت المستفيد المحتمل من التحول الديمقراطي. فاللفظ العربـــــي "دمقر طة"، الذي يعني العملية الديمقراطية، كثيرا ما يُستخدم في سياق قدحي للإشارة إلى تغيير مفروض من الخارج."[69]

وعندما تصبح العملية الديمقراطية ذاتها مشبوهة، تصبح احتمالات أي إصلاح سياســـي حقيقي في خطر. ونادرا ما نجد إجابة دقيقة عن العدد الكبير من الأسئلة المـــتعلقة بمثل هذه القضايا المعقدة. فالأدوات الجديدة متوفرة، أما هل توجد أعداد كبيرة من الناس ترغب في استخدامها فعلا، فذلك سؤال يظل يبحث عن جواب. ولـــيس من السهل أن نحدد بدقة دور الإعلام الجديد في التغيير السياسي التقدمي، لأن القسم الأكبر من الطريق نحو التحول الديمقراطي، سواء في الشرق الأوسط أو في غـــيره، يبقى مجهولا. ولا أحد يعلم على وجه الدقة في أي اتجاه ستكون الخطوة القادمـــة، وأولئك الذين يسيرون في الاتجاه العام للإصلاح إنما يفعلون ذلك بدافع الإيمان أكثر من دافع اليقين.

- 8 -

ماذا يعني كل ذلك

إن الترابط الذي يحدثه الإعلام الجديد بدأ، بدرجات متفاوتة عبر مختلف أنحاء العالم، يحل محل الترابط السياسي التقليدي الذي منح السياسة الدولية هويتها وبنيتها. وتشهد إعادة تشبيك النظام العصبي للعالم تقدما بسرعة لافتة، كما يستمر نطاقها في الاتساع أكثر من ذي قبل. فهي تغير من طريقة تفاعل الدول والمواطنين بعضهم مع بعض، وتمنح الفرد فرصة ليتمتع بنوع جديد من الاستقلالية، على الأقل على الصعيد الفكري، بفضل ما تتيحه له من كم أكبر من المعلومات.

وهذا هو تأثير الجزيرة. فالقناة الفضائية العربية ذاتها ليست إلا اللاعب الأبرز في خضم عالم واسع من مزودي المعلومات والاتصالات الجديدة، التي تغير نمط العلاقة بين الحكام والمحكومين. كما تقدم الدعم أيضا لأولئك الذين لم يتمكنوا في السابق من تحقيق برامجهم السياسية. فالأثر الذي تركه مجيء التلفزيون قبل نحو نصف قرن يعتبر ضئيلا مقارنة بتأثير الإعلام الجديد في الحياة السياسية العالمية اليوم.

يتعاطى الفاعلون السياسيون مع هذا الأمر بطرق مختلفة. فالبعض أدركوا بسرعة كيف تتعزز السلطة وكيف يمكن دعمها بالإعلام الجديد. ونجد في استخدام مرشحي حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية سنة 2008 للانترنت، تجسيدا لذلك على مستوى معين. أما على نطاق أوسع، فنجد الانتشار المتسارع للمدونات والمواقع الالكترونية التي يستخدمها الناشطون السياسيون في بلدان كثيرة وقد أصبح بإمكانهم الآن نشر المعلومات وحشد الأنصار، وفي مناسبات عديدة يتم استخدامها ضد المعارضة – وأحيانا بعنف – وقد يتم ذلك من داخل المؤسسة السياسية الرسمية.

فطبع كمية قليلة من المناشير في مطبعة تحت الأرض ثم توزيعها في الشوارع حل محله نشر منتج الكتروني بإمكان ملايين الناس أن يطلعوا عليه في غضون

لحظات. وقد كانت الحكومات تشعر بالثقة لكون أولئك الذين يوزعون المواد في زوايا الشوارع يمكن تتبعهم أو إيقافهم بسهولة بالغة، وبالتالي يمكن الحد من تأثيرهم. أما أولئك الذين يستخدمون أدوات الإعلام الجديد فمن الصعب جدا التعامل معهم. ففي الصين، كما في بلدان عديدة أخرى، يعتبر سيل الإعلام الجديد ديمقراطيا بطبيعته، ولا يمكن للحكومات مهما بذلت من جهود أن توقفه.

إنه تقدم ذو طبيعة تغييرية. فقد دشنت القنوات الفضائية مرحلة جديدة من التنوع السياسي، حيث أصبح بإمكان أنماط مختلفة من الخطاب أن تصل إلى جماهير عريضة. أما الانترنت فتمارس تأثيرا أكبر لكونها أداة شعبية بحق – فالوصول إليها سهل، وكلفتها ليست عالية، وانتشارها واسع جدا. ويمكن لأي كان تقريبا أن يستخدمها سواء للدعوة أو التجنيد أو التعبئة، أو غير ذلك. أما إن كان هنالك من يعير لذلك اهتماما أم لا، فتلك مسألة أخرى. ومع ذلك، يمكن اعتبار هذا الجانب خاصية إيجابية، بمعنى أن المنافسة على الجمهور ينبغي أن تدفع إلى المزيد من الخلق والإبداع الالكتروني لتصل الرسالة إلى مستوى التميز في هذا السوق الافتراضي المزدحم. وهكذا يمكن الاعتناء بعناصر الديمقراطية.

ينبغي النظر إلى الانتشار الواسع للمعلومات باعتباره أمرا جيدا، مع وجود بعض الجوانب السلبية. فـ "المعلومة" والحقيقة ليستا متطابقتين باالضرورة، وقد سبق أن أثبتت الانترنت أنها مختبر مهيّأ لعمليات الغش والخداع، وغيرها من الأعمال التي تتراوح بين الاحتيال الذي يستهدف الحسابات البنكية الفردية، والجدل المليء بالكراهية الموجه لعدد واسع من الجماهير. إن سرعة الإعلام الجديد واتساع نطاقه أمر رائع حين تكون هناك حاجة إلى تحذير الناس من اقتراب إعصار أو ما شابه ذلك، غير أن هذه المزايا يمكن أن تكون ضارة حين تُقدم الإشاعات المغرضة على أنها "أخبار" الساعة.

فالقيادات السياسية والمنظمات المرتبطة بها، سواء أكانت مبدئية أم غير مبدئية، تجد نفسها اليوم في مواجهة بيئة إعلامية وسياسية وقد اندمجت بدرجة غير مسبوقة. وإلى حد الآن لم يتقن التعامل مع هذه البيئة غير قليل من الأفراد والمجموعات، وقد كشف بعضهم عن مهارات في استخدام جوانب منها لمصلحتهم. وعدد من هؤلاء هم ناطقون باسم القاعدة وأمثالها. ولكن على الجانب

الآخـــر، هناك رجال ونساء يحاولون استخدام هذه الوسائل الإعلامية لجعل العالم أكثر إنسانية.

قصص ينبغي أن تُروى

مـــا وراء عـــالم النشطاء من ذوي القدرات العالية، الذين يحسنون استخدام وســـائل الاتـــصال، ثمة أماكن غير مرئية بالنسبة إلى الكثيرين، حيث يغيب النقاش حـــول النظم السياسية والقضايا المعقدة. كل ما يهم في تلك الأماكن هو شروط البقاء في حدودها الدنيا: العثور على الماء، والعناية الطبية، والأمان من العنف. تلك أمـــاكن مـــرعبة، الأمل فيها عادة ما يكون وهما كاذبا. ولا يمكن لوسائل الإعلام الجديد أن تحل تلك المشاكل، ولكن قد يكون بإمكانها المساعدة في حلها.

أولا، علـــى العالم أن يستيقظ. فالطلب على الإعلام الجديد جاء نتيجة فشل الـــصحافة التقلـــيدية في تـــسخير موارد كافية لنقل أحداث مثل حرب الإبادة في السودان. فحسب تحليل لنشرات الأخبار التلفزيونية أعده صندوق العمل التقدمي الأمريكـــي في ســـنة 2004، تبين أن تغطية شبكات أي بـــي سي (ABC) وسي بـــي أس (CBS) وأن بـــي سي (NBC) لصراع دارفور لم تتجاوز 26 دقيقة من نـــشراتها المـــسائية الرئيسة. وعلى سبيل المقارنة، حظيت المشاكل القانونية لمارثا ســـتيوارت (Martha Stewart) بـــــ 130 دقيقة من التغطية. وفي يونيو/حزيران 2005 خصصت الشبكات الثلاث الكبرى ما مجموعه 15 دقيقة لعمليات الإبادة في دارفـــور، بينما منحت 1,608 دقيقة من التقارير حول محاكمة مايكل جاكسون. ومـــن جهتها، خصصت سي أن أن، التي يفترض أنها قناة إخبارية جادة، 47 دقيقة في ذلك الشهر لتغطية أحداث دارفور مقابل 878 دقيقة لمايكل جاكسون.[1] وقد أشار نيكولاس كريستوف (Nicholas Kristof) إلى ذلك في نيو يورك تايمز حين قال إن بـــي بـــي سي تفوقت في أدائها على الشبكات الأمريكية. ولم يكن ذلك مفاجـــئا، غير أن كريستوف لاحظ أيضا تفوق قناة أم تي في يو (MtvU)، القناة التابعة لأم تي في والموجهة لجمهور طلبة الثانوية.[2]

يمثل محتوى موقع أم تي في يو (mtvu.com) نموذجا لما يمكن أن تقدمه مصادر المعلـــومات الالكترونية، كما يبين محدودية تلك المصادر. فالموقع يقدم مادة عامة

أساسية ويوفر روابط لمزودين آخرين مثل موقع منظمة العفو الدولية الذي يعرض صورا التقطت بالأقمار الاصطناعية لما حدث في عدد من القرى السودانية أثناء القتال. ويقدم الموقع أيضا رابطا للعبة فيديو تسمَّى "دارفور تموت" حيث يجب على اللاعبين أن "يحافظوا على مخيم اللاجئين الذي يقع تحت مسؤوليتهم في حالة الانشغال في مواجهة أي هجوم محتمل من مليشيات الجنجويد." وتتضمن اللعبة مهمات من قبيل البحث عن الماء ومحاولة تفادي القوات المعادية.

وبالنسبة إلى أولئك الذين لديهم اهتمام قليل بالأخبار التقليدية، يمكن أن يكون لهذه المقاربة قيمة معينة، فهي تخلق حدا أدنى من الوعي بما يجري في السودان. ولكن، رغم تلك المنتجات الالكترونية التجديدية التي تلفت الانتباه إلى الصراع، لا يبدو أن هناك مؤشرات حقيقية على أنها تؤثر في مجرى السياسات. إنه لأمر جيد أن يسعى الإعلام الجديد إلى التحفيز على العمل، ولكن في هذه الحالة، كما هو الشأن مع أغلب الحالات الأخرى، ليس من الواقعية أن نتوقع منه إحداث انقلاب تام في أيّ وضع من الأوضاع.

ورغم أن تغطيتها لم تكن كافية، فإن الحرب في دارفور تجتذب اهتماما أكبر من أحداث أخرى تنافسها من حيث الأهمية. فالأمم المتحدة وأطباء بلا حدود يعدان كل سنة لوائح بالقضايا التي، كما تقول الأمم المتحدة، "ينبغي على العالم أن يسمع عنها أكثر." فمن هايتي إلى كونغو وسري لانكا، تؤكد تلك اللوائح على الفجوات في أغلب التغطيات الإخبارية، وربما تثير الاهتمام بالقضايا التي لا تحظى بما يكفي من التغطية لا سيما حيث يسود الرعب والبؤس. ومن جهتها تستخدم المنظمات الإنسانية مواقعها لإلقاء الضوء على تلك الحالات، ولكن بصرف النظر عن بلاغة تقاريرها وقدرتها على نقل المعاناة، ليس هناك ما يثبت أن تلك المنظمات تحقق أكثر من تحريك بعض الضمائر والحصول على بعض المساعدات المالية. كل ذلك أمر محمود، ولكن على المستوى العملي، لا يمثل الكم الهائل من المعلومات التي يمكن أن توفرها تلك المواقع الالكترونية إلا نسبة ضئيلة من التأثير الذي يمارسه تقرير يدوم دقيقتين على شاشة أن بي سي.

في الوقت الراهن على الأقل، يمكن للتغيير الحاصل في عادات جمع المعلومات أن يزيد من أهمية التحذيرات الالكترونية بشأن الأزمات الدولية. ونظرا لارتفاع

عدد الذين يعتمدون اعتمادا كبيرا على الانترنت بدلا من القوالب التقليدية للخبر، فـــإن بنية التأثير ستتغير هي الأخرى. وسيحتاج ذلك إلى بعض الوقت، فالاعتماد علـــى اللاعبين الذين ظلوا يهيمنون على الساحة لوقت يستمر في الانحسار (بدليل تقلص توزيع الصحف وتراجع عدد مشاهدي النشرات الإخبارية)، وبعض مواقع الانتـــرنت، التي لم يعد عددها يحصى تقريبا، تشهد ارتفاعا هائلا في عدد الجمهور وفي قـــوة ولائـــه. وبإمكان شبكات تبادل المعلومات، مثل يوتيوب وتكنوراتي أن تقود الزوار إلى مواقع أقل انتشارا، على غرار ما يمكن أن يقوم به مزودو المعلومات الجـــدد والتقلـــيديون الذين يتمتعون بجمهور واسع. وسيتواصل هذا التكامل بين الإعلام القديم والجديد إلى ما لا نهاية.

وســـط هذا التوسع في دائرة "الأخبار الجديرة بالنشر" الذي تقوده التكنولوجيا، تبرز بعض الحقائق الصحفية. فبعض الأخبار يجب أن تحظى بالتغطية ومن ثم تدخل عنوة إلى مجال الرؤية العامة. ومنذ وقت طويل كتب ليروي سيفرز (Leroy Sievers) المنتج المنفذ لبرنامج "نايت لاين" (Nightline) حول تغطية حرب الإبادة في رواندا ســـنة 1994: "هل كانت تلك قصة تستحق الرواية؟ بالتأكيد. هل استمع إليها العالم؟ لا أعلـــم. أخشى أن يكون الناس قد اكتفوا بتغيير القناة، وأن الصور كانت مؤلمة للغاية." وأضاف سيفرز أنه بعد بضع سنوات، تحدث إيلي ويزل (Elie Wiesel) إلى طاقم نايت لاين. "قال إن دور الصحفي يتمثل في الحديث نيابة عن أولئك الذين لا صـــوت لهم. وكذلك كان الأمر. ذلك ما كنا نحاول فعله. ذلك ما كان يجب عليـــنا أن نفعله. هناك، وبعد رواندا – لأنه كان هناك خط فاصل، ما قبل رواندا ومـــا بعـــدها – وفي كل مكان في العالم حيث كان الإنسان يمارس أسوأ ما كان قادرا على فعله."[3]

رغم الجهود البطولية والنيات الحسنة لبعض الصحفيين والمؤسسات الإخبارية، كانـــت تغطـــية الإبـــادة في روانـــدا محدودة جدا ومتأخرة جدا، مثلما كان الرد العـــسكري والسياسي من المجتمع الدولي. ففي الوقت الذي وصلت فيه مؤسسات إخـــبارية كبرى إلى رواندا مثل نايت لاين أي بـــي سي، كان الأسوأ قد حصل. وبعـــد عقد من الزمن، في دارفور، نجد أن الإعلام بمختلف أشكاله غير حاضر في الميدان بصورة منتظمة، ويرجح أن أنباء الأزمة في دارفور ستصل إلى الجمهور عن

طـــريق أحد نجوم الأفلام في برنامج حواري بدلا من أن تصله عبر مؤسسة إخبارية رئيسة.

ومـــع منتصف عام 2007، أصبح موقع يوتيوب يتضمّن كمية هائلة من أفلام الفـــيديو المتعلقة بدارفور، بعضها تمت مشاهدته بضعة آلاف من المرات، وبعضها الآخر أكثر من 100,000 مرة. فهل أفرز ذلك لدى الجمهور غضبا ونشاطا أثر في صـــانعي السياسات؟ لا يبدو أن ذلك قد حصل. فقد استمرت مأساة الإبادة. وفي لحظـــة من اللحظات، قد نصل إلى درجة عالية من الوعي، وقد ندرك نقطة تحول سياسية.

وإذا حـــصل ذلـــك، فستكون كمية المعلومات التي توفرها وسائل الإعلام الجديـــد، عـــاملا مساعدا، ولكن بالتأكيد ليس محددا. يمكن أن نقف على بعض المؤشـــرات المـــشجعة، حيث تغيرت بعض أساليب التعامل مع الحالات الإنسانية الطارئـــة في غير مناطق النـــزاع، وذلك بفضل تكنولوجيات الاتصال والمعلومات. فقـــد أصـــبح المتبرعون بالمساعدات يستخدمون التقنيات الجديدة لتحديد مواقع ضـــحايا الكوارث، ومتابعة سير المعونات التي يرسلونها. وأصبح مركز الاتصالات جزءًا أساسيا من عمليات الإغاثة، حيث يسمح للعمال الذين يوصلون المساعدات بالتواصـــل مـــع منظماتهم ومع الحكومات المعنية، ويفحصون التحديثات المتعلقة بالسلامة، ويدرسون خرائط الأقمار الاصطناعية الخاصة بالمناطق التي يعملون فيها.

وحـــتى يكـــون ذلـــك ممكنا، قد نجد من بين أول المستجيبين على الأرض، مـــتطوعين من منظمة "اتصالات بلا حدود" ليضمنوا استمرار حركة الاتصالات حـــتى في أشـــد الظروف قساوة. وتعمل مواقع تبادل المعلومات مثل موقع الإغاثة التابع للأمم المتحدة على توفير معلومات محدثة باستمرار حول الأزمات في مختلف أنحـــاء العالم. ففي أي يوم من الأيام، يمكن أن تشمل القائمة إعصارا في باكستان، غـــزوا للجـــراد في الـــيمن، انـــزلاقا أرضيا في النيبال، وغير ذلك من الكوارث. ويساعد "نتهوب" (NetHope)، وهو منتدى غير ربحي يجمع المنظمات الدولية غير الحكومـــية، مجمـــوعات الإغاثة تنظيميا وماليا. ومن ناحيتهم، أصبح الناس الذين يتعرضـــون لمخاطر الكوارث يجدون في الهواتف النقالة وسيلة لا غنى عنها للاتصال بجيرانهـــم وببقية العالم في أوقات الخطر. فاستخدام الهواتف النقالة في تزايد مستمر.

وحـــسب البنك العالمي، فقد تضاعف عدد المشتركين في أفريقيا جنوب الصحراء سبع مرات بين عامي 2000 و2006.[4]

وفي الإغاثة أثناء الكوارث كما في السياسة، لا يمكن للتكنولوجيات الجديدة في ذاتهـــا أن تحل المشاكل. ولكن بإمكانها تغيير المسار وتحسين الأداء. وإذا كنت ضحية تسونامي أو إحدى الحروب، فإن ذلك يعني لك شيئا.

القنوات الإخبارية الفضائية، وغيرها

تحظى الجزيرة باهتمام بالغ، ليس لدى جمهورها البالغ نحو 35 مليونا فحسب، وإنمـــا أيـــضا لدى الملاحظين الذين يثيرهم حجم تأثير المحطة. ودون الدخول، مرة أخرى في النقاش حول موضوعية القنوات الفضائية من عدمها، فمن الأهمية بمكان النظـــر بعين الاعتبار لتأثيرها العام في الجمهور الذي تقدم له الخدمة. فالقدرة على الحصول على محتوى إخباري حي ومستقل، تُعد في حد ذاتها ظاهرة جديدة ومثيرة في مـــنطقة مثل الشرق الأوسط العربـــي، وقد تغيرت السياسة هناك بسبب ذلك تغييرا عميقا.

ينظر الذين يعيشون في الديمقراطيات الغربية إلى التبادل الحر للأفكار السياسية باعتـــباره تحـــصيلا حاصلا، فهم نادرا ما يسألون كيف ستكون حياتهم من دون ذلـــك. فـــالإعلام الجديـــد يتيح للذين لم يختبروا من قبل هذا النوع من الحرية أن يستمتعوا به. إنهم يتعلمون أكثر ويتطلعون إلى ما دون ذلك، ورغم أن الحكومات القوية – مثل تلك التي في مصر أو السعودية – لا تبدي أي توجه لتبني الديمقراطية، فقد بدأت القدر في الغليان، وارتفع الغطاء.

يمكـــن أن يتم إبطاء حركة تلك القوى الناشطة، ولكن لن يتم – ولن يكون ممكـــنا – وقفهـــا بالكامـــل. وفي نهاية المطاف سيشهد الناس تغييرا في بنية الحياة الاجتماعـــية والسياسية، مدفوعا من ناحية بالانفتاح الذي هو بدوره نتيجة جانبية لعمـــل مـــئات القنوات الفضائية الإقليمية، ومن ناحية أخرى بباقي تكنولوجيات الاتصال الجديدة.

وبمـــا أنـــه يعد أحد أقدم أشكال الإعلام الجديد (علما وأن مصطلحات هذا العصر كلها نسبية)، فقد شهد التلفزيون فترات صعود وهبوط في محاولة من رواده

لإثبات أنه، على حد تعبير إدوارد موراو (Edward R. Murrow)، أكثر من "مجرد أسلاك وأضواء في صندوق." فالتأثير التحرري الذي تمارسه أحدث القنوات التلفزية يمنح الثقة لأولئك الذين يعتقدون أن التلفزيون يظل، في جوهره، وسيطا مجديا.

ما بعد التلفزيون، يشكل الإعلام الجديد قوة أكثر ثورية. فـ "صحافة المواطن"، التي يمكن وصفها، في مستوى معين، بأنها نوع من صحافة المشاركة الشعبوية، تتيح للأفراد أن يلعبوا الدور الذي يلعبه مزودو المعلومات التقليديون مثل المؤسسات الإخبارية الكبرى. والمدونات – المكتوبة منها وتلك التي تستخدم الفيديو – تخلق مجتمعا يمكن تحريكه عبر إيصال التأويلات الانطباعية للأحداث بشكل فوري. أما عن نصيب المحادثة الصادقة ونصيب الثرثرة الذاتية من مجموع محتوى المدونات، فذلك مفتوح للنقاش، ولكن يبقى للفضاء التدويني دون شك، تأثير إضافي على الأجندة الإخبارية. فالأفراد يبحثون عن المعلومات الالكترونية التي لا يجدونها في مكان آخر، ويمكن أن يقع تضخيم آثار تلك الرسائل عندما تتجه وسائل الإعلام التقليدية أكثر فأكثر لأخذ المعلومات عن المدونات وإعادة نشرها على نطاق أوسع.

هناك الكثير من الضجيج يصدر عن هذا النشاط. فهل هو من قبيل السمفونية المتناغمة أم هو أصوات متنافرة لا غير؟ من الأرجح أنه أقرب في الوقت الراهن إلى الاحتمال الأخير، ولكن ذلك بالتأكيد يشهد تغيرا، إذ أن بعض المدونات باتت تستوقف مستهلكي المعلومات، تماما مثلما كانت تفعل، منذ وقت طويل، النيو يورك تايمز، والبي بي سي. ومثلما هو الشأن مع وسائل الإعلام الأخرى، ستبرز الأصوات المهيمنة وستظل في الخلفية جوقة من الغوغائيين. ومن الواضح أن المحتوى الذي ينتجه المستخدمون، بدأ يجد له موقعا في خطاب المجتمع العالمي. وبشكل عام، إذا كانت المعلومات تعتبر بمثابة الوقود لمحركات الديمقراطية، فإن على تلك المحركات أن تكون قادرة على الاشتغال بسرعة أكبر وأن تصل إلى عدد أوسع من المناطق.

إن الكمية في حد ذاتها لها قيمة. وكل من يستخدم محركات البحث لمسح الفضاء التدويني بشكل عام والمدونات ذات المحتوى السياسي بشكل خاص،

سيقف على أرقام مذهلة. وهذا يعني أنه من المحال الاطلاع على كل شيء، ولكنه يعني أيضا أن بعض المواد ستجد طريقها حتما إلى الجمهور، مهما كانت قسوة الإجراءات المبذولة لوقفها. فالحكومات التي كانت في الماضي تصادر الوثائق أو تشوش على الموجات الإذاعية، تجدها اليوم تحاول غلق البوابات التي تتدفق عبرها الانترنت. ولكن، حتى إذا نجحت فترةً محددة فإن التكنولوجيا ومستخدميها سينتصرون في نهاية المطاف.

بالإضافة إلى النشطاء، فإن المستهلك الصامت للمعلومات سيبدأ في الاعتماد أكثر على الإعلام الذي لا يستخدم وسائط. فالانترنت تشجع على الاكتشاف المستقل، والناس سيدفعهم حب الاستطلاع لديهم، وهو ما يتسق تماما مع معايير الويب. وسيكون لهذا الأمر انعكاسات على الصحافة والسياسة معا. فتراجع الاعتماد على الإعلام التقليدي ستكون له آثار اقتصادية على صناعة الأخبار التي تعيش بطبيعتها وضعا غير مستقر. فما الداعي للاعتماد على مؤسسة إخبارية متهمة بالانحياز في الوقت الذي يمكنك أن تحصل بنفسك على "الأخبار"؟

أما بخصوص السياسة، فلماذا تصدق سياسيا تعْلم أنه يتلاعب، بينما يمكنك أن تطلع بنفسك على ما لا يحصى من المصادر لتمحيص الدعاوى وبحث مختلف المسائل؟ لقد تراجعت الثقة منذ سنوات في المعلومات التي تقدمها وسائل الإعلام الإخبارية والسياسيون، ولكن لم تكن هناك بدائل. أما الآن فقد أصبح بالإمكان ضمان مستوى معين من الاستقلالية، وسيبدأ ملايين الناس الذين كانوا متلقين سلبيين للمعلومات، بالبحث عن مزوّدين جدد، وسيتحولون هم أنفسهم إلى باثّين من درجة ثانية لمختلف أنواع المنتجات الإخبارية.

ستؤثر هذه التغييرات في مسار تدفق المعلومات على تواصل حركة العولمة. فبالنسبة إلى أولئك الذين يخشون أن ينطبع المجتمع المعولم بطابع التماثل، مع رسوخ معايير العولمة، ينبغي على هذه الثورة الإعلامية أن توفر ضمانات ببقاء قوة التنوع. وبدلا من وجود تطابق باهت، سيكون على مستهلكي المعلومات أن يواجهوا مهمة شاقة تتمثل في اختيار أي صوت من بين هذا العدد غير المسبوق من الأصوات يستحق الاهتمام. وهذا يشبه على نحو ما، الأيام التي كان فيها الناس في المدن الكبيرة مضطرين للاختيار بين عشرات الصحف يوميا. أما الآن، فإذا أراد

الـــناس يخـــتاروا، فإن بإمكان من يعيش في أي مكان وله القدرة على الوصول إلى الانتـــرنت أن يطلع على عشرات الصحف من عشرات البلدان، وأن يشاهد مئات القنوات التلفزيونية التي يتدفق بثها عبر الانترنت، وأن يتابع إضافة إلى ذلك، عددا غـــير محـــدود تقريبا من المواقع والنشرات الالكترونية والمدونات المكتوبة والمرئية والبودكاست إلى غير ذلك.

يعد التنوع الفكري جزءًا أساسيا من تأثير الجزيرة. وسيكون التماثل مشكلا ثانـــويا جـــدا بالمقارنة مع إيجاد ما يكفي من الوقت للغوص في بحر كل المعلومات المتاحة.

مخاطر استخدام الإعلام كسلاح

مـــن بـــين كـــل الأشـــكال الإعلامية المستخدمة لإيصال المعلومة، لا تزال المؤســـسات الإخبارية التي تعمل وفق المعايير والممارسات الصحفية التقليدية تحتفظ بقـــيمة كـــبيرة. وسواء تحدثنا عن النيو يورك تايمز، دي فالت، إل بايس، أساهي شـــيمبون، البـــــي بـــي سي، أو أحد اللاعبين الجدد من بين القنوات الفضائية الإخـــبارية العربية، فإن المشروع الصحفي – في أشكاله المختلفة – بإمكانه موازنة سلطة الحكومات إذا تمكن من كسب ثقة الجمهور ونجح في المحافظة عليها.

إن الـــتأثير في الـــرأي العـــام لـــيس أمرا جديدا على الإعلام، غير أن بعض الحكـــومات قد ردت على ذلك في الآونة الأخيرة بعدوانية كبيرة، كما أن بعض وســـائل الإعـــلام فاقمـــت مـــن الأمر حين تقمصت دور البطل عوضا عن دور الملاحظ.

وقـــد بيـــنت حرب عام 2006 بين إسرائيل وحزب الله كيف يمكن لوسائل الإعـــلام الإخـــبارية أن تُستخدم كسلاح. فقد استخدم حزب الله تلفزيون المنار لـــيلهب مـــشاعر الناس، وبشكل عام ليحشد الدعم لقضيته. وبالتالي فقد اعتبرت إســـرائيل المـــنار مؤسسة إعلامية غير شرعية، بل رأت فيها هدفا عسكريا ينبغي مهاجمـــته، فقصفت مقرّها وبرجيْ البث. كما هاجمت الطائرات الإسرائيلية أيضا مـــرافق بث لقنوات فضائية لبنانية أخرى إضافة إلى قافلة كانت تقل صحفيين عبر جنوب لبنان.

لـــيس الانخـــراط السياسي للمؤسسات الإخبارية، ولا استهداف الصحفيين باعتـــبارهم شـــبه مقاتلين، أمرا جديدا. ففي السنوات الأخيرة، هاجمت الولايات المتحدة مكتبيْ الجزيرة في كل من كابل وبغداد، ووقع اختطاف عدد من الصحفيين الأمـــريكان في العـــراق وفي بلـــدان أخرى، وقتل صحفيون معروفون بانتقادهم لـــسوريا. وعلى نطاق أوسع، قتل منذ عام 1991 أكثر من 600 صحفي في مختلف أنحـــاء العـــالم بسبب عملهم، وأحيانا بناء على أوامر من مسؤولين حكوميين أو عـــسكريين. (أكثر من 100 من بين هؤلاء، قتلوا في العراق منذ الغزو في عام 2003.) أما بقية أشكال القمع التي يتعرض لها الصحفيون فمنتشرة انتشارا واسعا.

ينظر للمؤسسات الإخبارية على شاكلة الجزيرة، على نطاق واسع، باعتبارها فـــاعلا سياسيا. فقد دفع انتشارها العالمي وتأثيرها في الرأي العام، الحكومات إلى الرد عبر الاحتجاجات الديبلوماسية، وفي بعض الأحيان، باتخاذ إجراءات عسكرية.

فاستخدام الإعلام سلاحا أمر خطير خاصة بالنسبة إلى الصحفيين لأنه يؤثر في قـــدرتهم على جمع الأخبار. وقد بدأت بعض المنظمات غير الحكومية تعير اهتماما لذلك، رغم أن الحكومات التي تتواطؤ بوضوح في استهداف الصحفيين لا تتوقف عن الادعاء، مكْرا، بأنها تؤمن بأهمية استقلال الإعلام الإخباري. ومما يجعل الأمور أكثر سوءًا، أن المجموعات الإرهابية في العراق، كانت تستهدف الصحفيين كإجراء تكتيكـــي، وكانـــت تفعل ذلك بدرجة عالية من الوحشية خصوصا عندما يكون الهـــدف عراقيين يعملون لفائدة مؤسسات إخبارية غربية. وإذا لم يتم عكس هذا الاتجـــاه المتصاعد نحو مزيد من استخدام الإعلام الإخباري سلاحا، فإن الجمهور سيـــشهد قـــريبا انكماشـــا في حجـــم التغطية من مناطق القتال. وحتى أحدث التكنولوجيات الإعلامية لن يكون بمقدورها تجاوز هذا المنع الواقعي.

صعود المجتمعات الافتراضية

يمكـــن الوقوف على وجه آخر من وجوه تأثير الجزيرة في تعزيز قوة جماعات المـــصالح التي تعتمد على الإعلام الجديد لتحسين وضعها وفي بعض الحالات، لخلق الانـــسجام فـــيما بيـــنها. فـــالإعلام الجديد يمكنه أن يربط بين أناس تجمع بينهم خصائص ثقافية ودينية أو سياسية، بطريقة غير مسبوقة. وعندما يستطيع عدد أكبر

من الناس عبر العالم الوصول إلى هذه الوسائل الإعلامية، فإن المجتمعات التي كانت متخيلة فقط ستصبح أكثر واقعية، حيث ستتمكن من توسيع دائرة أعضائها وسيشعر "مواطنوها" بالحاجة إلى التأكيد على مصالحهم المشتركة.

وسيكون من الصعب التكهن بحقيقة الأثر الذي سيتركه ذلك في السياسة الدولية. فبعض الجماعات قد تختار الإبقاء على مجتمعاتها الافتراضية مغلقة نسبيا، وتستخدم أدوات الإعلام لأغراض التفاعل الداخلي بين مكونات تلك المجتمعات. وقد تختار مجموعات أخرى استخدام ثقلها العددي للعب دور أكثر فاعلية على الصعيد العالمي. وستظل مجموعات أخرى تفضل إقامة دول افتراضية بنيات عنيفة. وعلى أولئك الذين يتعاملون مع مخاطر الإرهاب أن ينظروا إلى مفهوم الدولة الافتراضية ضمن هذا السياق، لأن خلق مثل ذلك المجتمع يمكن أن يعزز كثيرا من قوة المنظمات الإرهابية. فالتواصل عنصر أساسي في وحدة أية منظمة وفاعليتها، وهناك كمٌّ هائل من الوثائق يبين كيف أن القاعدة – على سبيل المثال – استخدمت الإعلام الجديد بنجاح في الدعوة والانتداب والتوجيه والقيادة.

إن المجتمع الافتراضي ليس شبكة فقط، ونظرا لصعوبة تحديد أهداف الكثير من المنظمات الإرهابية، فإن مجتمعاتها الالكترونية يمكن أن تكون مشكّلة بكيفية أكثر إحكاما من الشبكات التي تُبنى على نحو فضفاض. والأهم من ذلك، إذا كان لا بد من شن "حرب" على الإرهاب، وإذا كانت تتطلب – كما هو مرجح – سنوات عديدة من الصراع، فإن تحديد العدو مسألة هامة. فالتهوين من قوتها التنظيمية وقوتها الباقية ورفضها باعتبارها مجموعات من المتطرفين ومختلّي المدارك، يعد خطأ استراتيجيا كبيرا. فهناك مسائلُ كثيرة تتعلق بالقاعدة وبأعضائها تتجاوز هذا الأمر. ويمكن إضعاف الدعم الشعبي لذلك الصراع إذا تم التقليل من خطورة التهديد، سواء لأغراض سياسية أو بسبب الجهل. فخوض الحرب ضد دولة – حتى لو كانت دولة افتراضية – يتطلب التعامل مع العدو بجدية وتحديده بطريقة تهيّء الإطار السياسي والعسكري لصراع طويل المدى. ويمكن التدليل على أن القاعدة ينبغي التعامل معها على أساس أنها دولة من هذا القبيل.

لقد أنجبت الدول/المجتمعات الافتراضية طبقة المحاربين الخاصة بها. فـ "إرهابي 007"، وهو الاسم الذي يستخدمه الشاب المغربي "يونس تسولي"، كان من

خـــلال مراسالاته مع زملائه يصر على أنه غير منخرط في قتال تقليدي في العراق، ولكـــنه، مـــن داخـــل منـــــزله في بـــريطانيا، أصبح من أشهر مهندسي الجهاد الالكتروني. وباعتباره مشرفا على موقع مسؤول القاعدة في العراق، أبـــي مصعب الـــزرقاري، ومعلمـــا لعدد آخر من الذين يستخدمون الانترنت لنشر مواد لتجنيد الأنصار وكراسات لتدريبهم على الأسلحة والعمليات التكتيكية، كان إرهابي007 – إلى حين إيقافه سنة 2005 – رائدا في تأسيس البنية التحتية الالكترونية للقاعدة. وتواصل القاعدة، عبر آلاف المواقع الالكترونية وسيل من منتجات الفيديو الموجهة لجمهورها العريض، توسيع حضورها العالمي. ورغم محدودية الأرض الملموسة التي تتحرك عليها، فإنها تحتل من الأرض الالكترونية بالقدر الذي تحتاج إليه.

ينبغـــي على الحكومات المعادية للقاعدة أن تدرك أن مساحة الأرض الواقعة علـــى الحدود الباكستانية – الأفغانية حيث يتمركز بعض مقاتلي القاعدة، لا قيمة لهـــا قياســـا إلى أرض القاعدة الواسعة. فالقاعدة، في الحقيقة، دولة عنيفة بشكل إجرامـــي تعتمد على التكنولوجيات الإعلامية لإقامة "وطنها" العالمي. ويدرك ابن لادن ومساعدوه أن الفضاء الالكتروني لا يقل قيمة، باعتباره مسرحا للحرب، عن جـــبال وزيرســـتان. وسيكون لهذا الجانب المظلم من تأثير الجزيرة انعكاساته على السياسة الدولية في المستقبل المنظور.

ما بعد الإرهاب: النظر في وضع العالم الإسلامي

تؤثـــر التغييرات الجارية في كل جزء من أجزاء المعمورة، ولكن من المهم أن نضع في اعتـــبارنا إلى أي حـــد يستمر الجزء العربـــي من الشرق الأوسط مضطربا. فهناك تيارات من الاستياء تجري بقوة تحت السطح وقد حللها ملاحظون غربيون مثل برنارد لويس، وعرب مثل الشاعر، ذي الأصل السوري، أحمد سعيد المعروف بأدونيس. فقد كـــتب سعيد في عام 2006 قائلا، "عندما أنظر إلى العرب بكل ما يملكونه من موارد وقـــدرات هائلة، وأقارن ما أنجزوه في القرن الماضي بما أنجزه الآخرون في نفس الفترة، أقول إننا نحن العرب نمر بمرحلة انقراض، بمعنى أننا لا نملك حضورا خلاّقا في العالم."[5]

تشترك هذه النظرة مع ما يسميه دومينيك مويزي (Dominique Moisi) "صدام العواطف" العالمي، حيث "يكشف الغرب عن ثقافة الخوف، بينما يغرف العرب

والمسلمون من ثقافة الإذلال. أما أغلب مناطق آسيا فتعيش على ثقافة الأمل."[6]

يبدو أنه لا مفر من استخدام كلمة "صدام". على الأقل أسس صامويل هانتنغتون لبنية دلالية لأولئك الذين يبحثون في أحوال عالم اليوم، ويتواصل النقاش حول مفهومه (الصدام) إلى ما لا نهاية. فبعض المنتقدين يصطفون إلى جانب الموقف الذي صاغه إدوارد سعيد حين أعلن أن نظرية هنتنغتون "خرْقاء" لأن "الثقافات هجينة ومركبة." يقول سعيد إن "الثقافة الغربية خيال إيديولوجي يحيل إلى نوع من التفوق المنفصل عن الواقع والمرتبط بحفنة من القيم والأفكار."[7] ونفس النمط من التركيب يميز الشعوب الإسلامية.

ورغم العدد الواسع من النقاد فإن مفهوم الصدام يظل مستخدما على نطاق واسع إطارا لبحث علاقة الإسلام بالعالم غير الإسلامي. وعندما وقع استطلاع آراء 28,000 شخص في سبعة وعشرين بلدا بين شهري نوفمبر 2006 ويناير 2007، تركزت الأسئلة حول حتمية المواجهة العنيفة بين البلدان المسلمة والبلدان الغربية. رفضت الأغلبية هذا المفهوم، ولكن في بلدان كنيجيريا وألمانيا توقّع نحو 40% أن يحدث مثل ذلك الصراع. وفي إندونيسا، أكثر البلدان المسلمة كثافة سكانية، قال 51% – حوالي 100 مليون شخص – إنهم يتوقعون مواجهة عنيفة.[8] ولتلك الرؤية أنصار أمثال أبي بكر بشير، قائد الجماعة الإسلامية في إندونيسيا، وهو حليف للقاعدة. وكان بشير قد ادعى سنة 2005 أن القرآن يقول إن قدر المسلمين أن يقاتلوا المسيحيين واليهود، وأنه يجب إبادة الغربيين إلا إذا قبلوا بالإسلام.[9] وهو ليس وحيدا بين من يروّجون لهذا الرأي سرا وعلانية.

وينعكس التوتر الذي يرافق تلك المواقف على مستوى السيكولوجيا السياسية. وكما لاحظ نيكولاس كريستوف في أواخر عام 2006، "هناك ملل في الغرب من عالم عربي يبدو أنه في بعض الأحيان يضع عصارة إبداعه في صنع أفضل القنابل. حتى المنفتحون في الغرب ينتابهم أحيانا شعور بالاستقالة فيسألون: قد يكون المتعصبون على حق، قد يكون الإسلام في جوهره متخلفا وعنيفا ومعاديا للمرأة." ويواصل كريستوف كلامه مبينا أن تلك الأحكام، رغم شيوعها، تظل متهافتة. ومن خلال سلسلة من الحجج شبيهة بتلك التي يسوقها إدوارد سعيد في

سياق نقده للغرب، يلاحظ كريستوف، على غرار الكثيرين، أن الإسلام ليس وحدة صماء – فالعرب والأجزاء غير العربية من العالم الإسلامي يختلفون اختلافا كبيرا في الأسلوب الذي يدمجون به عقائدهم الدينية والسياسية. وقد كتب، "هناك انقسام تاريخي بين إسلام الصحراء – الأصولية الصارمة في بلدان مثل العربية السعودية – وإسلام الأنهار أو السواحل، الذي يتطلع إلى الخارج، فهو مرن ومتسامح. ورغم أن مسلمي الصحراء يختطفون العناوين الرئيسة، إلا أنني أراهن على أنه في سياق الصراع على روح الإسلام، ستكون الغلبة لمسلمي البحار."[10]

قد يكون الأمر كذلك. وهو مهم حتى إذَا تعذّر إثبات فكرة ما، تماما مثلما هو شأن فرضية هنتنغتون التي يسهل التكهن بشأنها بدلا من إثباتها أو رفضها. فمنتقدو فكرة التجانس في هذا السياق، أمثال سعيد وكريستوف، بإمكانهم المجادلة بأن التنوع يفوق الوحدة، ولكن عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار تدفق منتجات الإعلام الجماهيري التي تذيب الفوارق. فالملل الذي ذكره كريستوف يمكن إرجاعه ليس إلى الأحداث الواقعية فحسب، وإنما أيضا إلى امتزاج الواقع بالخيال الذي ينبغي على مستهلكي المعلومات أن يتعاملوا معه. تتمثل إحدى النتائج الجانبية لتأثير الجزيرة في الحمولة الزائدة للمعلومات. فالفوارق الدقيقة لا تصمد كثيرا في خضم هذا السيل الجارف من المدونات الحافلة بالإشاعات، والترفيه المحكوم بالصور النمطية، والأخبار التي يهيمن عليها التبسيط المخل.

وبينما يزداد الشك في أوساط الجمهور العام إزاء ما ينبغي فعله مع هذه المنظومة من الإعلام الجديد، نجد أن من بين المنتمين إلى المنظمات الإرهابية من يعرفون على وجه الدقة كيف يستخدمون مختلف وسائل الإعلام. ومن موقعه باعتباره خبيرا في مكافحة الإرهاب، يقول دافيد كيلكولن (David Kilcullen)، "لو لم يتمكن ابن لادن من الوصول إلى الإعلام العالمي، واستخدام الاتصالات الفضائية، والانترنت، لكان شخصا قلقا في أحد الكهوف لا غير."

ويلاحظ كيلكولن أيضا أن الحركات الإسلامية الراديكالية تبتكر خططا تكتيكية جزءاً من استراتيجية إعلامية موضوعة بدقة. ويذكر الكمائن التي تعرضت لها القوافل الأمريكية في العراق أمثلة على تلك التكتيكات. "هم لا يفعلون ذلك لأنهم يريدون تقليص عدد عربات الهمفي التي لدينا في العراق بواحدة. إنهم يفعلون

ذلـــك لأنهـــم يـــريدون الحصول على لقطات إعلامية مثيرة لهمفي وهي تحترق." وتـــستخدم تلك الصور، كما يقول كيلكولن، ليس بغرض تعزيز محتوى يوتيوب فحسب وإنما تنشر عبر مواقع الانترنت الجهادية حيث يمكن للزوار مشاهدة الفيديو ثم دفع التبرعات بعد ذلك. (هذه المواقع من إنتاج أمثال إرهابي007.)

من جهته كتب جورج باكر قائلا: "إن المتمرد الأفغاني أو العراقي أو اللبناني، علـــى خلاف سابقه الفيتنامي أو السلفادوري، بإمكانه أن يصل إلى شبكة إعلامية عالمـــية لتتولى على الفور تضخيم رسالته." وتلك الشبكة توفر مواد مصممة بعناية بغرض تعزيز صفوف المجهادين. ويرى جاريت براتشمان (Jarret Brachman) أن "نوعـــية المحـــتوى الاســـتراتيجي الجهـــادي تستمر في التطور، على غرار التطور التكنولوجي والكمّي على صعيد المواد الدعائية التي تنشر على شبكة الانترنت."[11]

ومـــما يعزز من أهمية الرسائل التي تنشرها هذه الوسائل الهامشية، الصور التي تبثها مـــصادر في تـــيار الإعـــلام الرئيس. فقد استخدمت الجزيرة والعربية، ضمن لقطات تـــرويجية للقـــناتين، صـــورا لسجناء في غوانتانامو، من شأنها ترسيخ صورة الولايات المـــتحدة دولـــة تضطهد المسلمين.[12] فوجود قنوات إخبارية مستقلة نسبيا في الشرق الأوســـط، تـــستطيع أن تفعـــل ذلك، مثال على حجم التحول الذي طرأ على البيئة الإعلامـــية. وتستمر نسبة مصادر المعلومات التي تسيطر عليها الحكومات، أو الوسائل الإعلامـــية االـــصديقة للحكومات، في التقلص. ومن شأن ذلك أن يولد خطابا أكثر حـــرية وأحـــيانا أكثر إثارة للجدل، ويغير من معادلة المعلومة–الرأي. فالحكومات التي كانـــت في السابق قادرة على إملاء نصيب كبير من "الأخبار"، باتت تصارع من أجل اســـتنباط تكتيكات يمكنها أن تستعيد بفضلها بعض السيطرة المفقودة. وفي بداية عام 2008، تبنت الحكومات العربية، بقيادة مصر والسعودية، ميثاقا يعزز من سيطرة الدولة علـــى الـــبث الفضائي. وخلال شهرين منعت قناة الحوار، التي تنطلق من لندن وتنتقد الحكومة المصرية، من أن تبث على النايل سات، الذي تملكه مصر جزئيا.

البحث عن استراتيجيات جديدة

يتطلب التأثير في الرأي العام في هذه البيئة الجديدة أكثر من الدعاية التقليدية، التي تبدو ضعيفة حين يصبح بإمكان المدونات أن تسارع بتوفير مساحات للرسائل

الـــتي تتحدى المصالح الذاتية للحكومات. وقد كانت الحكومة الأمريكية بالتحديد بطيـــئة في إدراك هـــذه الحقيقة، ونتيجة لذلك ظل أثر جهود دبلوماسيتها العامة محدودا.

هـــناك حاجـــة إلى تغيير المقاربة. فعلى سبيل المثال، ينبغي أن تواجه المواقع الجهاديـــة بمواقع مضادة – ولكن غير موالية للأمريكيين بطريقة فجة. ففي النهاية، أغلـــب من يموتون في هجمات الجهاديين الإرهابية ليسوا تلك الأهداف الأمريكية الجلـــية، وإنمـــا هم مدنيون مسلمون. وهجمات 2005 التي نفذها أحد منتسبـــي القاعـــدة ضد فنادق في عمان وأودت بحياة ستين شخصا – كلهم عرب تقريبا – أثارت رد فعل قويا مناهضا للقاعدة بين العرب.

قد ينجح التشهير بتلك الهجمات العشوائية والتنديد بها في توجيه الرأي العام بعـــيدا عـــن الجهاديين، وهو ما يخدم بالتأكيد مصالح الولايات المتحدة والأنظمة الحاكمـــة في أغلـــب البلدان الإسلامية. ولكن ينبغي أن تبذل تلك الجهود بطريقة تعكس فهم المواقف الاجتماعية العميقة. وستكون وسائل الإعلام الجديد على غاية مـــن الأهمـــية للوصول إلى الجماهير الشابة، تلك التي غالبا ما تستهدفها المنظمات الجهادية بالتجنيد. وهذا مثال آخر على الإعلام باعتباره ساحة للمعركة.

إلى جانـــب ذلـــك، يجـــب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الاستياء الواسع من حكـــومات بلـــدان إســـلامية عديدة حين نضع الاستراتيجيات الإعلامية. فالذين يظهرون حلفاء للمؤسسة السياسية الرسمية لن يبقى لهم قدر كبير من المصداقية إلا إذا حـــصل تحـــول ليبرالي في بلدان مثل مصر. وعلى صانعي السياسة أن يكونوا مـــستعدين للاســـتفادة مـــن تأثير الجزيرة ومن قدرته على تعزيز جهود التحول الديمقراطي.

وكمـــا أشـــرنا آنفـــا، فالحكومة الأمريكية، التي تخشى أن تؤجج القنوات الفضائية العربية مشاعر العداء لأمريكا، أنفقت مبالغ هائلة لإطلاق قناتها التلفزيونية الخاصـــة، الحرة، وإذاعة سوا التي كان من المفترض أن تكسب أصدقاء عبر برمجة تغلـــب علـــيها الموسيقى مع ومضات إخبارية. وقد جلبت هذه الجهدود منتقدين أكثر مما وجدت حلفاء. وقد كتب روبرت رايلي (Robert Reilly)، المدير الأسبق لإذاعة صوت أمريكا أن المقاربة التي تتبناها سوا "حولت حرب الأفكار إلى معركة

بالأيدي." وأضاف قائلا، "نحن لا نعلّم المراهقين الأمريكيين التربية المدنية بدعوتهم للاستماع إلى موسيقى البوب، فلماذا نتوقع أن يتعلم العرب والفرس عن أمريكا الديمقراطية بهذه الطريقة؟ فالمستوى المتدني الكامن في هذا القالب الذي تغلب عليه الموسيقى لن يصل إلى الجمهور الذي نأمل أن نؤثر فيه – أولئك الذين يفكرون."[13]

الدبلوماسي المخضرم، ويليام راف (William Rugh)، بدا هو الآخر منتقدا لسوا والحرة، فكتب يقول إن سوا التي عوضت في الحقيقة الخدمة العربية لصوت أمريكا، تجاهلت مصالح صناع السياسة والمهنيين العرب الذين كانوا يستمعون لصوت أمريكا. وأضاف أن الحرة ليست في مقام المنافسة مع أمثال الجزيرة، لأنها بالنسبة إلى المشاهدين العرب "تبدو أقرب إلى القنوات التلفزيونية العربية التي تعمل بالأسلوب القديم، والتي كانت الحكومات العربية السلطوية تتحكم فيها كل التحكم، وكانت بمثابة أذرع دعائية لتلك الحكومات." ومن أمثلة تهافت مقاربة الحرة، يذكر راف تغطيتها لفضيحة "أبو غريب" التي، كما يقول "اعتمدت بالأساس على معلقين أصدقاء للحكومة الأمريكية، بينما بثت الجزيرة جلسات الاستماع في الكونغرس التي ظهر فيها ريتشارد كلارك (Richard Clarke) وآخرون من منتقدي الإدارة الأمريكية، ولا شك أن تغطية الأخيرة تعتبر ديبلوماسية عامة أكثر فاعلية بكثير."[4]

تستنزف الإذاعة والتلفزيون نصيبا وافرا من ميزانية ديبلوماسية أمريكا العامة، مع أن هناك جهودا أخرى تبذل على هذا الصعيد. وفي الفترة الأخيرة ضاعف المسؤولون الأمريكيون من مشاركاتهم في المحادثات والنقاشات الالكترونية. وقد أعيد إحياء التبادل الثقافي والتعليمي الذي كان قد تقلص بعد الحادي عشر من سبتمبر، على يد أعلى مسؤول في الديبلوماسية العامة لإدارة بوش، مساعدة وزيرة الخارجية، كارن هيوز (Karen Hughes). فالديبلوماسيون الأمريكيون مدعوون للوصول إلى الجمهور، تقول هيوز، وليس إلى حكومات البلدان التي يعملون فيها فقط. وقد أصبح التأكيد على الدعم الأمريكي للرعاية الصحية والبرامج التعليمية يحل محل بعض القضايا الأكثر إثارةً للجدل.[15] وبالتدريج، أضحت الجهود الأمريكية أكثر معقولية رغم أن البرنامج في عمومه ما زال دون ملاءمة حجم المهمة التي يطرحها.

وحتى أكثر رسائل الديبلوماسية العامة لَمعانا يمكن أن تضيع بسهولة في خضم عـــالم الاتصالات المزدحم أكثر من أي وقت مضى. وهذا جزء من واقع الإعلام الجديـــد الذي يواجه كل مستخدميه، بدءاً بالقنوات الفضائية العالمية، مرورا بمواقع الإرهابيين الإلكترونية، وانتهاء بالمدونات الشخصية. ومع مرور الزمن، سيصل هذا العـــالم إلى نوع من النظام، إذ إن مستهلكي المعلومات ينجذبون بوتيرة منتظمة إلى المـــواد التي يعتبرونها أكثر أهمية وصدقا وفائدة. وسيظل كل واحد قادرا على إبداء رأيـــه(ا) الخـــاص بشأن المدونات ومواقع الانترنت وما شابه ذلك، حتى لو كان جمهورها محدودا جدا. فالحرية والقدرة على فرض الانضباط الذاتي ينبغي أن تكونا قادرتين على التعايش.

***

هل سيتمكن تأثير الجزيرة من المساعدة على الدفع بالديمقراطية إلى الأمام، وهـــل ســـيقلص بالـــتالي، من احتمال صدام الحضارات؟ الجواب المؤكد هو: ربما.

إن الذين يتطلعون إلى حدوث ذلك الصدام، سواء أكانوا إرهابيين أم قيادات سياسية عديمة الضمير، بإمكانهم استخدام الإعلام الجديد للوصول إلى جماهير أوسع مـــن أي وقت مضى وتحريضها. وفي مرحلة من المراحل يتحول اليأس إلى سذاجة، ولكـــن بعـــد دراسة تأثير الجزيرة، يمكن للمرء أن يعتقد أنه في خضم هذه المنافسة ستتفوق الفطرة السليمة والحميدة على تلك الأجندة التي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى مزيد من البؤس والشقاء.

هـــذه الظاهرة ليست منحصرة في المناطق التي يسود فيها الصراع والتوترات السياسية. فعبر مختلف أنحاء العالم، ومع استمرار تنامي قوة بلدان مثل الصين والهند والبرازيل، ستتأثر سياساتها ورفاه شعوبها قطعا بمدى انتشار الإعلام الجديد وتأثيره. وفي الـــوقت الـــراهن على الأقل، سأظل متفائلا بالخير الذي يمكن أن يحمله تأثير الجزيرة.

وكمـــا أشـــرنا في بداية هذا الكتاب، لم تعد "وسائل الإعلام" وسائل إعلام فقـــط. إنها لاعب في حد ذاتها وهي آليات كذلك. وهي بصدد تغيير شؤون العالم علـــى أكثر من صعيد. وإلى جانب الاتصالات، هناك العديد من العوامل الأخرى

الـــتي ستـــشكل المرحلة القادمة من السياسة الدولية. ولكن فهم أهمية تأثير الجزيرة وتقديـــره حق قدره سيساعدان كل من يشغله المستقبل على إدراك التغييرات التي تحيط بنا بشكل أفضل.

هوامش

الفصل الأول: ما بعد صدام الحضارات

1. George Packer, "When Here Sees There," *New York Times*, April 21, 2002.
2. Thomas L. Friedman, Longitudes and Attitudes: The World in the Age of Terrorism (New York: Anchor Books, 2003), 390.
3. National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States, The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States (New York: Norton, 2004), 340.
4. Middle East Media Research Institute, *Now Online: Swear Loyalty to to Al Qaeda Leaders*, Special Dispatch Series, no. 1027, November 18, 2005, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP102705.
5. Nicholas Watt and Leo Cendrowicz, "Brussels Calls for Media Code to Avoid Aiding Terrorists," *Guardian*, September 21, 2005.
6. Anthony Shadid and Kevin Sullivan, "Anatomy of the Cartoon Protest Movement," *Washington Post*, February 16, 2006.
7. David Ignatius, "From 'Connectedness' to Conflict." *Washington Post*, February 22, 2006.
8. Bernard Lewis, *What Whent Wrong? Western Impact and Midddle Eastern Response* (New York: Oxford University Press, 2002), 3.
9. Friedman, Longitudes and Attitudes, 165.
10. Yasmine el-Rashidi, "D'oh! Arabized Simpsons Aren't Getting Many Laughs," *Wall Street Journal*, October 14, 2005.

11. Thomas L. Friedman, *The Lexus and the Olive Tree* (New York: Farrar, Status, Giroux, 1999), 7. Friedman, *Longitudes and Attitudes*, 3-4.
12. Jean Chalaby, "From Internationalization to Transnationalization," *Global Media and Communication* 1, no. 1 (2005), 30.
13. Jon B. Alterman, "The Information Revolution and the Middle East," in *The Future Security Environment in the Middle East: Conflict, Stability, and Political Change*, eds. Nora Bensahel and Daniel L. Byman (Santa Monica, CA: RAND, 2003), 243.
14. Marc Lynch, Voices of the New Arab Public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle East Politics Today (New York: Columbia University Press, 2006), 2.
15. Gilles Kepel, *The War for Muslim Minds: Islam and the West* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 7-8.
16. John R. Bradley, *Saudi Arabia Exposed: Inside a Kingdom in Crisis* (New York: Palgrave Macmillan, 2005) 91.
17. Yossi Alfer, "Strategic Interest: Downloading Democracy (with Some US Help)," *Daily Star*, October 4, 2005; "Palestinian-Israeli Crossfire," Bitterlemons.org, www.bitterlemons.org/about/about.html.
18. Pew Research Center, *Islamic Extremism: Common Concerns for Muslim and Western Publics*, Pew Global Attitudes Project, July 14, 2005, http://pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=248.
19. Jim Yardley, "A Spectator's Role for China's Muslims," *New York Times*, February 19, 2006.
20. Olivier Roy, *Globalized Islam: The Search for Anew Ummah*, (New York, Columbia University Press, 2004), 25,123.
21. Diana Mukhalled, "The World is Closely Watching," *Asharq Alawsat*, August 30, 2005.
22. Habib Battah, "Watching American TV in Beirut," *Al Jazeera.net*, July 14, 2006.
23. Olivier Roy, *Globalized Islam*, 102.
24. Pew Research Center, *The Great Divide: How Westeners and Muslims View Each Other*, Pew Global Attitudes Project, June 22, 2006, http://pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=253.

25. Kepel, War for Muslim Minds, 20.
26. Lynch, Voices of the New Arab Public, 194.
27. Faiza Saleh Ambah, "Arab World Riveted by Coverage of the 'Sixth War'," *Washington Post*, Agust 14, 2006.
28. Doreen Carvajal, "Big Fish Dive into Arab News Stream," *International Herald Tribune*, June 19, 2006.
29. Middle East Media Research Institute, *"Ya Mohammed" Website Hosted in US.: A Part of Internet Jihad*, Special Dispatch, no. 1131, March 31, 2006, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archive&Area=sd&ID=SP113106; Meris Lutz, "A Cyber-platform, for Arab Culture," *Daily Star*, April 6, 2006.
30. Mark Allen, *Arabs* (London, Continuum, 2006), 42.

الفصل الثاني: قنوات والمزيد من القنوات

1. Fahmy Howeidy, "Setting the News Agenda in the Arab World," in *The Al Jazeera Decade* (Doha, 2006), 129.
2. Arab Advisors Group, "48 Percent of Households in Cairo Use the Internet and 46 Percent Have Satellite TV," news release, January 24, 2005.
3. Samuel Abt, "For Al Jazeera, Balanced Coverage Frequently Leaves No Side Happy," *New York Times*, February 16, 2004.
4. Laura M. James, "Whose Voice? Nasser, the Arabs, and 'Sawt al-Arab' Radio," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 16 (Spring 2006), www.tbsjournal.com/james.html.
5. Lynch, Voices of the New Arab Public, 36.
6. Faisal Al Kasim, "The Opposite Direction: A Program Which Changed the Face of Arab Television," in *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, ed. Mohamed Zayani (Boulder, CO: Paradigm, 2005), 103.
7. Friedman, Longitudes and Attitudes, 135, 155.
8. Naomi Sakr, Satellite Realms: Transnational Television, Globalization, and the Middle East (London: I.B. Tauris, 2001), 13.

9. U.S. Institute of Peace, *Arab Media: Tools of the Governments; Tools for the People?* Virtual Diplomacy Series, no. 18, July 2005, 5.
10. Stanley Foundation, *Open Media and transitioning Societies in the Arab Middle East: Implications for U.S. Security Policy*, report in association with the Institute for Near East and Gulf Military Analysis (Muscatine, IA: Stanley Foundation, 2006), 13.
11. "About MBC Group," MBC, www.mbc.net.
12. Samantha M. Shapiro, *The War Inside the Arab Newsroom*," New York Times Magazine, January 2, 2005.
13. Ibid.
14. Anthony Shadid, "A Newsman Breaks the Mold in Arab World," *Washington Post*, May 1, 2006; Shapiro, "War Inside the Arab Newsroom."
15. John Kifner, "Massacre Draws Self-Criticism in Muslim Press, *New York Times*, September 9, 2004.
16. Shapiro, War Inside the Arab Newsroom."
17. Shadid, "A Newsman Breaks the Mold in Arab World."
18. Stanley Foundation, Open Media and transitioning Societies, 15.
19. LBC Group, www.lbcgroup.tv/LBC/En.
20. Raed el Rafei, "Lebanese TV Has a Politically Split Personality," *Los Angeles Times*, December 8, 2006.
21. Sebastian Rotella, "French Ban on Arab TV Station Raises Questions," *Los Angeles Times*, January 10, 2005.
22. Vivian Salama, "Hamas TV: Palestinian Media in Transition," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 16 (Spring 2006), www.tbsjournal.com/Salama.html.
23. Craig S. Smith, "Warm and Fuzzy TV, Brought to You by Hamas," *New York Times*, January 18, 2006.
24. Middle East Media Research Institute, Hamas Al-Aqsa TV: A Mickey-Mouse Character Teaches Children About the Islamic Rule of the World And to "Annihilate the Jews," Special Dispatch Series, no. 1577, May 9, 2007; On Hamas Al-Aqsa TV, Nahoul the Bee Replaces Farfour the

Mickey-Mouse Character, Vows to Continue Farfour's Path of Martyrdom, Jihad, Special Dispatch Series, no. 1657, July 15, 2007; and Hamas Bee Nahoul Abuses Cats, Lions, at Gaza Zoo, Calls for Liberation of Al-Aqsa Mosque, Special Dispatch Series, no. 1683, August, 2007. All available at www.memri.org/sd.html.

25. Javid Hassan and Naif Al-Shehri, "Al Resalah Launched," *Arab News*, March 7, 2006.
26. Al-Resalah Satellite TV Channel, www.alresalah.net; Middle East Media Research Institute, Islamic Cleric on Saudi Prince Al-Waleed Bin Talal's New TV Channel, Special Dispatch Series, no. 1118, March 18, 2006, www.memri.org/articles.cgi?Page=archive&Area=sd&ID=SP111806.
27. Paul Cochrane, "Is Al-Hurra Doomed?" worldpress.org, June 11, 2004, www.worldpress.org/Mideast/1872.cfm.
28. Neil MacFarquhar, "Washington's Arabic TV Effort Gets Mixed Reviews," *New York Times*, February 20, 2004.
29. Cochrane, "Is Al-Hurra Doomed?"
30. Javid Hassan, "Top Judge Blasts Al-Hurra TV's Ideological War," *Arab News*, March 9, 2004.
31. Barbara Salvin, "VOA Changes Prompt Staffer Protests," USA Today, July 12, 2004.
32. Arab Advisors Group, "Al Jazeera Viewers," news release, September 5, 2004.
33. Dana Zurikat Daoud, "Al-Hurra: An Insider's View," *Adham Center* News, Fall 2004, www.adhamonline.com/News/News.htm.
34. Shibley Telhami Testimony, in Senate Foreign Relations Committee, The Broadcasting Board of Governors: Finding the Right Media for the Message in the Middle East: Hearing before the Committee on Foreign Relations, 108th Cong., 2nd sess., April 29, 2004, http://foreign.senate.gov/testimony/2004/TelhamiTestimony040429.pdf.
35. Anne Marie Baylouny, "Al-Hurra, the Free One: Assessing U.S. Satellite Television in the Middle East," *Strategic Insights* 4, no. 11 (November

2005), www.ccc.nps.navy.mil/si/2005/Nov/baylounyNov05.asp. See also, Philip Seib, "The Ethics of Public Diplomacy," in *Ethics in Public Relations: Responsible Advocacy*, eds. Kathy Fitzpatrick and Carolyn Bronstein (Thousand Oaks, CA: Sage, 2006), 155-170.

36. "BBC World Service 2010: Arabic Television," bbcworldservice.com, October 25, 2005; Matthiew Magee, "BBC Trims European Output to take on Al Jazeera," *Sunday Herald* (Glasgow), October 23, 2005.
37. "Bush House of Arabia," *Economist*, October 29, 2005, 57; Heba el-Qudsy, "Q and A with BBC Arabic's Salah Najm," *Asharq Alawsat*, October 7, 2006.
38. Juan Forero, "And Now, the News in Latin America's View," *New York Times*, May 16, 2005; "Telesur: A Counter-hegemonic Project to Compete with CNN and Univision," *La Jornada* (Mexico), February 27, 2005.
39. Humberto Marquez, "Telesur, a Latin American TV Network, Is on the Air," Global Information Network, May 25, 2005; Reed Johnson, "World News from a New Point of View," *Los Angeles Times*, June 19, 2005.
40. Theresa Bradley, "Telesur Buys Caracas TV Channel, Expanding Chavez Media Reach," Bloomberg.com, December 14, 2006; Marquez, "Telesur."
41. "Telesur: A Counter-hegemonic Project."
42. Aram Aharonian, "Todo lo que usted quiere saber de Telesur (Everything You Want to Know About Telesur)," www.rebelion.org, July 13, 2005, translated by BBC Monitoring Media, July 20, 2005.
43. Forero, "And Now the News in Latin America's View"; Marquez, "Telesur"; Bradley, "Telesur Buys Caracas TV Channel."
44. Doreen Carvajal, "All-News Television Spreading Its Wings," *International Herald Tribune*, January 8, 2006.
45. About France 24, www.france24.com/en/about-france-24.
46. "Everybody Wants One Now," *Economist*, November 30, 2006; John Ward Anderson, "All News All the Time, and Now in French," *Washington Post*, December 7, 2006.

47. Caroline Wyatt, "World News to Get a French Flavor," BBC News, December 6, 2006.
48. Anderson, "All News All the Time."
49. Russia's TV Broadcasting Not Limited by Language," Novosti, June 27, 2005.
50. Journalism Mixes With Spin on Russia Today: Critics," Canadian Broadcasting Corporation, March 10, 2006; Kim Murphy, "Russia Will Air Its View of the World," *Los Angeles Times*, June 8, 2005.
51. Murphy, "Russia Will Air Its View of the World."
52. Carvajal, "All-News Television Spreading Its Wings."
53. "News of the World," *Economist*, November 1, 2006.
54. Carvajal, "All-News Television Spreading Its Wings."
55. "Background: DW-TV Focus on News and Information," Deutsche Welle, www.dw-world.de/dw/article/0,2144,823127,00.html.
56. "About CNN-IBN," IBN Live, www.ibnlive.com/aboutus.html.
57. Jessica Bennett, "G. Scott Paterson: The CEO Is Aiming JumpTV at Immigrants Who Want to Watch Ethnic Programming," *Newsweek International*, January 1, 2007; Steve Gorman, "Webcast Network JumpTV to Launch Iraqi Service," Reuters, January 24, 2006.
58. Bridges TV, www.bridgestv.com.
59. Siraj Wahab, "Muslims Need to Be Media Savvy," *Arab News*, September 14, 2006.
60. Kingdom Holding Company, www.kingdom.com/sa.

الفصل الثالث: تدفق الإنترنت

1. Elham Ghashghai and Rosalind Lewis, *Issues Affecting Internet Use in Afghanistan and Developing Countries in the Middle East*, RAND Issue Paper, 2002, 3.
2. James Steinberg, "Information Technology and Development: Beyond 'Ether/Or'," *Brookings Review*, Spring 2003, 46.
3. Steinberg, "Information Technology and Development"; "Behind the Digital Divide," *Economist*, March 12, 2005, 22.

4. "Behind the Digital Divide." 22, 25.
5. Ibid., 25; Ghashghai and Lewis, *Issues Affecting Internet Use,* 3.
6. Catherine Yang, "Wireless Heads for the Hill," *Business Week*, November 28, 2005, 13; Ghashghai and Lewis, *Issues Affecting Internet Use,* 3; "Intel Reveals Wimax Wireless Chip," BBC News, April 18, 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/technology/4455727.stm
7. Jeffery R. Young, "MIT Researchers Unveil a $100 Laptop Designed to Benefit Children Worldwide," *Chronicle of Higher Education*, November 25, 2005, A 41; One Laptop per Child, www.laptop.org.
8. Sharon Lafraniere, "Crowds of Pupils but Little Else in African Schools," *New York Times*, December 30, 2006.
9. Young, "MIT Researchers Unveil," A42.
10. Ghashghai and Lewis, Issues Affecting Internet Use, 4.
11. Victoria Shannon, "What Laptop per Child?" *International Herald Tribune*, November 19-20, 2005.
12. Kevin Sullivan, "Internet Extends Reach of Bangladeshi Villagers," *Washington Post*, November 22, 2006.
13. Johnathan Curiel, "Arab Media Present Varied Viewpoints on Prisoner Abuse," *San Francisco Chronicle*, May 9, 2004.
14. Hendrik Hertzberg, "Big News Week," *The New Yorker*, May 30, 2005; Evan Thomas, "How a Fire Broke Out," *Newsweek*, May 23, 2005, 32.
15. Michael Getler, "Yet Another Wake-Up Call," *Washington Post*, May 22, 2005.
16. Hertzberg, "Big News Week."
17. "Yesterday's Papers," *Economist*, April 23, 2005, 59.
18. "War Beyond the Box," Center for Social Media, www.centerforsocialmedia.org/warbeyondbox.
19. Olesya Dmitracova, "Russians Do in Blogs What Few Can Do in Media: Argue," washingtonpost.com, December 18, 2006, www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/12/18/AR2006121800087.html.
20. Garry Kasparov, "Putin's Critics: A Web Strategy," *Business Week*, June 4, 2007, 112; The Other Russia, theotherrussia.org; Russian Live Journal, community.livejournal.com/daily_russian.

21. David Mattin, "We Are Changing the Nature of News," *Guardian*, August 15, 2005.
22. David Mattin, "We Are Changing"; iTalkNews, www.italknews.com.
23. "The Whole World is Reading," journalism.org, December 13, 2006, http://journalism.org/node/3272; *Global Voices*, www.globalvoices.org.
24. "We Had 50 Images Within an Hour," *Guardian*, July 11, 2005.
25. "Execution Footage a Dilemma for TV News," Television Week, January 8, 2007.
26. Michael Coren, "Internet Aids Tsunami Recovery," CNN.com, January 5, 2005, www.cnn.com/2005/TECH/01/05/tech.tsunami/index.html; Stephanie Storm, "Storm and Crisis: Donations," *New York Times*, September 13, 2005.
27. Live 8, www.live8live.com; "Over 26 Million Text Messages Sent Backing Live 8," *New York Times*, July 4, 2005.
28. Thomas Crampton, "French Police Fear That Blogs Have Helped Incite Rioting, "*New York Times*, November 10, 2005; Molly Moore and Daniel Williams, "France's Youth Battles Also Waged on the Web," *Washington Post*, November 10, 2005, "French Youths Turn to Web, Cell Phones to Plan Riots," *New York Times*, November 9, 2005.
29. Emily Wax, "African Rebels Take Their Battles Online," *Washington Post*, January 14, 2006.
30. Robert W. Hefnerm "Civic Pluralism Denied? The New Media and Jihadi Violence in Indonesia," in *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, eds. Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson, 2nd ed. (Bloomington: Indiana University Press, 2003), 161, 171.
31. Faisal Devji, "*Landscapes of the Jihad: Militancy, Morality, Modernity* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 96.
32. Friedman, Longitudes and Attitudes, 169.
33. "Dial M for Mujahideen," *Economist*, May 20, 2006, 45.
34. Habib Battah, "SMS: The Next TV Revolution," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 16 (Spring 2006), www.tbsjournal.com/Battah.html.
35. Moises Naim, "The YouTube Effect," *Foreign Policy*, January-February 2007, 103-104.

1. Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism (London: Verso, 1991), 6, 7.
2. Merlyna Lim, Islamic Radicalism and Anti-Americanism in Indonesia: The Role of the Internet (Washington, DC: East-West Center, 2005), viii.
3. Andrew Cockburn, "Iraq's Resilient Minority," *Smithsonian*, December 2005, 44.
4. Christopher Catherwood, *Winston's Folly: Imperialism and the Creation of Modern Iraq* (London: Constable, 2004), 113, 180.
5. Christiane Bird, A Thousand Sighs, a Thousand Revolts: Journeys in Kurdistan (New York: Random House, 2005), 143.
6. Cockburn, "Iraq's Resilient Minority," 54.
7. William Merrifield, "MED-TV: Kurdish Satellite Television and the Changing Relationship Between the State and the Media," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 14, (Spring 2005), www.tbsjournal.com/Archives/Spring05/merrifield.html.
8. Sakr, *Satellite Realms*, 62; M. Hakan Yavuz, "Media Identities for Alevis and Kurds in Turkey," in *New Media in the Muslim World*, 193.
9. Merrifield, "MED-TV."
10. "Medya TV CEO Denies links with PKK," www.clandestineradio.com, February 25, 2004, www.clandestineradio.com/crw/news.php?id=&stn=684&news=345.
11. Yigal Schleifer, "Denmark Again? Now It's Under Fire for Hosting Kurdish TV Station," *Christian Science Monitor*, April 21, 2006.
12. "About KWR," KurdistanWeb.org, http://kurdistanweb.org/kw/about-kw.html.
13. Kurdish Media, www.kurdmedia.com/.
14. Roy, *Globalized Islam*, ix, 18, 146.
15. Anthony Shadid, Legacy of the Prophet: Despots, Democrats, and the New Politics of Islam (Boulder, CO: Westview Press, 2002), 252, 253,266.

16. Devji, *Landscapes of the Jihad*, 22, 72, 74.
17. Friedman, Longitudes and Attitudes, 137.
18. Lawrence Pintak, Reflections in a Bloodshot Lens: America, Islam and the War of Ideas (London: Pluto Press, 2006), 244, 241.
19. Devji, Landscapes of the Jihad, 28.
20. Quintan Wiktorowicz, "The Salafi Movement: Violence and Fragmentation of Community," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, eds. Miriam Cooke and Bruce B. Lawrence (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005), 220.
21. Sakr, Satellite Realms, 34.
22. Anthony Bubalo and Greg Fealy, *Between the Global and the Local: Islamism, the Middle East, and Indonesia*, Brookings Institution, U.S. Policy Toward the Islamic World, Analysis Paper, no. 9, October 2005.
23. Karim Raslan, "The Islam Gap," *New York Times*, February 15, 2006.
24. Eickelman and Anderson, *New Media in the Muslim World*, 1.
25. Pew Research Center, *Islamic Extremism: Common Concern for Muslim and Western Publics*, Global Attitudes Project, July 14, 2005, http://pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=248.
26. Reza Aslan, No God But God: The Origins, Evolutions, and Future of Islam (New York: Random House, 2006), 237.
27. David Martin Jones and M. L. R. Smith, "Greetings From the Cybercaliphate: Some Notes on Homeland Insecurity," *International Affairs* 81, no. 5 (October 2005): 941.
28. Roy, Globalized Islam, 19.
29. IslamOnline.net-About Us, www.ialamonline.net/english/aboutus.
30. Roy, Globalized Islam, 112.
31. Jon W. Anderson, "The Internet and Islam's New Interpreters," in *New Media in the Muslim World*, 45, 48.
32. Jakob Skovgaard-Peterson, "The Global Mufti," in *Globalization and the Muslim World: Culture, Religion, and Modernity*, eds. Birgit Schaebler and Leif Stenberg (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2004), 155-156.

33. Jon W. Anderson, "New Media, New Publics: Reconfiguring the Public Sphere of Islam," *Social Research* 70, no. 3 (Fall 2003): 898.
34. Kepel, The War for Muslim Minds, 19.
35. Shadid, *Legacy of the Prophet*, 68; Marc Lynch, "Al Qaeda's Media Strategies," National Interest, March 1, 2006, www.nationalinterest.org/Article.asp?id=11524.
36. Gary R. Bunt, Islam in the Digital Age: e-jihad, Online Fatwas, and Cyber Islamic Environments (London: Pluto Press, 2003), 211.
37. IslamiCity-Islam & the Global Muslim eCommunity, www.islamicity.com
38. Jon W. Anderson, "Wiring Up: The Internet Difference for Muslim Networks," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, 255, 256.
39. Peter Mandaville, "Communication and Diasporic Islam: A Virtual *Ummah*?" in *The Media of Diaspora*, ed, Karim H. Karim (London: Routledge, 2003), 135, 146.
40. Sam Cherribi, "From Baghdad to Paris: Al Jazeera and the Veil," *Harvard International Journal of Press/Politics* 11, no. 2 (Spring 2006): 122, 124, 128.
41. Hefner "Civic Pluralism Denied?" 160.
42. Lim, Islamic Radicalism and Anti-Americanism in Indonesia, 44, 46.
43. Devji, Landscapes of the Jihad, 66.
44. Eickelman and Anderson, *New Media in the Muslim World*, 8.
45. Jocelyne Cesari, "Islam in the West: Modernity and Globalization Revisited," in *Globalization and the Muslim World*, 86.
46. Lim, Islamic Radicalism and Anti-Americanism in Indonesia, viii.
47. Carl W. Ernst, "Ideological and Technological Transformations of Contemporary Sufism," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, 203.

الفصل الخامس: ترابطات عالمية، إرهاب عالمي

1. "Hizb ut-Tahrir al-Islami (Islamic Party of Liberation)," GlobalSecurity.org, www.globalsecurity.org/military/world/para/hizb-ut-tahrir.htm.
2. Zeyno Baran, "Fighting the War of Ideas," *Foreign Affairs*, November-December 2005, 72-73.

3. Roy, *Globalized Islam*, 238, 270.
4. Hizb ut-Tahrir, www.hizb-ut-tahrir.org.
5. James Brandon, "Hizb ut-Tahrir's Growing Appeal in the Arab World," *Jamestown Foundation Terorism Monitor* 4, no. 24 (December 14, 2006).
6. Madeleine Gruen, "Hizb ut-Tahrir's Activities in the United States," *Jamestown Foundation Terorism Monitor* 5, no. 16 (August 16, 2007).
7. Abdel Bari Atwan, *The Secret History of al Qaeda* (Berkeley: University of California Press, 2006), 222.
8. National Commission on Terrorist Attacks, 9/11 *Commission Report*, 362-363.
9. Devji, Landscapes of the Jihad, 137.
10. Jason Burke, *Al Qaeda: Casting a Shadow of Terror* (London: I.B. Tauris, 2003), 12.
11. Michael Scheuer, "Al Qaeda Doctrine for International Political Warfare," *Jamestown Foundation Terorism Monitor Focus* 3, no. 42 (October 31, 2006).
12. National Commission on Terrorist Attacks, 9/11 *Commission Report*, 145.
13. Michele Zanini and Sean J. A. Edwards, "The Networking of Terror in the Information Age," in *Networks and Netwars: The Future of Terror, Crime, and Militancy*, eds. John Arquila and David Ronfeldt (Santa Monica, CA: RAND, 2001), 34.
14. Gabriel Weimann, *Terror on the Internet: The New Arena, the New Challenges* (Washington, DC: U.S. Institute of Peace Press, 2006), 115-116.
15. Craig Whitlock, "The New Al Qaeda Central," *Washington Post*, September 9, 2007.
16. Lawrence Wright, "The Terror Web," *The New Yorker*, August 2, 2004, 44.
17. See Ron Suskind, *The One Percent Doctrine*, (New York: Simon & Schuster, 2006).
18. Michael Scheuer, *Imperial Hubris: Why the West Is Loosing the War on Terror* (Washington, DC: Brassey's, 2004), 81.
19. Weimann, Terror on the Internet, 66.

20. Atwan, The Secret History of al Qaeda, 112.
21. Weimann, *Terror on the Internet*, 65, 67; Robert Spencer, "Al Qaeda Internet Magazine *Sawt al-Jihad* Calls to Intensify Fighting During Ramadan, "*Jihad Watch*, October 23, 2004, www.jihhadwatch.org/archives/003647.php.
22. Weimann, Terror on the Internet, 44.
23. Steve Coll and Suzan B. Glasser, "Terrorists Move Operations to Cyberspace," *Washington Post*, August 7, 2005.
24. Scheuer, *Imperial Hubris*, 79, 81.
25. Nadya Labi, "Jihad 2.0," Atlantic Monthly, July-August, 2006, 103.
26. Middle East Media Research Institute, American al Qaeda Operative Adam Gadahn, al Qaeda Deputy al-Zawahiri, and London Bomber Shehzad Tanweer in New al Sahab/al Qaeda Film Marking the First Anniversary of the 7/7 London Bombings, Special Dispatch Series, no. 1201, July 11, 2006, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP120106; Jessica Stern, "Al Qaeda, American Style," New York Time, July 15, 2006.
27. Michael Scheuer, "Al Qaeda's Media Doctrine: Evolution from Cheerleader to Opinion-Shaper," *Jamestown Foundation Terorism Monitor Focus* 4, no. 15, May 22, 2007.
28. Dan Murphy and Jill Carrol, "Al Qaeda Ramps Up Its Propaganda," *Christian Science Monitor*, July 16, 2007; Bruce Riedel, "Al Qaeda Strikes Back," *Foreign Affairs* 86, no. 3 (May-June 2007): 30.
29. "As-Sahab: Al Qaeda's Nebulous Media Branch," *Stratfor Daily Terrorism Brief*, September 8, 2006, www.stratfor.com; Hassan M. Fattah, "Al Qaeda Increasingly Reliant on Media," *New York Time*, September 30, 2006.
30. Middle East Media Research Institute, *Islamist Websites Monitor* No. 85, Special Dispatch Series, no. 1543, April 13, 2007, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP15410; Andrew Black, "Al Qaeda in the Islamic Maghreb's Burgeoning Media Apparatus," *Jamestown Foundation Terorism Focus* 14, no. 14 (May 15, 2007).

31. Labi, "Jihad 2.0," 102.
32. Robert F. Worth, "Jihadists Take Stand on Web, and Some Say It's Defensive," *New York Times*, March 13, 2005.
33. Suzan B. Glasser and Steve Coll, "The Web as a Weapon," *Washington Post*, August 9, 2005.
34. Various Examples Available at the MEMRI TV Website, www.memri.org.
35. Paul Jenkins, "Redefining Terror," *World Today*, August-September 2006, 8.
36. Worth, "Jihadists Take Stand on Web."
37. Marc Santora and Damien Cave, "Banned Station Beam Voice of Iraq Insurgency," *New York Times*, January 21, 2007.
38. Paul Richter, "U.S., Saudis at Odds Over TV Station," *Los Angeles Times*, May 31, 2007.
39. Kepel, War for Muslim Minds, 114.
40. Devji, Landscapes of the Jihad, 99, 162.
41. Evan F. Kohlmann, "The Real Online Terrorist Threat," *Foreign Affairs*, 85, no. 5, (September October 2006), 117; *Middle East Media Research Institute, Islamist Websites Monitor* # 82-85, Special Dispatch Series, no. 1534, April 13, 2007, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP154307.
42. "A World Wide Web of Terror," *The Economist*, July 14, 2007, 28-29.
43. Middle East Media Research Institute, *Islamist Website Instructs Mujahideen in Using Popular U.S. Web Forums to Foster Anti-War Sentiment Among Americans,* Special Dispatch Series, no. 1508, March 20, 2007, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP150807; and *How Islamist Internet Forums Are Used to Inform Mujahideen of News From Western Media*, Special Dispatch Series, no. 1615, June 8, 2007, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP161507.

1. Alterman, "Information Revolution and the Middle East," 245.
2. Shanthi Kalathil and Taylor C. Boas, *Open Networks, Closed Regimes: The Impact of the Internet on Authoritarian Rule* (Washington, DC: Carnegie Endowment for International Peace, 2003), 128, 136, 44.
3. Reporters Without Borders, 2006 *Internet Annual Report*, www.rsf.org/IMG/pdf/report.pdf.
4. Shanthi Kalathil, "Dot Com for Dictators," *Foreign Policy*, March-April 2003, 44.
5. Singapore i-government, www.igov.sg/programmes/eGap_II; eCitizen: Your Gateway to All Government Services, www.ecitizen.gov.sg.
6. Kalathil, "Dot Com for Dictators," 48.
7. Cathy Hong, "New Political Tool: Text Messaging," *Christian Science Monitor*, June 30, 2005.
8. "The Party, the People, and the Power of Cyber-talk," *The Economist*, April 29, 2006, 28; Edward Cody, "Despite a Ban, Chinese Youth Navigate to Internet Cafes," *Washington Post*, February 9, 2007; China Internet Network Information Center, www.cnnic.net.cn.
9. Bruce Einhorn, "The Net's Second Superpower," *Business Week*, March 15, 2005, 54-55.
10. "The Party, the People," 27; RAND, "RAND Report Says Internet Unlikely to Spark Major Political Change in China in Near Future," news release, August 26, 2002, www.rand.org/news.press.02/dissent.html.
11. Mark Magnier, "China Clamps Down on Web News Discussion," *Los Angeles Times*, February 26, 2004.
12. Howard W. French, "As Chinese Students Go Online, Little Sister Is Watching," *New York Times*, May 9, 2006.
13. Cody, "Despite a Ban."
14. Peter S. Goodman and Mike Musgrove, "China Blocks Web Search Engines," *Washington Post*, September 12, 2002; Bruce Einhorn and Ben Elgin, "The Great Firewall of China," *Business Week*, January 23, 2006, 34.

15. Fareed Zakaria, The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad (New York: Norton, 2003), 85.
16. Anne Applebaum, "Let a Thousand Filters Bloom," *Washington Post*, July 20, 2005.
17. Kathy Chen and Geoffrey A. Fowler, "Microsoft Defends Censoring a Dissident's blog in China," *Wall Street Journa*l, January 6, 2006.
18. "The End of the Affair," *The Economist*, September 24, 2005, 80.
19. Tina Rosenberg, "Building the Great Firewall on China, With Foreign Help," *New York Times*, September 18, 2005.
20. John Pomfret, "Outbreak Gave China's Hu an Opening," *Washington Post*, May 13, 2003.
21. Ibid.
22. Magnier, "China Clamps Down on Web News Discussion"; Tim Luard, "China Clamps Down on Online Justice," BBC News Online, January 19, 2004, http://news.bbc.co.uk/2/hi/asia-pacific/3409995.stm.
23. Philip P. Pan, "Chinese Evade Censors to Discuss Police Assault," *Washington Post*, December 17, 2005; Howard W. French, "Beijing Casts Net of Silence Over Protest," *New York Times*, December 14, 2005; "In Memory of Miss Liu Hezhen," www.marxist.org/archive/lu-xun/1926/04/01.
24. Michael Singer, "Triangle Boy Unleashed," internetnews.com, March 8, 2001.
25. Ethan Gutmann, "Who Lost China's Internet?" *Weekly Standard*, February 25, 2002; Ben Elgin, "Outrunning China 's Web Corps," *Business Week,* February 20, 2006, 38.
26. Chris Buckley, "Internet Muckraker Challenges China's Censors," *Washington Post*, February 17, 2006; Nicholas D. Kristof, "Death by a Thousand Blogs," *New York Times*, May 24, 2005.
27. China Shuts Two Popular Blogs in Latest Crackdown," Reuters, March 8, 2006.
28. Einhorn and Elgin, "The Great Firewall of China"; Chen and Fowler, "Microsoft Defends Censoring a Dissident's blog in China."

29. Philip P. Pan, "Bloggers Who Pursue Change Confront Fear and Mistrust," *Washington Post*, February 21, 2006.
30. Kristof, "Death by a Thousand Blogs"; Nicholas D. Kristof, "In China, It's ******* vs. Netizens," *New York Times*, June 20, 2006.
31. "Google to Censor Results on New Chinese Search Site," *Washington Post*, January 25, 2006.
32. OpenNet Initiative, *China Tightens Controls on Internet News Content Through Additional Regulations*, Bulletin 012, July 5, 2006, www.opennetinitiative.net/bulletins/012.
33. Philip P. Pan, "Leading Publication Shut Down in China," *Washington Post*, January 25, 2006; Jim Yardley, "Chinese Journal Closed by Censors Is to Reopen," *New York Times*, February 16, 2006; Minxin Pei, "Media Control Gets More Tricky," *Straits Times*, February 27, 2006.
34. Xu Wu, "A Chronicle of Chinese Cyber Nationalism," (paper presented at the International Studies Association annual convention, March 23, 2006), 1, 5; Jim Yardley, "A hundred Cellphones Bloom,, and Chinese Take to the Street," *New York Times*, April 25, 2005.
35. Zakaria, *Future of Freedom*, 85.
36. "Myanmar" is the name invented by the junta calling itself State Law and Order Restoration Council when it forcibly seized power in 1989. Some news organizations, governments, and political leaders, including the president of the United States, continue to refer to the country by its historic name, Burma, I have used Burma here.
37. Lars Bevanger, "Burmese TV Broadcasts from Norway," BBC News Online, August 22, 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/asia-pacific/4173748.stm.
38. Reporters Without Borders, Burma Annual Report-2006, www.rsf.org/article.php3?id_article=17346.
39. Howard W. French, "Online Newspaper Shakes Up Korean Politics," *New York Times*, March 6, 2003.
40. David Anable, "The Role of Georgia's Media-and Western Aid- in the Rose Revolution," *Harvard International Journal of Press/Politics* 11, no. 3 (Summer 2006): 7.

41. David Ignatius, "Reality Check for the Neo-Wilsonians," *Washington Post*, January 26, 2005.
42. Anable, "Role of Georgia's Media," 10.
43. Adrian Karatnycky, "Ukraine's Orange Revolution," *Foreign Affairs* 84, no. 2 (March-April): 43.
44. OpenNet Initiative, "Internet Filtering in Vietnam in 2005-2006: A Country Study," www.opennet.net/studies/vietnam.
45. Randeep Ramesh, "Bloggers' Fury as India Blocks Sites," *Guardian*, July 19, 2006.
46. Spencer Kelly, "Getting Connected in Rural India," BBC Click Online, October 21, 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/programmes/click_online4364168.stm.
47. Gopal Sharma, "Banned From the Air, Nepal News Radio Hits Streets," Reuters, June 21, 2005.
48. Kalathil and Boas, Open Networks, Closed Regimes, 73; Cherian George, Contentious Journalism and the Internet: Towards Democratic Discourse in Malaysia and Singapore (Singapore: Singapore University Press, 2006), 56, 76.
49. George, Contentious Journalism and the Internet, 2, 121.
50. Elaine Sciolino, "A New French Headache: When Is Hate on TV Illegal?" *New York Times*, December 9, 2004; Doreen Carvajal, "French Court Orders a Ban on Hezbollah-Run TV Channel," *New York Times*, December 14, 2004; "Europeans Ban Hezbollah-Run TV Channel," *New York Times*, March 18, 2005.
51. Jeremy R. Azrael and D. J. Peterson, *Russia and the Information Revolution*, RAND Issue Paper (Santa Monica, CA: RAND, 2002).
52. Mark Glasser, "Journalist Paints Bleak Picture for Media in Zimbabwe," *Media Shift*, PBS, September 6, 2006, www.pbs.org/mediashift/2006/09/digging_deeperjournalist_paint.
53. "Narrowing the Digital Divide," *Wired News*, November 15, 2005; "Can Technology Ease Africa's Woes?" Reuters, November 15, 2005.

1. Mohamed Zayani, "Introduction-Al Jazeera and the Vicissitudes of the New Arab Mediascape," in *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, ed. Mohamed Zayani (Boulder, CO: Paradigm Publishers, 2005), 33.
2. Robin Right, "Al Jazeera Puts Focus on Reform," Washington Post, May 8, 2005.
3. Hugh Miles, Al-Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel That Is Challenging the West (New York: Grove: 2005): 327, 328.
4. Bernard Lewis, "Freedom and Justice in the Modern Middle East," *Foreign Affairs* 84, no. 3,(May-June, 2005): 46.
5. Marc Lynch, "Assessing the Democratizing Power of Satellite TV," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 14, (Spring 2005), www.tbsjournal.com/Archives/Spring05/Lynch.html.
6. Mustafa el-Menshawy, "Little Match Box, Lots of Spark," *Al-Ahram Weekly*, December 29, 2005.
7. Lynch, "Assessing the Democratizing Power of Satellite TV."
8. Mohamed Darwish, "Once Again Divided," *Al-Ahram Weekly*, October 16, 2003.
9. Lewis, "Freedom and Justice in the Modern Middle East," 47.

   Zayani, "Introduction." 35.
10. Marc Lynch, "Watching Al Jazeera," *Wilson Quarterly*, Summer 2005, 44.
11. Miles, *Al-Jazeera*, 328.
12. UN Development Program, Arab Human Development Report 2004: Towards Freedom in the Arab World (New York: UN Publications, 2005), 22.
13. Kalathil and Boas, *Open Networks, Closed Regimes*, 150.
14. Charles A. Kupchan, The End of the American Era: U.S. Foreign Policy and the Geopolitics of the Twenty-first Centry (New York: Knopf, 2002), 106.

15. David Ignatius, "Careful With Syria," *Washington Post*, November 18, 2005.
16. UN Development Program, *Arab Human Development Report 2003*: Building a Knowledge Society (New York: UN Publications, 2003), 63; Internet Usage World Stats: Internet and Population Statistics, www.internetworldstats.com.
17. Nicholas Watt and Leo Cendrowics, "Brussels Call for Media Code to Avoid Aiding Terrorists," *Guardian*, September 21, 2005.
18. Technorati: About Us, http://technorati.com/about.
19. Madeleine K. Albright, and Vin Weber, *In Support of Arab Democracy: Why and How: Report of an Independent Task Force* (New York: Council on Foreign Relations, 2005), 30.
20. Neil MacFarquhar, "In Tiny Arab State, Web Takes on Ruling Elite," *New York Times*, January 15, 2006.
21. Hong, "New Political Tool: Text Messaging."
22. Steven Coll, "In the Gulf, Dissidence Goes Digital," *Washington Post*, March 29, 2005.
23. Zayani, "Introduction." 35.
24. Alterman, "Information Revolution and the Middle East," 243.
25. Lynch, "Assessing the Democratizing Power of Satellite TV."
26. Ramez Maluf, "Arab Media in a Shrinking World," *Stanley Foundation Courier*, no. 48 (Summer 2005), 14.
27. Magda Abu-Fadil, "Live From Martyr's Square: Lebanon's 'Reality TV' Turns Coverage of Peaceful Protests into Media Battle," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 14 (Spring 2005), www.tbsjournal.com/Archives/Spring2005/Abufadil.html.
28. Osama el-Ghazali Harb, "Fear of Freedom," *Al-Ahram Weekly*, April 14, 2005.
29. Naguib Mahfouz, "The Media's Long Road," *Al-Ahram Weekly*, December 23, 2004.
30. Tom Perry, "Egyptian State Media Ignore U.S. Calls for Reform," Reuters, June 22, 2005.

31. Dina Ezzat, "Now Showing," *Al-Ahram Weekly*, June 9, 2005; Daniel Williams, Apalled at Beating of Protests, Egypt's Opposition Leaps to Action," *Washington Post*, July 6, 2005; Bloggers Spearhead Anti-Mubarak Dissent," Agence France Press, August 29, 2005.
32. Mark Glaser, "Blogs, Wiki, Google Bomb Used to Free Egyptian Activist," *Media Shift*, PBS, May 23, 2006, www.pbs.org/mediashift/2006/05/diigging_deeperblogs_wiki_googl_1.html.
33. Salama A. Salama, "Media Reform!" *Al-Ahram Weekly*, July 1, 2004.
34. Nasrin Alvi, *We Are Iran: The Persian Blogs* (Brooklyn, NY: Soft Skull Press, 2005), 219, 280.
35. Saeed Kamali Dehghan, "Iran's Big Brother for Bloggers," *Guardian*, June 7, 2007; Alavi, *We are Iran*, 1, 2, 4; Nahid Siamdoust, "Iranian Blogger Returns From Exile for Vote," *Los Angeles Times*, June 23, 2005; "Iran Cracks Down on Bloggers," Associated Press, March 28, 2006.
36. "Iran Cracks Down on Bloggers," Associated Press, March 28, 2006.
37. Siamdoust, "Iranian Blogger Returns"; "Iran Cracks Down on Bloggers"; Amol Sharma, "Muckraking Mullahs," *Foreign Policy*, May-June 2002, 99; Dehghan, "Iran's Big Brother for Bloggers."
38. Alavi, *We are Iran*, 248-49, 319.
39. Ibid., 102; Siamdoust, "Iranian Blogger Returns."
40. Alavi, *We are Iran*, 345.
41. Middle East Media Research Institute, *Interview With Editor in Chief of the Reformist Web Site Metransparent.com*, Special Dispatch Series, no. 1193, June 28, 2006, www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP119306.
42. Marwan Kraidy, "Syria: Media Reform and It's Limitations," *Arab Reform Bulletin* 4, no. 4 (May 2006): 3-4.
43. "Syria's Internet Services as Platform for Dissidents," *Daily Star*, March 15, 2006; Gal Beckerman, "The New Arab Conversation," *Columbia Journalism Review*, January-February 2007, 19.
44. James Palmer, "Baghdad Radio Lets Foes Talk Things Out," *Washington Times*, January 18, 2006; "Talk Radio Comes to Baghdad," BBC News,

June 19, 2004, news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/3821307.stm

45. Yochi J. Dreazen, "Women Find a Voice at Iraq Radio Station," *Wall Street Journal, July* 29, 2005.
46. Anne Alexander, "Iraqi Web Sites," *Global Media and Communication* 1, no. 2 (August 2005): 226.
47. Hassan M. Fattah, "Dubai Opens Door Wide to News Media, but Journalists Note a Catch," *New York Times*, September 11, 2005.
48. Adnan Malik, "Bahrainis Ask for Information Minister's Resignation Over Internet Censorship," Associated Press, May 4, 2002; MacFarquhar, "In Tiny Arab State, Web Takes on Ruling Elite."
49. "Local Content Filtering Policy," Internet Services Unit, www.isu.net.sa/saudi-internet/contenet-filtring/filtering-policy.htm.
50. Faiza Saleh Ambah, "New Clicks in the Arab World," *Washington Post*, November 12, 2006.
51. Andrew Hammond, "Outspoken Saudi Bloggers Wary of 'Official' Group," Reuters, May 3, 2006; David Crowford, "Battle for Ears and Minds: As Technology Gives New Voice to Dissidents, a Saudi Vies to Be Heard," *Wall Street Journal*, February 4, 2004: Bradley, *Saudi Arabia Exposed*, 193-195.
52. UN, "Mass Media, Press Freedom and Publishing in the Arab World: Arab Intellectuals Speak Out," news release, October 20, 2003.
53. Youssef M. Ibrahim, "Will the Mideast Bloom?" *Washington Post*, March 13, 2005.
54. Hassan M. Fattah, "Challenging Saudi Arabis's Powerful, One Caller at a Time," *New York Times*, May 5, 2007.
55. Ramzy Baroud, "Citizen Journalism," *Al-Ahram Weekly*, July 20, 2006; "The Battle for Public Relations," *The Economist*, March 26, 2005, 48.
56. Al Manar, www.almanar.com.lb; Avi Jorisch, *Beacon of Hatered: In side Hizballah's Al- Manar Television* (Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 2004), ix.
57. Jay Solomon and Mariam Fam, "Air Battle: Lebanese News Network Draws Fire as Arm of Militant Group," *Wall Street Jounal*, July 28, 2006.

58. Philip Seib, *The Global Journalist: News and Conscience in a World of Conflict* (Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2002), 68.
59. Jon Alterman, "The Key Is Moving Beyond Spectacle," *Daily Star*, December 27, 2004.
60. Samantha M. Shapiro, "Ministering to the Upwardly Mobile Muslim," *New York Times Magazine*, April 30, 2006.
61. Lindsay Wise, "Amr Khaled vs. Yusul Al Qaradawi: The Danish Cartoon Controversy and the Clash of Two Islamic TV Titans," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 16 (Spring 2006), www.tbsjournal.com/Wise.htm.
62. Will Rasmussen, "Heya Satellite Channel Tackles Women's Core and Controversial Issues in Middle East," *Daily Star*, February 25, 2005.
63. Hassan Fattah, "Voting, Not Violence, Is the Big Story on Arab TV," *New York Times*, January 30, 2005.
64. Lewis, What Went Wrong? 151.
65. Gadi Wolfsfeld, "Media and the Path to Peace (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), 102, 2, 5.
67. U N Development Program, Arab Human Development Report 2004, 65.
68. Jennifer L. Windsor and Brian Katulis, "Three Keys to the Cowed Arab Media," *Daily Star*, May 17, 2005.
69. Kepel, War for Muslim Minds, 293.

الفصل الثامن: ماذا يعني كل ذلك

1. "Overview of Research and Methodology," BeAWitness.org, www.beawitness.org/methodology.
2. Nicholas Kristof, "All Ears for Tom Cruise, All Eyes on Brad Pitt," *New York Times*, July 26, 2005.
3. Leroy Severs, "There Is Evil," *Los Angeles Times*, June 12, 2005.
4. "Flood, Famine, and Mobile Phones," *The Economist*, July 28, 2007, 61-62, ReliefWeb, www.reliefweb.int; NetHope: Wiring the Global Village, www.nethope.org.

5. Middle East Media Research Institute, *Renowned Syrian Poet, "Adonis": We in Arab Society, Do Not Understand the Meaning of Freedom*," Special Dispatch Series, no. 1393, December 14, 2006, http://www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=sd&ID=SP139306.
6. Dominique Moisi, "The Clash of Emotions," *Foreign Affairs* 86, no. 1 (January-February 2007): 8.
7. Edward W. Saeed, *Orientalism*, (New York: Vintage, 23), 347.
8. "If You Want My Opinion," *The Economist*, March 10, 2007, 58.
9. Scott Atran, "In Indonesia, Democracy Isn't Enough," *New York Times*, October 5, 2005.
10. Nicholas Kristof, "The Muslim Stereotype," *New York Times*, December 10, 2006.
11. George Packer, "Knowing the Enemy: Can Social Scientists Redefine the 'War on Terror'?" *The New Yorker*, December 18, 2006, 60, 64; "The Future of the Jihadi Movement: A Five-Year Forecast," *Chronicle of Higher Education*, October 20, 2006.
12. Somini Sengupta and Salman Masood, "Guantanamo Comes to Define U.S. to Muslims," *New York Tiimes*, May 21, 2005.
13. Robert R. Reilly, "Britney vs. the Terrorists," *Washington Post*, February 9, 20007.
14. William A. Rugh, "Broadcasting and American Public Diplomacy," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 14 (Spring 2005), www.tbsjournal.com/Archives/Spring05/rugh.html.
15. William McKenzie, "Karen Hughes Q and A: Public Diplomacy in Real Time," *Dallas Morning News*, December 12, 2006.

مراجع مختارة

كتب

- Alvi, Nasrin. *We Are Iran: The Persian Blogs*. Brooklyn, NY: Soft Skull Press, 2005.
- Albright, Madeleine K., and Vin Weber. *In Support of Arab Democracy: Why and How: Report of an Independent Task Force*. New York: Council on Foreign Relations, 2005.
- Anderson, Benedict. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. London: Verso, 1991.
- Atwan, Abdel Bari. *The Secret History of Al Qaeda*. Berkeley: University of California Press, 2006.
- Bensahel, Nora, and Daniel L. Byman, eds. The Future Security Environment in the Middle East: Conflict, Stability, and Political Change. Santa Monica, CA: RAND, 2003.
- Bird, Christiane. A Thousand Sighs, a Thousand Revolts: Journeys in Kurdistan. New York: Random House, 2005.
- Bradley, John R. *Saudi Arabia Exposed: Inside a Kingdom in Crisis*. New York: Palgrave Macmillan, 2005.
- Bunt, Gary R. Islam in the Digital Age: e-jihad, Online Fatwas, and Cyber Islamic Environments. London: Pluto Press, 2003.
- ---. Virtually Islamic: *Computer-Mediated Communication and Cyber Islamic Environments*. Cardiff: University of Wales Press, 2000.
- Catherwood, Christopher. Winston's Folly: Imperialism and the Creation of Modern Iraq. London: Constable, 2004.

- Cooke, Miriam, and Bruce B. Lawrence. *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005.
- Devji, Faisal. *Landscapes of the Jihad: Militancy, Morality, Modernity*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005.
- Eickelman, Dale F., and Jon W. Anderson, eds. *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*. 2nd ed. Bloomington: Indiana University Press, 2003.
- Friedman, Thomas L. Longitudes and Attitudes: The World in the Age of Terrorism. New York: Anchor Books, 2003.
- George, Cherian. Contentious Journalism and the Internet: Towards Democratic Discourse in Malaysia and Singapore. Singapore: Singapore University Press, 2006.
- Handbook for Bloggers and Cyber-dissidents. Paris: Reporters Without Borders, 2005.
- Kalathil, Shanthi, and Taylor C. Boas, *Open Networks, Closed Regimes: The Impact of the Internet on Authoritarian Rule*. Washington, DC: Carnegie Endowment for International Peace, 2003.
- Kepel, Gilles. *The War for Muslim Minds: Islam and the West*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004.
- Lewis, Bernard. What Whent Wrong? Western Impact and Midddle Eastern Response. New York: Oxford University Press, 2002.
- Lim, Merlyna. Islamic Radicalism and Anti-Americanism in Indonesia: The Role of the Internet. Washington, DC: East-West Center, 2005.
- Lynch, Marc. Voices of the New Arab Public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle East Politics Today. New York: Columbia University Press, 2006.
- Miles, Hugh. Al-Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel That Is Challenging the West. New York: Grove: 2005.
- National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States. New York: Norton, 2004.
- Pintak, Lawrence. Reflections in a Bloodshot Lens: America, Islam and the War of Ideas. London: Pluto Press, 2006.

- Roy, Olivier. *Globalized Islam: The Search for Anew Ummah*. New York, Columbia University Press, 2004.
- Sakr, Naomi. Satellite Realms: Transnational Television, Globalization, and the Middle East. London: I.B. Tauris, 2001.
- Schaebler, Birgit, and Leif Stenberg, eds. *Globalization and the Muslim World: Culture, Religion, and Modernity*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2004.
- Seib, Philip. The Global Journalist: News and Conscience in a World of Conflict. Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2002.
- Shadid, Anthony. Legacy of the Prophet: Despots, Democrats, and the New Politics of Islam. Boulder, CO: Westview Press, 2002.
- Weimann, Gabriel. *Terror on the Internet: The New Arena, the New Challenges*. Washington, DC: U.S. Institute of Peace Press, 2006.
- Wright, Lawrence. The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11. New York: Knopf, 2006.
- Zayani, Mohamed, ed. The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media. Boulder, CO: Paradigm, 2005.

مقالات، فصول، وتقارير

- Al Kasim, Faisal. "The Opposite Direction: A Program Which Changed the Face of Arab Television," in *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, edited by Mohamed Zayani. (Boulder, CO: Paradigm, 2005.
- Alterman, Jon B., "The Information Revolution and the Middle East," in *The Future Security Environment in the Middle East: Conflict, Stability, and Political Change*, edited by Nora Bensahel and Daniel L. Byman. Santa Monica, CA: RAND, 2003.
- Anable, David. "The Role of Georgia's Media-and Western Aid- in the Rose Revolution," *Harvard International Journal of Press/Politics* 11, no. 3 (Summer 2006): 7-43.
- Anderson, Jon W., "The Internet and Islam's New Interpreters," in *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, edited by.

Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson. 2nd ed. Bloomington: Indiana University Press, 2003.

- ---. "New Media, New Publics: Reconfiguring the Public Sphere of Islam," *Social Research* 70, no. 3 (Fall 2003): 887-906.
- ---. "Wiring Up: The Internet Difference for Muslim Networks," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, edited by Miriam Cooke and Bruce B. Lawrence. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005.
- Azrael, Jeremy R., and D. J. Peterson, *Russia and the Information Revolution*, RAND Issue Paper. Santa Monica, CA: RAND, 2002.
- Baran, Zeyno. "Fighting the War of Ideas," *Foreign Affairs*, November-December 2005, 68-78.
- Brinkerhoff, Jennifer M. "Digital Diasporas and Conflict Prevention: The Case of Somalinet.com." Review of International Studies 32, no. 1 (January 2006): 25-47.
- Bubalo, Anthony, and Greg Fealy, *Between the Global and the Local: Islamism, the Middle East, and Indonesia*, Brookings Institution, U.S. Policy Toward the Islamic World, Analysis Paper, no. 9, October 2005.
- Bunt, Gary. "Defining Islamic Interconnectivity." In *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, edited by Miriam Cooke and Bruce B. Lawrence. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005.
- Cherribi, Sam. "From Baghdad to Paris: Al Jazeera and the Veil," *Harvard International Journal of Press/Politics* 11, no. 2 (Spring 2006): 121-138.
- Cockburn. Andrew. "Iraq's Resilient Miinority," *Smithsonian*, December 2005, 43-55.
- Eickelman, Dale F. and Jon W. Anderson. "Redefining Muslim Politics." In *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, edited by. Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson. 2nd ed. Bloomington: Indiana University Press, 2003.
- Ernst, Carl W. "Ideological and Technological Transformations of Contemporary Sufism," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*,

edited by Miriam Cooke and Bruce B. Lawrence. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005.

- Hefner, Robert W, "Civic Pluralism Denied? The New Media and Jihadi Violence in Indonesia," in *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, edited by. Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson, 2nd ed. Bloomington: Indiana University Press, 2003.
- Jones, David Martin, and M. L. R. Smith, "Greetings From the Cybercaliphate: Some Notes on Homeland Insecurity," *International Affairs* 81, no. 5 (October 2005): 925-950.
- Kalathil, Shanthi. "Dot Com for Dictators," *Foreign Policy*, March-April 2003, 43-49.
- Labi, Nadya. "Jihad 2.0," Atlantic Monthly, July-August, 2006, 102-108.
- Mandaville, Peter G. "Communication and Diasporic Islam: A Virtual *Ummah*?" in *The Media of Diaspora*, edited by Karim H. Karim, 135-147 London: Routledge, 2003.
- ---. "Reimagining the *Ummah?* Information Technology and the Changing Boundaries of Islam." In Islam Encountering Globalization, edited by Ali Mohammadi, 66-90. London: RoutledgeCurzon, 2002.
- Merrifield, William. "MED-TV: Kurdish Satellite Television and the Changing Relationship Between the State and the Media," *Transnational Broadcasting Studies Journal*, no. 14, (Spring 2005), www.tbsjournal.com/Archives/Spring05/merrifield.html.
- Packer, George. "Knowing the Enemy: Can Social Scientists Redefine the 'War on Terror'?" *The New Yorker*, December 18, 2006, 60-69.
- Shadid. Anthony, and Kevin Sullivan, "Anatomy of the Cartoon Protest Movement," *Washington Post*, February 16, 2006.
- Shapiro, Samantha M. "Ministering to the Upwardly Mobile Muslim," *New York Times Magazine*, April 30, 2006.
- Stanley Foundation, *Open Media and transitioning Societies in the Arab Middle East: Implications for U.S. Security Policy*. Report in association with the Institute for Near East and Gulf Military Analysis. Muscatine, IA: Stanley Foundation, 2006.

- Wiktorowicz, Quintan. "The Salafi Movement: Violence and Fragmentation of Community," in *Muslim Networks from Hajj to Hip Hop*, edited by. Miriam Cooke and Bruce B. Lawrence. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005.
- Wright, Lawrence. "The Terror Web," *The New Yorker*, August 2, 2004, 40-53.
- Yavuz, Hakan. "Media Identities for Alevis and Kurds in Turkey," in *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, edited by. Dale F. Eickelman and Jon W. Anderson, 2nd ed. Bloomington: Indiana University Press, 2003.

نبذة عن المؤلف

- فيلـــيب ســـيب، بروفيسور الصحافة والديبلوماسية العام في جامعة كاليفورنيا الجنوبية.
- ألـــف وحرر العديد من الكتب، منها "ديبوماسية العناوين: كيف تؤثر التغطية الإعلامية على السياسة الخارجية"؛ "الصحفي العالمي: الأخبار والضمير في عالم من الصراع"؛ "ما وراء الخطوط الأمامية: كيف يغطي الإعلام الإخباري عالما تـــشكله الحرب"؛ "الإعلام والصراع في القرن الحادي والعشرين"؛ "البث أثناء الحـــروب الخاطفة: كيف ساعد إدوارد مورو على قيادة أمريكا نحو الحرب"؛ "الإعلام الجديد والشرق الأوسط الجديد"
- ســـيب محـــرر مـــشارك في مجلـــة "الإعلام، والحرب، والصراع"، ويعيش في كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية.